لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

د. رفعت سيد أحمد

جنين

ملحمة الحرية والاستشهاد

الناشر
مركز يافا للدراسات والأبحاث

جنين ملحمة الدم والشهادة

هذا العمل محاولة لرواية قصة مخيم آثر أن (يستشهد) بدلاً من أن (يسقط) فى زمن صار فيه السقوط مهنة يمتهنها حكام وساسة الصدفة فى أوطاننا ، انه محاولة علمية وبالوثائق المتاحة لتقديم ملحمة مخيم جنين الذى اجتيح سبع مرات آخرها فى أبريل / نيسان ٢٠٠٢م ، فصمد ولايزال ، فى وجه الآلة العسكرية الصهيونية وسط تخاذل الأنظمة وصمت الأمة ؛ مخيم أنجب أمثال محمود الطوالبة القائد الحقيقى لملحمة المخيم الأخيرة ، ومن ينجب مثله يستعصى حتماً على الهزيمة .

لذلك ، قدمنا ، وبالقدر المتاح من المعلومات ، قصته لأجيالنا الجديدة ، التى ننثق أنها وحدها هى القادرة على تحرير فلسطين ، كل فلسطين من البحر الى النهار .

الناشر

جنين : ملحمة الدم .. والشهادة

حقوق النشر محفوظة

الكتاب : جنين : ملحمة الدم .. والشهادة

المؤلف : د. رفعت سيد أحمد

سنة النشر : ٢٠٠٢م - ١٤٢٣ هـ - القاهرة

الناشر :

مركز يافا للدراسات والأبحاث :

العنوان / ص . ب : ٨٠٦ المعادى - القاهرة - هاتف / فاكس / ٣٨٠٦٥٩٦

E – mail : yafafr @ hotmail . com

إهداء

إلى المؤسس ..

إلى من أطلق على نفسه " عز الدين الفارس "

محبة في عز الدين القسام .. وانتماء إلى زمن الصحابة

والرسول .. زمن الفروسية الحقة

إلى من تربى على يدي جهاده : الطوالبة ورفاقه ..

إلى الشهيد المعلم الدكتور فتحي الشقاقي

إجلالاً .. وعرفاناً بالفضل والدور والريادة ..

رفعت سيد أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

(والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم)

تقديم

لم يكن فصل (جنين) فى قصة الصراع مع العدو الصهيونى ، فصلاً عادياً ، يجوز للمؤرخ أن يمر عليه مرور الكرام ، مثل باقى فصول الصراع ، فما جرى بين ليلة ٢٠٠٢/٣/٢٩ وحتى ٢٠٠٢/٤/١١م داخل وحول مخيم جنين ثم ما تلا ذلك من أحداث فى باقى مدن ومخيمات الضفة طيلة شهر أبريل / نيسان ٢٠٠٢م ، سيمثل فى تقديرنا ، نقطة تحول تاريخية فى قصة الصراع .

** لماذا ؟

* لأن ما جرى كان ملخصاً وافياً لطبيعة الصراع ولطبيعة أطرافه ، ولمستقبل هذا الصراع ومصيره ؛ ما جرى كشف الى حد كبير سر هذا الشعب المجاهد الصامد على أرضه ، المحاصر من حكام عروبته واسلامه ، المغروس فى ضمير التاريخ والمستعصى على الهزيمة ، ما جرى مثل برهاناً ساطعاً على حتمية الانتصار ،لأن ما حدث لم يكن فقط مذبحة أو مجزرة قام به عدو مدجج بأحدث الأسلحة وبالعون السياسى الاوروبى والامريكى ، ولكنه كان وبالأساس ملحمة صمود ، لبشر فقراء مظلومين ، لكنهم أشداء ، يمتلكون عنفواناً ، وروحاً تستعصى على الانكسار ؛ لمخيم أبيد عن آخره كبيوت لا كبشر وذكريات ، فأهل هذا المخيم صمموا على الصمود والبقاء حتى الموت دفاعا عن مخيمهم . والسؤال الآن .. ترى هل كانوا يدافعون ، فقط عنه ؛ أى عن هذا المخيم الصغير؟ أم عن أمة وحضارة وتاريخ ووطن أراد البعض سرقته والتجارة به تارة باسم السلام واخرى باسم حقن الدماء وأوهام التسوية ؟

* من زاوية اخرى الذى حدث فى مخيم جنين كان ملخصاً وافياً لمعنى القيادة ، والزعامة فى الأمة، فكون أبناء المخيم يرفعون - ولايزالون رغم الضغوط والاغراءات والزيف - صور محمود طوالبة ، وأبو جندل وأبو الهيجاء ، وجرادات وحمزة سمودى ، ولا يرفعون صور دعاة التفاوض سادة الانحناء ، فهنا ، وهنا فقط تولد الزعامة وتبقى .

* فى مخيم جنين ، تحدثت الدماء وصمت الكلام الفارغ وتحدث الشهداء عن تحرير فلسطين باللغة الوحيدة التى يفهمها العدو : المقاومة ، وصمت السماسرة الجدد .

* لكل هذا استحق هذا المخيم الذى صمد عشرة أيام فى حين يحدثنا التاريخ عن الجيوش العربية التى هزمت فى ستة أيام . استحق ان تخلد قصته ، وشهادته . وأن تروى كاملة وبالوقائع ، وهذه هى مهة هذا الكتاب ، الذى يحاول ، مجرد محاولة ، ان يسجل عبر خمسة فصول ، قصة هذه الملحمة ، مقدماً لها بالسياق الصحيح الذى ولدت فيه ، سياق الانتفاضة المباركة ، انتفاضة الأقصى وتطوراتها ونتائجها ، وصولاً الى قصة بطل جنين الحقيقى ، ذلك الذى قاد معركتها مع رفاقه ، الشهيد المجاهد (محمود طوالبة) ، مروراً بشهادات دولية وعربية ووقائع ما جرى فى جنين .

* انه الكتاب الذى نحاول أن نقدمه كوثيقة ذات وجهين : وجه يدين وبالوقائع عدو نازى فى اجرامه تجاه المدنيين أصحاب الأرض ؛ ووجه يبرز العمق الملحمى لمخيم صمد حين ولى القادة الأدبر ، مخيم لخص من حيث أراد أو لم يرد قصة وطن ، وعقيدة ، أو أمة ، تبحث عن خلاصها وانتصارها ، القادم حتماً بفضل تلك النماذج التى صنعت الملحمة وأدارتها واستشهدت فى سبيلها ؛ وأقصد تحديداً محمود طوالبة ، وأخوته وخياره ، وزمنه ، ولاشك لدينا انه هو الرمز،الخيار والزمان الصحيح ، المنتصر وماعداه باطل الآن أو غداً .

والله المستعان

د . رفعت سيد أحمد

٢٠٠٢/٩/١م

الفصل الأول
قصة الانتفاضة
من الأقصى الى جنين

للنار رائحة الرجوع الى مدنيتنا القديمة
هي كلمة الفتح التي تسرى بها الشفة الكريمة
وهي البراق بمتنه معراجنا فوق الهزيمة
النار تنزع من ملامحنا التجاعيد الرميمة

سمير فراج
من ديوان { الآتون من رحم الغضب }

لا يمكن فهم ملحمة جنين بكل دلالاتها دونما وضعها فى سياق التطور العام للانتفاضة الفلسطينية المباركة منذ اندلاعها يوم ٢٠٠٠/٩/٢٨م ، وكيف أنها (أى ملحمة جنين) أتت كتحول نوعى فى مستوى الصراع بعد ان عجزت الآلة العسكرية الاسرائيلية عن قمع أدوات الانتفاضة من التظاهرات الى الحجارة وصولا الى القنابل البشرية كأبرز إبداع من ابداعات الشعب الفلسطينى فى مواجهة المحتل الصهيونى .

كما هو معلوم بدأت الانتفاضة عندما خطت أقدام مجرم الحرب شارون فوق ثرى المسجد الأقصى فى تحد لمشاعر ملايين العرب والمسلمين ، وفى اجبار منه للفلسطينيين على أن يعودوا معه وعبر الدم الى المربع الأول للصراع : مربع الذبح المتواصل والارهاب الدائم ، مؤكدا وبلسانه ان حرب ١٩٤٨ لاتزال دائرة ، لاغيا منذ هذا التاريخ ، وبالتدريج كل الاتفاقات الوهمية التى سبق ووقعها كل من [اسحق رابين – بيريز – نتنياهو – باراك] مع السلطة الفلسطينية بشأن الانسحاب من مدن الضفة وغزة ، والتى لا تمثل فى مجملها ٧% من مساحة فلسطين الكلية ، ومع ذلك تم التفاوض عليها ثم الانقلاب على هذا التفاوض عبر خيار (شارون) الاستراتيجى خيار الحرب ؛ وقد كان له ما أراد واستمرت الانتفاضة تنتقل تدريجيا من مرحلة الى أخرى ، من مرحلة التظاهرات ورمى الحجارة ، والضغوط السياسية واستقبال الشهداء الى مرحلة (الاستشهاديين) . خاصة بعدما تولى شارون سدة الحكم أوائل عام ٢٠٠١م ، ولم يعد يجدى مع ارهابه المنظم سوى ردع مضاد ، وكان سلاح الاستشهاد هو هذا الوديع ، ووفقا لما ذكرته وزارة الخارجية الاسرائيلية فيما بعد (عام ٢٠٠٢) ، كان مخيم جنين هو (معمل الاستشهاديين) حيث خرجت منه أكبر نسبة استشهاديين فى تاريخ الانتفاضة ، وكان نصيب (حركة الجهاد الاسلامى فى فلسطين) هو النصيب الأوفر حيث من واقع ٤ عملية استشهادية كان للجهاد ١٨ عملية ولحماس ٢٤ ولحركة فتح ٢ . الأمر الذى دفع صحافة العدو الى وصف المخيم بأنه (معقل حركة الجهاد الاسلامى) .

* الانتفاضة إذن ، وبعد ان دخلت على أيدى شارون مرحلة الردع المتبادل ، والعض على الأصابع ، ومن يصرخ أولا ، أنتجت للأمة أسلحة جديدة تعلمها من خلالها معان : الصمود والمقاومة ، وكانت ظاهرة (الاستشهاديات) واحدة من تلك الابداعات العظيمة التى أثمرتها حركة الانتفاضة ، الأمر الذى حرك – مع غيره – روح التضامن الواسعة فى جسد الأمة الخامل بفعل الحكام ، واندلعت المظاهرات فى كافة البلاد الاسلامية والعربية ، وعلت وتيرة المساعدات المالية والسياسية ، وانطلقت دعوات المقاطعة الاقتصادية للمنتجات الامريكية والبريطانية الى حد تكبيد الشركات الأمريكية فى ٤ دول عربية فقط خسائر وصلت الى (٢٠٠ مليون دولار) فى شهر واحد هو شهر أبريل ٢٠٠٢م . شهر ملحمة جنين وما تبعها .

* وواكب الانتفاضة ولايزال محاولات التفاف ، من الحكومات العربية ومن قادة أوسلو ، ومثلوا بخيارهم الاستراتيجى : خيار السلام ، أكبر نقطة ضعف واجهت ولاتزال تواجه الانتفاضة ، وكانت قممهم العربية ولقاءاتهم الثنائية أخطر فى نتائجها على مسار المقاومة من آلة الحرب الشارونية ، وكان مثيرا للدهشة ، أنه كلما أحرزت الانتفاضة تقدما نوعيا على الأرض فى مواجهة الارهاب الصهيونى المتنامى ، كلما تراجعت الارادة الحاكمة العربية وانكمشت ورفعت راية التسليم والتكيف مع الاملاءات الاسرائيلية والامريكية ، خاصة بعد اصابة الأخيرة فى كرامتها وقوتها إثر أحداث الحادى عشر من سبتمبر / أيلول ٢٠٠١ ؛ وكان على (الانتفاضة) أن تقاتل بعد هذه الأحداث ؛ ثم بعد ملحمة جنين على جبهتين : جبهة العدو الصهيونى والولايات المتحدة وكل ممثلى الشيطان فى العالم ؛ وجبهة ذوى القربى الذين لم يتوانوا فى الاستمرار فى طعنها من الخلف عبر خيار السلام الوهمى الذى تطلب منهم أن يكون الحاكم العربى والفلسطينى بخاصة ؛ حارسا لأمن المستوطنات ، مجففا لمنابع المقاومة ، سجانا لقادة جماعات المقاومة ؛ باختصار خائن لأمته ودينه بل ولمصلحته هو شخصيا !!

* ومع ذلك استمرت الانتفاضة تجترح أساليب مبدعة للعمل ولبذر ثقافة المقاومة فى تربة الأمة الجافة ؛ وكلما أطفوا [أصحاب هاتين الجبهتين المعارضتين] نار الانتفاضة ؛ أشعلها الله ، والبشر من بسطاء الخلق فى فلسطين ، ولاتزال النار مشتعلة ، وستظل ، لأنها تنطلق من معادلة بسيطة ومباشرة : طالما هناك احتلال (واحتلال نازى فى الواقع) هناك مقاومة ، وطالما هناك مقاومة فهناك ابداع فى عملياتها وأدواتها ، وهناك استحالة لقمعها سواء من الصهاينة من العرب والعجم ؛ داخل فلسطين أو الصهاينة خارجها .

* ان الانتفاضة ، والتى ينبغى الآن أن نسميها (بحركة التحرر الوطنى الفلسطينى المباركة) ؛ لكونها تجاوزت لحظة الانتفاضة الى مستوى نوعى جديد يريد ، تحرير الوطن كله ، ولا يريد مجرد مطالب سياسية محددة يريد مفاوض بائس ان يوظفها فى رصيده التفاوضى العاجز ؛ وهى فى مسار حركتها ، وصولا الى ملحمة جنين ، قدمت عشرات الاسهامات والانجازات ، وعبر هذا الفصل التمهيدى نرصد بعضها ، وصولا الى ملحمة جنين ، بكل تفاصيلها ووقائعها التى هزت الوجدان الانسانى بإجمال .

* * *

(١)

قضايا فجرتها الانتفاضة

* ان المتأمل لتطورات الاحداث فى فلسطين اليوم وبعد التدخل المباشر من (المخابرات الامريكية) وحلف شمال الاطلنطى والأمم المتحدة وبعض السماسرة العرب ، لايقاف الانتفاضة تحت مسمى مضلل اسمه (إيقاف العنف) ، يلحظ ان الكيان الصهيونى ، يزداد عنتا وشراسة

كلما ازداد الحديث عن السلام والتسوية ، ويتمثل هذا العنف فى زيادة وتيرة التسلح بكافة أشكاله ، لتصبح (اسرائيل) وفقا للمقولة المأثورة لأكبر فلاسفة هذا الكيان . الفيلسوف الراحل ياشايا عوليبوفيتش (الذى رحل عن ٩١ عاما عاصر فيها قيام دولتهم ونموها العسكرى السرطانى) ، والذى قال [ان دولة اسرائيل أضحت بفضل التسلح والعنف البنيوى بداخلها ، ليس مجرد دولة تمتلك جيشا بل جيش يمتلك دولة] .

* نعم ..

* نحن أمام جيش يمتلك دولة او بمعنى أدق أمام (جيتو حربى) كما قال الكاتب الاسرائيلى المعروف (اسرائيل شاحاك) والذى أضاف ان اسرائيل تحولت الى (أسبرطة يهودية يساندها الحكام العرب كخدم وعمال) .

* اننا بعبارة موجزة أمام (ثكنة عسكرية) ، بكل ما تعانيه الكلمات من معان .

* ان الانتفاضة الفلسطينية ، كشفت بوضوح ، وبعد استخدام شارون (وكلهم بالمناسبة فى مواجهة العرب والانتفاضة شارون) للـ (إف - ١٦) ، الابعاد العنصرية والعسكرية المتطورة للكيان الصهيونى ، وبالمقابل ورغم هذا التفوق العسكرى والمستمر ، فإن (الانتفاضة) إستطاعت ان تربكه وان تشل فاعليته ، وان (يتألم) كما يتألم أهل الانتفاضة .

* ان هذا الواقع يجعلنا ، ومع دخول الانتفاضة شهرها التاسع نتوقف أمام ثلاث قضايا أكدتهم الانتفاضة وعرت تفاصيلهم التى يراد إغفالها ، القضية الاولى تتصل بالوجه العنصرى الفاشى لهذا الكيان ، والقضية الثانية الالم الذى حاق بالثكنة العسكرية المسماة (اسرائيل) بسبب الانتفاضة والثالثة حقيقة التسليح الاسرائيلى وتناميه ، وصمت (السلاح العربى) فى مواجهته رغم انه يتطور وينمو ويستهلك من الأسواق الغربية ولكنه يخزن بلا فاعلية فى كافة البلاد العربية وبخاصة تلك المحيطة بالكيان الصهيونى.

ان هذه الوجوه (القضايا) الثلاثة مترابطة ، وهى فى ترابطها تؤكد أهمية الانتفاضة وجدواها ، ومن ثم خطرها على تلك الأنظمة العربية المتحالفة مع الغرب (الولايات المتحدة تحديدا) والتى تستهدف وأد الانتفاضة تماما تحت عنوان مضلل اسمه حقن دماء الفلسطينيين !! .

ترى ماذا عن هذه القضايا ودلالتها ؟

* * *

القضية الأولى : عنصرية الكيان الصهيونى : كشفت الانتفاضة بجرأتها وحركتها الشعبية ، وتضحياتها (حوالى ١٥٠٠ شهيد و ٣٠ ألف جريح) الوجه العنصرى /النازى للكيان الصهيونى ، حيث لم يتوزع عن قتل الأطفال (يزيد عدد الشهداء منهم على ٢٥٠ طفل) والنساء والشيوخ بدعوى مشاركتهم فى أعمال العنف ، وهو تعبير - كما قلنا - مضلل يعنى مشاركتهم فى الانتفاضة والاحتجاج على أعمال النازية الصهيونية تجاههم .

* ويكفى ان نستشهد فى هذا الصدد بكلمات معبرة قيلت ولازالت تقال أثناء الانتفاضة الراهنة . لقادة اسرائيل وهى تعكس هذه العنصرية التى عرتها الانتفاضة وكشفتها بجلاء .

شارون قال تعليقا على عمل لجنة ميتشل " لا يحق لأى كائن فى العالم ان يقدم اسرائيل الى المحاكمة . ليس هناك احد له حق ان يحيل الشعب اليهودى على محاكمة أمام شعوب العالم بل العكس هو الصحيح لنا وحدنا ودائما حق محاكمة الآخرين " ، أليست هذه عنصرية مقيتة تعلى من شأن اليهود دون جميع خلق الله وها هو الحاخام عوفيديا يوسف الزعيم الروحى لحزب شاس الذى وصف العرب مرة بالقردة ومرة بالأفاعى ، ودعا الى إبادتهم بالصواريخ ، وقال " يجب الا نترحم عليهم يجب ان نطلق الصواريخ وندمرهم هؤلاء الأشرار الملعونين " ، وهو دعا الله الى القضاء على نسل العرب ونفيهم فى العالم ، وهذا الحاخام يترأس ثالث حزب فى اسرائيل ومشهور عنه وقاحته وعنصريته البالغة . أما وزير البنية التحتية أفيجدور ليبرمان فقد طالب بنسف السد العالى أى قتل ملايين البشر فى وادى النيل .وضرب طهران بالصواريخ ، أى قتل ملايين آخرين ، أما وزير السياحة المقتول رحبعام زئيفى والذى كان يترأس حزبا سياسته الوحيدة تسفير الفلسطينيين من بلادهم ، فقد دعا يوما الى ان يرتدى الفلسطينيون فى اسرائيل اشارة صفراء تدل عليهم ، وهو مماثل تماما لما فعل النازيون تجاه اليهود فى ألمانيا وغيرها ، أما الجنرال المتقاعد روفئيل ايتان فقد قال (ان العرب صراصير يجب سحقهم بالجزمة) كل هذا تم بسبب الانتفاضة الباسلة التى أجبرتهم على ان يقولوا ما يعتقدونه منذ زمن وان يكشفوا عن وجههم العنصرى – النازى الذى يتخفى خلف غلالات زائفة من السلام ودعوات التسوية ويضاف الى ذلك كشفت الانتفاضة مشروع " التهجير " الذى أعده الكيان الصهيونى للفلسطينيين ، فمع عودة وتيرة العمليات الاستشهادية من جديد لترتفع وتدك معاقل العدو الصهيونى ، بعد العمليات الغادرة التى شنها العدو ضد قادة الانتفاضة والمقاومة وكان آخرها قتل (صلاح شحادة) قائد كتائب عز الدين القسام مع ١٦ من الأطفال الفلسطينيين،مع هذه العودة،يعود الصراع مجددا ليؤكد حقيقة ، أن كل مفاوضات القادة العرب وكل أمنيات سلطة أوسلو بالعودة الى خيار "السلام" المزعوم،سوف تذهب أدراج الرياح،وسيعود للصراع أصله الذى يحاول البعض إجبار الأمة على نسيانه رغم سيل الدماء الذى يعومون فيه ، وتعوم فيه الأمة بسبب تقاعسهم .

* فى هذه الأجواء يعود الحديث مجددا عن مخططات الكيان الصهيونى المستقبلى تجاه الشعب الفلسطينى ، ليكتشف ان هذه المخططات تقوم فى مجملها على هدف أساسى ، وهو تهجير الشعب الفلسطينى من أرضه للمرة الثالثة (الأولى عام ١٩٤٨ والثانية عام (١٩٦٧) ؛ وها هى الثالثة حيث نكتشف ان كل هذا الارهاب الذى يمارسه شارون ، يستهدف بالدرجة الاولى اجبار

الفلسطينيين على ترك فلسطين ، لكى يتم تدريجيا بناء الدولة اليهودية النقية الخالية من العرب ، والغريب أن هذا المخطط ، ليس جديدا ، ولكنه قديم ، وبشأنه صدرت العديد من الوثائق الاسرائيلية ، وسنزيح اليوم الستار عن إحداها وربما هى أحدثها وأخطرها وقطعا سبق الحديث عنها من قبل ولكن اعادة قراءتها من جديد أضحى مسألة هامة فى هذه الأجواء ، وهى وثيقة تسمى (وثيقة هرتسليا) نسبة الى مؤتمر نوعى هام عقدته صفوة المجتمع السياسى الاسرائيلى فى الفترة من ٩ الى ٢٠٠٠/١/١١ ، طورت بعد ذلك وصدرت فى مارس (آذار ٢٠٠١) (أى قبل اندلاع الانتفاضة الراهنة بـ ٦ أشهر فقط) ؛ والوثيقة الخطيرة تقوم على فلسفة التهجير وفق معلومات دقيقة وطموحات كبيرة ؛ ولقد جرى تسليم هذه الوثيقة من جانب القيمين على المؤتمر ، فى طقس احتفالى ، الى رئيس (الدولة الصهيونية) موشيه كتساف ، مما يعزز الاعتقاد بأن القصد من وراء ذلك هو أن يلقى كتساف بثقله (الكبير نوعيا مع وجود حكومة اسرائيلية يتزعمها حزبه الأصلى) من أجل وضع ما تنص عليه موضع التطبيق العملى . تحمل الكراسة عنوان المؤتمر وهو " ميزان المناعة والأمن القومى - اتجاهات لسياسات عامة".

وباعتراف الصحفى يئير شيلغ فى صحيفة " هاآرتس " (٢٠٠١/٣/٢٣) فإن اليمين الاسوائيلى المتطرف ما كان فى مقدرته أن يصوغ توصيات تعكس فكره البهيمى الجامح بأفضل مما صاغتها هذه الكراسة .

وقد ورد اعترافه هذا فى سياق مقالة ظهرت تحت عنوان " الحذر ، عرب " تضمنت استعراضا كاملا للوثيقة ، وتصريحات خاصة أدلى بها على مسامعه رئيس المؤتمر ، د. عوزى أراد الذى شغل سابقا منصب المستشار السياسى لرئيس الحكومة الأسبق بنيامين نتنياهو .

حول هذا المؤتمر تقول الوثائق انه عقد فى " المركز متعدد المجالات " فى هرتسليا مؤتمر كبير عنوانه " ميزان المناعة والأمن القومى لاسرائيل " وقد بادرت الى عقده شخصيات بارزة فى القيادة الأمنية وفى النخبة الأكاديمية فى (اسرائيل) من بينهم رؤساء الموساد ورئيس جهاز الاستخبارات العسكرى يتسحاق حوفى ، ومئير عميت وشبتاى شفيط ، والسفير زلمان شوفال والبروفيسوران حاييم هرارى وايهود شبرنتساك ، وكان الحاضرون فيه من أبرز الوجوه فى المؤسسة السياسية والامنية والاكاديمية فى الكيان الصهيونى ، ومثلهم كل من حضر المؤتمر ، الذين بلغ عددهم ثلاثمائة شخص .

وطبقا لما يقول د. عوزى أراد ، رئيس المؤتمر ، وهو دينامو هذا المؤتمر الخطير والواقف وراءه (وبالمناسبة شغل هذا الرجل سابقا منصب المستشار السياسى لرئيس الحكومة الأسبق بنيامين نتنياهو)فإن الذى لم يتواجد هناك ساعتها كأنه غير محسوب فى عداد القيادة الاسرائيلية العليا" .

* * *

بعد المؤتمر بلور منظموه الأفكار التى طرحوها ضمن وثيقة واحدة ، فيها توصيات فى مجالات متعددة ، مثل : الأهمية الاستراتيجية ليهود " الدياسبورا (الشتات) " أهمية التربية والتعليم والبحث التكنولوجى ، التشديد على استراتيجية الردع وليس الدفاع فقط ، وغير ذلك ، والكراسة التى تضم الوثيقة ، والمعنونة بـ " ميزان المناعة والأمن القومى – اتجاهات لسياسة عامة" .. وثيقة مذهلة ، وهى فى مجموعة من توصياتها ، وربما فى روحها العامة أيضا ، تتناسب تماما مع رؤية كل الكيان الصهيونى المتطرف وتقوم على تهجير الفلسطينيين من أرضهم بالكامل وعبر سلسلة من العمليات الارهابية مثلما حدث فى جنين انه الوجه العنصرى اذن الذى أبرزته الانتفاضة وكشفته وأيضا قاومته وبشدة

* * *

القضية الثانية : والتى كشفتها الانتفاضة وأكدتها هى ان العدو الصهيونى يعانى وبمرارة بسبب هذه الانتفاضة الباسلة ، وما التحركات المخابراتية الامريكية والغربية وكوفى عنان والسماسرة العرب ومن لف لفهم ، الا لانقاذ هذا الكيان من مأزق الانتفاضة الذى يؤلم ،وألم الانتفاضة متعدد الجوانب فهو ألم سياسى واقتصادى وثقافى ، وبشرى ، ولعل العمليات الاستشهادية بفاعليتها وقدرتها على خلق (توازن رعب) بديلا عن الخلل فى توازن القوى ، الا نموذجا فذا للإيلام الفلسطينى تجاه الكيان العنصرى الصهيونى ، والقتلى من الاسرائيليين يقتربون بعد ثلاثة أعوام من الـ ٧٠٠ ، وهم بحساب النسبة والتناسب مع عدد العرب والمسلمين والفلسطينيين يصبحون ذووى قيمة كبيرة قياسا بشهدائنا الـ ١٥٠٠ فى فلسطين ؛ والألم على المستوى السياسى والاقتصادى شديد وقاس ، فالكيان الصهيونى خسر ما يقرب من ٧مليار دولار فى الفترة الماضية ، وتوقفت المصانع والمزارع التى تعتمد على عمالة عربية ، و٦٠% من المشاريع السياحية توقفت عن العمل وفقا للصحف الاسرائيلية وفى هذا السياق يمكن إيراد بعض أرقام الهبوط فى انتاج صناعات معينة يعزوها المسئولون الى انخفاض الاستهلاك فى المناطق المحتلة فشركة " عليت " للحلويات والقهوة وهى أكبر شركات المنتجات الغذائية فى اسرائيل أشارت الى انخفاض مقداره ٣٠% من إنتاجها والى مخاوف من استمرار الأوضاع التى تؤدى الى هذا الانخفاض ، ومصانع غذائية اخرى مثل "تلما" و"أوسم" تحدثت عن انخفاض كبير، ومصانع البلاستيك ، والنسيج شكت من صعوبات مماثلة ووصل الأمر بأحدها الى إغلاق مصانع مثل مصنع "أوال اسرائيل" فى "بيتح تكفا" قرب تل أبيب أما الفروع الأخرى مثل الأثاث والكيماويات والمنتجات الكهربائية وباقى فروع المواد غير الأساسية فلقد توقف سوق المناطق المحتلة توقف عن استهلاك منتجاتها تماما ، إذ أعلن تجار المواد الكهربائية عن تباطؤ شديد

فى المبيعات يتجاوز الـ ٦٠% وان اجمالى خسائر الاقتصاد الاسرائيلى فى كافة فروعه قد وصلت الى أكثر من ٧ مليار دولار فى قطاعات [الزراعة - السياحة - الصناعة - التجارة بفروعها المختلفة] . كل ذلك بفضل الانتفاضة .

* * *

* أما القضية الثالثة التى أكدتها الانتفاضة ، وسلطت الاضواء عليها فهى هذه الترسانة العسكرية التى تمتلكها (اسرائيل) ، وهى ترسانة خطيرة بكافة الحسابات العسكرية والسياسية ، خطيرة فى حجمها خطيرة فى آثارها المستقبلية على المنطقة العربية والاسلامية ، تلك المنطقة التى دأب حكامها على تخزين أسلحتهم منذ عقود ، فى مخازن لتصدأ فوق رؤوسهم ، فى حين ان الكيان الصهيونى يستحوذ على هذه الأسلحة ويخصص ٩,٥% من ميزانيته لها ، لكى يجربها على المنتفضين ، وعلى كل من يفكر فى دعمهم ، ولعل فى استخدام شارون للـ إف ١٦ وعشرات الأسلحة دليلا كافيا على انه يأتى بالسلاح لكى يستخدمه لا لكى يخزنه كما يفعل شيوخ الخليج وجنرالات شمال أفريقيا وشرق المتوسط من العرب العاربة !!

* ان هذا المشهد البائس ، يدفعنا الى تقليب أوراق أحدث التقارير الاستراتيجية الدولية الخاصة بمتابعة شئون التسلح فى الكيان الاسرائيلى لكى نقرأها ونخرج منها بهذه المعلومات الخطيرة ، التى تعنى أننا أمام ثكنة عسكرية قابلة للانفجار (وقد حدثت بداياته فى هذه الانتفاضة) فى وجوهنا جميعا .ان التقارير التى بين أيدينا تخلص الى ان لدى الكيان الصهيونى ١٨٠ ألف مستوطن يهودى فى غزة والضفة الغربية اضافة الى ٢١٧ ألف فى القدس الشرقية و ١٥٠ ألف فى الجولان ، وإجمالى تعداد القوات المسلحة الصهيونية : ١٧٢ ألفا تحت السلاح منهم ١٠٧٥٠٠ مجند نظامى ، وهناك تدريب سنوى لجنود الاحتياط حتى بلوغهم سن ٤١ (بعض المختصين حتى سن ٥٤) قوات الاحتياط عددهم ٤٢٥ الف .

وهناك ٤٠٠٠٠٠ قوات برية و ٥٠٠٠٠ قوات بحرية و ٣٦٠٠٠ قوات جوية ويمكن ان يتلو خدمة الاحتياط تقديم خدمات تطوعية فى الحرس المدنى والدفاع المدنى هذا فضلا عن امتلاك قرابة ٢٠٠ رأس نووى ومئات الصواريخ طويلة المدى وصواريخ التجسس عالية الكفاءة .

* * *

(٢)

أبرز ابداعات الانتفاضة : ظاهرة الاستشهاد

تنتقل عينى ، وأذنى ، بين صحيفة عربية وآخرى ، وبين فضائية وآخرى ، ترى وتسمع وتقيم ؛ بين لفظتين سادتا الخطاب العربى الرسمى والشعبى ، حين علت وتيرة العمليات الاستشهادية النوعية لحركتى (الجهاد) و(حماس) وكتائب (شهداء الأقصى) فى فلسطين خاصة خلال شهر

يونيو (حزيران) ٢٠٠٢م حين بدأها حمزة سمودى ابن سرايا القدس الجناح العسكرى لحركة الجهاد الاسلامى فى فلسطين بعمليته المتميزة ضد عسكريين [بالمعنى الذى يحلو للبعض الالتزام به رغم أنه لا فرق مطلقا فى داخل الكيان الصهيونى بين عسكرى ومدنى] فأوقع ١٧ قتيلا عسكريا بالقرب من سجن مجدو الشهير فضلا عن أربعين جريحا من خلال تفجير نفسه وسيارته المتحركة فى (باص) اسرائيلى متحرك يقل هؤلاء الجنود والضباط الذين كانوا ذاهبين لممارسة هوايتهم - وظيفتهم فى أعمال الاحتلال والقتل ضد المدنيين الفلسطينيين .

وفى منتصف الشهر وتحديدا يوم (٦/١٨) قام محمد الغول ابن حركة حماس بتفجير نفسه فى باص اسرائيلى فى قلب القدس فأوقع ١٩ قتيلا وأكثر من ٤٠ جريحا ستة منهم فى حال الخطر .

• من جديد ، وفور وقوع هاتين العمليتين (وما بينهما أو ما تلاهما من عمليات أقل فى عدد القتلى مثل عملية يوم ٦/١٩ من عملية أوقعت ٧ قتلى و٤٠ جريحا فى القدس أيضا) ، طفت على سطح الصحافة والفضائيات العربية من جديد ، نبرة الادانة لها ؛ أو الدفاع عنها (وان بدرجة أقل) ، وطغى على سطح الخطاب الرسمى العربى لغة الادانة والشعور بالذنب ، وبضرورة الاعتذار عما فعله (الشهداء) تجاه (الأبرياء !!) من الاسرائيليين المسالمين الذيم لم يقتلوا ولم يباركوا قتل الشعب الفلسطينى !!

• فى هذا السياق استوقفنى تعليق لأحد الكتاب العرب (فى صحيفة خليجية تصدر فى لندن للاستشهادى بأنه (انتحارى غير أخلاقى) و(ارهابى) يصعب الدفاع عنه فى الوقت الذى يسهل الدفاع عن (الاحتلال) ، وبأنه (أى الاستشهادى) يسىء الى جهود السلطة الفلسطينية والقادة العرب التى تحاول ان تقرب بين الأمة وبين الولايات المتحدة والاتحاد الاوروبى ، وبأن هذا الفعل الانتحارى (الارهابى) لا ينبغى ربطه بالاسلام ، فالاسلام منه براء (مع ملاحظة أن هذا الكاتب غير مسلم أصلا ويفاخر بعلمانيته) وطبعا هو حر فى سلوكه الشخصى وعقيدته ، ولكنه غير حر فى أن يمارس علينا كل صباح عبر صحيفة يمولها امراء يدعون ان دولتهم تحكم بالشريعة الاسلامية ؛ هذا الارهاب الفكرى عبر تسفيه معتقداتنا ، وأجمل ما أنبتته أمتنا من ظواهر جهادية ونضالية يعتز بها أصحاب العقلية الطبيعية ، والروح العربية التى لا يشوبها (استلاب) ، أو انهزام من الداخل وتبعية ارادية مطلقة ، كما هو حاصل مع مثل هذا الكاتب الذى يتسلط على عيوننا وعقولنا كل صباح ، فيسفه ولا ينقد ، ويتشاطر ولا يحلل ، ويلعن ولا يفسر ، فيبدو ، فيما يرى ويقرأ المتابع ، وكأنه أمام شىء فإذا بنا أمام تخريب مدفوع الأجر ، فى صحافة عربية تنطق بالعبرية وبروح ليكودية صرفة .

* * *

(١)

ومثلما استوقفنا (الكاتب اللندنى) استوقفنا آخر مصرى مجهول على الأقل بالنسبة لى وفى صحيفة تصدر أسبوعيا عن وزارة الثقافة المصرية (القاهرة) ليكتب كلاما تائها يعلق فيه على مقال لرئيس تحرير الصحيفة الأستاذ / صلاح عيسى يشطح فى اللغة وتفسيراتها ليصل من

خلال التفسير اللغوى الى ان كلمة (شهيد) التى تكررت فى القرآن ١٢ مرة لا تنسحب على من يقتل فى سبيل الله أو فى سبيل الوطن وأن المقصود بها كان (قرآنيا ولايزال) هو ان يكون صاحبها (شاهدا) بالحق ، ثم بعد توهان لفظى واستغراق شكلى فى أحاديث استحضرها لتخدم على فكرته المركزية ، يصل الى أن (الشهيد) الفلسطينى اليوم مرفوض ، الا اذا ربط استشهاده بقرار وتوظيف سياسى من السلطة المتعاونة مع الاسرائيليين ، وأن على الفلسطينيين ان يستجيبوا لكلام عرفات وألا يستجيبوا لفتاوى أحمد ياسين (مؤسس حركة حماس) ، ولم يجب لنا الكاتب المجهول والمستجد ، عن سؤال بسيط بعد هذا التوهان اللغوى والفقهى الذى أوقعنا فيه ، ماذا لو كان كلام عرفات والذى بدأ بأوسلو ١٩٩٣ وكلام القادة العرب منذ كامب ديفيد ١٩٧٩ (وهم من أولى الأمر كما تحب أن تسميهم) ماذا لو ان كلامهم هذا قد أوصلنا الى طريق مسدود ؟ ما العمل ساعتها ؟ وماذا لو كان كلامهم فارغا فى جله بل وأوصلنا الى تضحيات كبيرة ، واجتياحات شاسعة وانهيار كامل للوطن واغتصاب كامل للحق ؟ ما العمل ؟ وهل الفتاوى ونصائح رجال الدين دائما ترتبط (بكلام) وسياسة الحاكم حتى لو كان ظالما او خارجا عن اجماع الأمة ومصلحتها ؟ وما هى الضوابط الشرعية لعدم جنوح الحاكم ولعدم استبداده ولعدم تفريطه – كما هو حاصل فى فلسطين – فى مصالح الأمة ، والشعب ؟ ثم هل الشهيد هو مجرد اختلاف لفظى ، أم اختلاف حول المضمون والمعنى الفقهى الذى استقر عبر أحاديث وتفسيرات واجتهادات وأعمال فعلية ، على الأرض منذ صدر الاسلام ، وعصر الفتوحات عصر الشهداء من حمزة الى الحسين مرورا بعمر وعلى وصحابة أحد وخيبر ؟

* ثم أليس محزنا ومثيرا للاستغراب ، ان يتصدى لتقيم أنبل ظواهر ، وأعمال أمتنا الراهنة من لا يعلم بألف باء السياسة ، فضلا عن ألف باء الدين ، بالاضافة الى عدم امتلاكه للضمير اليقظ الذى يميز بين (الضحية) التى تدافع عن نفسها ، حتى بنفسها ، وبين (المجرم) الذى يغتصب الأرض ولا يعرف لعدوانه سقف أو حدود ؟

أليس هذا من علامات العطب فى خطابنا الرسمى والنخبوى العربى الذى يحتاج الى وقفة تأمل ، وتصويب علها تفيد .

(٢)

رؤيتان مضطربتان ، قصدا ، احداهما قادمة من لندن ، والثانية من القاهرة ، ولكنهما تلخصان حال التخبط تجاه العمليات الاستشهادية ، وحال الترصد بالادانة المسبقة لأنبل ظواهر نضالنا الفلسطينى المعاصر ، وهو الأمر الذى يحتاج الى وضع للنقاط على الحروف وأسفلها تجاه التقييم الصحيح – غير المغرض – لهذه العمليات التى من المؤكد أنها لن تتوقف ، مهما كتب البعض أو أدان لأن هذا هو القانون الطبيعى لحياة الشعوب الواقعة تحت الاحتلال ، علمنا اياه درس التاريخ وتجارب الأمم .. والنقاط بإيجاز هى :

أولا : تأتى العمليات الاستشهادية ، كرد فعل طبيعى على عدوان مباشر ، وكدفاع شرعى عن النفس فى مواجهة اعتداء وحشى بآلة حربية متقدمة لم تحترم لا (النفس التى حرم الله قتلها) ولا شجرة الزيتون ، هذه الحقيقة ينبغى ان تكون حاضرة أمام من يرد ان يتحدث عن هذه العمليات بالادانة أو التحليل ، وقبل ان يستحضر قاموسه الفقهى (التائه) أو قاموسه السياسى الليكودى ، عليه أن يقرأها فى اطار أنها سياسة دفاع عن النفس ، وليس اعتداء على الآخر الآمن ، فالآخر ليس آمنا ، أو مؤتمنا ، الآخر (قاتل) مع سبق الاصرار والترصد ويصبح مدعاة للذهاب الى مصحة عقلية ذلك الذى يفرض عليه الاعتداء والعدوان والذبح ، ولا يقاوم ولا يرد حيث يعتقد انه ، حتى الحيوانات البرية البريئة ترفض هذا المنطق ؛ فقط (الجماد) ، ربما هو الذى يقبله .

* * *

ثانيا : التاريخ والفقه والشرع الاسلامى [قرآنا وسنة وفكر] دون الدخول فى سفسفات لغوية أو فقهية ؛ لا تبيح فحسب ذلك الصنف من العمليات الاستشهادية دفاعا عن النفس والوطن والعقيدة بل وتفرضه [فرض عين ، وأحيانا فرض كفاية] على الأمة المحتلة أرضها ، والمهددة فى أمنها ودينها والفاقدة للقيادة المتسقة ومصالحها والملتزمة بعقد الولاء (لأولى الأمر) المنصوص على مواصفاتهم شرعا فى الاسلام ؛ انه اذن واجب لا يستأذن الحاكم السياسى فيه ، خاصة إذا كان من شاكلة قادة أوسلو الذين سجنوا المجاهدين وحموا المستوطنات وأرشدوا عن قادة الكفاح الشعبى (والحقائق معروفة ومسجلة) .

ولمن يريد الاستزادة فى وجوبية هذه العمليات الاستشهادية وشرعيتها الدينية والسياسية عليه بالرجوع الى التفاسير والفتاوى القديمة والجديدة وليكن له فى فتاوى الأزهر الشريف مثلا يحتذى [انظر كتاب فتاوى الأزهر فى تحريم التعامل مع العدو الصهيونى فى خمسين عاما ١٩٤٨ - ١٩٩٨ - اعداد الشيخ جواد رياض - تقديم د. عبد المنعم البرى - الناشر مركز يافا للدراسات والأبحاث بالقاهرة - ١٩٩٩] .

ثالثا : سلاح الاستشهاد هو السلاح الوحيد تقريبا الذى يصعب هزيمته فى صراع تحتل الهزيمة عقل من يديره من حكام هذه الأمة وبعض مثقفيها طيلة الثلاثين عاما الماضية ، فهو سلاح يمتلك عدة مواصفات تجعله (الوسيلة) الفعالة (للغاية) الصحيحة ؛ غاية تحرير فلسطين ، [وفلسطين بالمناسبة التى نعنيها غير فلسطين التى يعنيها صلاح عيسى أو حازم صاغية أو غيرهما من الكتاب العرب ممن يراها تقف عند حدود ١٩٦٧] ، انها فلسطين ١٩٤٨ ، فلسطين كلها : من البحر الى النهر وهذه هى الواقعية وما عداها هو غير الواقعى وما عداها تنازل مجانى لعدو لا يحترم ولن يحترم المتساهلين والمتنازلين سواء على الورق أو على أرض الواقع كما هو حاصل مع عرفات وجماعته ؛ وحتى فلسطين ١٩٦٧ التى يقبل بها هؤلاء ، لن تأتى الا عبر أسلحة غير تقليدية فى صراع غير تقليدى و(الاستشهاد) هو أهم هذه

الأسلحة ، وهو سلاح مجانى ، لا يحتاج الى تكلفة مثل باقى الأسلحة ، وهو سلاح سهل التخزين ، ولا يصدأ كأسلحة أهل الخليج ، وهو سلاح مفاجىء ، ومدده لا ينتهى فالبشر الشرفاء المؤمنون عن حق بالله وبفلسطين موجودون ، سلاح لا ينضب ، بعكس كل صفقات السلاح التى تحتاج الى تجديد ، وعقود وتوازنات وحسابات وأموال وارادات وغيرها من الشروط المعجزة ، وهو سلاح يعيد تربية الأمة من جديد على روحية التضحية ، وحب الآخرة ، فى زمن صارت الدنيا هى كل الهم والأمل حتى لمن بلغ من العمر أرذله ، ولذلك استحق ان يهزم ، واستحق من الله ألا يمنحه الشهادة مثل ذلك الذى كررها عبر شاشة (الجزيرة) أربع مرات وباللهجة المصرية الدارجة ثم صارت (نكتة سخيفة) ، كررها تلامذته ولم يتقبلها الله ونظنه - سبحانه - لن يتقبلها لأنه (سبحانه) عادل وعليم بذات الصدور وبمن يستحق الشهادة ومن يستحق (اللعنة) !! .

(٣)

• والاستشهاد أخيرا هو السلاح الوحيد القادر على خلق (توازن الرعب) بديلا عن (توازن القوى المختل) لصالح العدو الصهيونى المساند امريكيا وأوروبيا بالمطلق (فالحكاية ليست رأى عام دولى أو يحزنون الحكاية حكاية انحياز تاريخى عنصرى لا فكاك منه ولا نقاء منه ، حتى لو غسلنا أنفسنا سبع مرات احداهن بالتراب فلن يكفوا ولن يتغير رأيهم العام تجاهننا ؛ ومن ثم لا فائدة ولا قيمة له الا بالأمر الواقع والاستشهاد وهو أعلى مراتب الامر الواقع وهو السلاح الوحيد المتاح فى أيدى المظلومين) ، انه يعيد (توازن الرعب) الى خارطة الصراع الممتد من جديد ، فيجبر الخصم على التراجع عن عدوانه أمام القدرة على هز استراتيجية أمنه ، وخلخلة استقراره ، طبعا هذا يتم لو وجد هذا السلاح الغطاء السياسى والثقافى ، من أهل الحكم وقادة أوسلو ولم يجد للأسف هذه الادانة المجانية له وباستمرار واثر كل عملية تتم ، فى سابقة لم يعرفها تاريخ الصراع بين الأمم المحتلة أرضها ضد من يحتل هذه الأرض ، لم يعرف التاريخ من يعتذر للمحتل عن مقاومته للاحتلال ، بل ويرجوه ان يغفر له قلة حيلته فى سجن الشرفاء من الاستشهاديين الذين يدافعون عنه وعن سلطته وعن شعبهم وعن أنفسهم ، لم يعرف التاريخ المعاصر (لنتأمل نموذج فرنسا إبان الغزو النازى لها فى الحرب العالمية الثانية) شيوخا ومثقفين ، يهيلون بكل هذه الهمة التراب على أنبل ظاهرة تشرفهم ، وهم (القاعدون) عن الفعل وعن القول السديد منذ سنوات ، وكان الأجدر بهم ان يصمتوا طالما لم يجدوا ما يقولونه بالخير عن (سلاح المظلومين) فى مواجهة آلة شارون الدموية ، كان الأولى بهم تمثل حديث الرسول الكريم تجاه هذه الظاهرة العظيمة [فلتقل خيرا أو لتصمت] .

(٤)

• على أية حال : يتبقى أن نقول ، انه قد اضحى من العبث الفكرى ، ان نظل نرد كل حين على البعض ممن يصطف ربما بحسن نية ، فى الصف الامريكى والاسرائيلى ، المهاجم للعمليات الاستشهادية ، وفى

تقديرى أن الأجدى هو تركهم يقولون ، لأنه من حسن الحظ ، ومن كرم الله فى آن ، انه لم يعد أحد من (الرعية) يستمع اليهم أو يأخذ كلامهم أو خطابهم (سواء من أهل الحكم او ذلك الفريق من النخبة المثقفة) مأخذ الجد ، ولم يعد – للأسف – أحد يحترم وجهة نظرهم ونحن ننبه الى خطورة (عدم الاحترام هذه) على مصداقية المحترمين من الكتاب والفقهاء ؛ حيث لم يعد أحد ممن يعنيهم الأمر من الجمهور المستهدف بما يكتبون ، يهتم كثيرا بالأفكار التى تحملها وجهة نظر هؤلاء الكتاب ، وتدريجيا ينسحب عدم الاهتمام الى جل ما يكتبون ، فتنهار مصداقيتهم كلها ؛ لأنها اختبرت من قبل جمهور الأمة فى قضايا شديدة الحساسية والتشابك والاحترام ، مثل قضية الاستشهاد ، فوقفوا منها هذا الموقف المهاجم بل والاعتذارى عما لا ينبغى الاعتذار عنه بل الافتخارية ، ساعتها انزعج جمهورهم ويكاد الآن يسحب عنهم كل مصداقية لمشروعهم الفكرى والتنويرى بالكامل بل وساوى هذا الجمهور بين المحترمين من الذين ينطلقون من قاعة ورؤية مخلصة بغيرهم ممن ينطلقون من أرضية متعادية بالجملة لروح المقاومة فى الأمة .

* ولعله من حسن الحظ ومن لطف الله ، أن الشباب المضحى الرسالى الذى يقوم بهذه العمليات [حوالى ٧٠ عملية خلال الـ ٢١ شهرا من عمر الانتفاضة المباركة] لم يقرأ لهؤلاء ، ولم يستمع اليهم ، والا لكان الآن جالسا أمام أفلام رعاة البقر الامريكى أو شاشات الفضائيات والصحافة العربية التى تبث خطاب الهزيمة مجانا ، باسم (الواقعية) ، ولو أحسنوا التدقيق ، لوصفوها بـ(الوقوعية) .. وما أبأسه من لفظ .

* أخيرا ومن خلال متابعة عن قرب للشأن الفلسطينى ولهذه الحركات المجاهدة ومن خلال احتكاك مباشرة بقادتها ، أقول من المؤكد ، ان هذه العمليات الاستشهادية ستستمر ، ولن تفيد كل القوانين وكل الخطابات المهزومة من داخلها وكل الآلة العسكرية الجبارة ، وكل الاعلام وما يسمى زيفا بالرأى العام الغربى،فى إيقافها،فكل ذلك (سراب) فى زمن ليس به سوى معادلة واحدة جلية تقول أركانها: طالما هناك (احتلال) فهناك (مقاومة) وأعلى مراتب المقاومة هو سلاح (الاستشهاد) معادلة واضحة لا لبس فيها،معادلة خلقت (حمزة سمودى) و(محمد الغول) و(عندليب خليل)و(آيات الأخرس) ومن المؤكد انها قادرة على خلق مئات غيرهم ما بقيت المعادلة قائمة،فليجهد جنرالات الكلام وفقهاء أولى الأمر،أنفسهم وعقولهم فى ايجاد حل "للمعادلة" بدلا من لعن من ينيبون عنهم فى الدفاع عن الأمة كلها .

(٣)

" المخيم " حين ينقل الانتفاضة الى أتون الملحمة

حين خرجت الفتاة الفلسطينية (هلا) وشقيقتها (حنان) ، بعد ستة أيام متواصلة من القصف ، على مخيمهما الفقير (جنين) ، كانت الدموع والجثث المتناثرة تسبقهما حينما

قالت الأخيرة : [كنا قرابة الـ ٨٠ شخصا أغلبهم نساء وأطفال .. نحتمى فى منزل واحد من هجمات المروحيات لم نكن نملك شيئا نأكله أو نشربه وفقدت شقيقة لى وعيها من الجوع .. كنا نشعر بالدخان المتصاعد من منزل كان يحترق قربنا .. الا اننا كنا عاجزين عن التحرك بسبب القصف] هكذا تحدثت (حنان) ابنة الـ ٢٣ ربيعا الى وكالة (فرانس برس) الأسبوع الماضى .. أما (هلا) التى كانت لاتزال تبكى فصرخت بألم : [انه من الصعب جدا التعرف على المخيم حيث كان يعيش نحو١٥ألف لاجىء قبل الهجوم..ان الجثث التى كانت تملأ الشوارع ..الآن أخفوها عنوة فى جريمة انسانية يندى لها الجبين ..لن نرى جثثا فى الشوارع لأن الجرافات كانت قد جرفت المنازل والبشر لتمكين الدبابات والجنود من التقدم !!] .

أما أبو محمد (٣٦ عاما) فيقول فى شهادته انه " كان بين الألفى شخص الذين اعتقلوا ، ثم أطلق ولجأ الى قرية رمانة على بعد كيلو مترات عدة من طريق كفرْ دان مع ٣٠٠ شخص آخرين أطلقوا مثله " وأضاف [قيدت وعصبت عيناى قبل اقتيادى مع ٩٠ رجلا آخر الى معسكر سالم قرب جنين .. وأجبرت على نزع ثيابى وتعرضت للضرب ، وبقيت راكعا لساعات طويلة مقيد اليدين والرأس مخفوض باتجاه الأرض ، وكانت الجثث من حولنا فى حالة بدايات التعفن ، والبيوت مهدمة . ولا حياة] .

• شهادات حية لمذبحة جديدة فى ذات الشهر بل فى ذات الأيام التى حدثت فيه مذبحة (دير ياسين ٩ – ١٩٤٨/٤/١٠ ومذبحة قانا ١٩٩٦/٤/١٨) ، انها فصل جديد فى فصول الملحمة الفلسطينية التى بدأت مع أوائل القرن الماضى حين أتت الهجرات اليهودية الأولى ومعها عقيدة (الدم والذبح) لتظل قانونا حاكما ، لا يتبدل رغم السماسرة الذين خانوا ، أو وهنوا ، ولم يكملوا الطريق أو لم يتصدوا !! وهى مذبحة كان لها وجه آخر مضىء : وجه الملحمة ، وجه يمتد من عز الدين القسام الى محمود الطوالبة .

وجه آن له ان يبرز ويعلو ويتسيد فى واقع المهزومين من الحكام العرب ، ان الذبح والمقاومة كانا من أبرز سمات هذا الصراع ، وقانونه عبر المائة عام الماضية ، الا ان ثمة جديد ، طرأ على هذه السمة ، خلال العام وثمانية أشهر الماضية (عمر الانتفاضة) ، وازدادت وضوحا خلال الأسابيع الثلاثة الماضية حين اجتاح الجيش الاسرائيلى مدن الضفة الغربية (التى كانت خاضعة شكلا للسلطة الفلسطينية) ، وبخاصة بعد ملحمة مخيم جنين ذلك المخيم الرمز الذى سمى (بجنين القسام) حين وقف بصلابة مع المجاهد الشهيد عز الدين القسام فى ثورته الرائدة الأولى التى خانها القادة وخانتها سياسة المعتدلين وقتها (عام ١٩٣٦) .

كانت ملحمة المخيم .. وما تلاها نقطة تحول – فى تقديرنا – جعلت من المرحلة القادمة من

الصراع ، مرحلة من المقاومة والشهادة ، لقد جعلت من (الـدم) وحـده عنوانـا للمرحلـة ، وسقطت الى غير رجعة باقى العناوين الخادعة .

* ترى كيف صار الأمر كذلك ؟ وما هى ملامحه القادمة ، ذلك ما نحاول ان نجيب عليه عـبر هذا الكتاب الوثائقى عن أعظم ملاحم الانتفاضة المعاصرة (انتفاضة الأقصى) وأعظـم ملامـح الوطن المحتل خلال الخمسين عاما الماضية ، ودعونا نضع بعض النقاط على الحروف قبل ان نلج الى فصول الكتاب :

* * *

فأولا : كان لـ (برنارد شو) عبارة جميلة تلخص حالنا كعرب مـع الولايـات المتحـدة الأب الروحى للارهاب الصهيونى اليوم : [يقولون اننى كاتب ساخر ولكن لم تبلغ بى السخرية حدا ، يجعلنى أذهب الى أمريكا ، واشاهد تمثال الحرية علىٰ بابها] .

* فهذا الزيف الأمريكى الزاحف عبر جولات كولن باول ، وتصريحات بوش ، والتـى كـثرت خلال الأيام الماضية حتى تتيح الفرصة كاملة (والشرعية كاملة) لاكمال شارون لجريمته فـى جنين بعد نابلس ورام الله ، وبيت لحم ، يؤكد اننا لم نكن أبدا مع دولة عظمى تدافع عن الحق ، والحرية ، ولكننا أمام عصابة مسلحة تتعامل بمنطق المافيا التى لا دين ولا أخلاق لديـها ، فحتى كنيسة المهد التى تحمل من الرمزية لدى أى مسيحى فى العالم ، الكثير ، فقـدت هـذه الرمزية لدى ذلك الرئيس الامريكى الأحمق ، ولدى طاقمه اليهودى الحاكم ، لأنهم ببسـاطة لا يعترفون بالمسيحية الا اذا خدمت مصالحهم ، ان الله لدى بوش ، لا يرقى الى مستوى مستشار فى الأمن القومى ، أو حاكم ولاية ، انه مجرد موظف لتحقيق هيمنة رخيصة على شأن أرضـى ، لم يكن (الله) أبدا ، ولم يكن المسيح يوما قيمة وحقيقة أخلاقية عليا ، بل مجـرد انتهازيـة رخيصة ، ووسيلة أرخص لتمرير سياسات ومصالح شاذة فى العالم (المؤمن) و(الكافر) علـى حد سواء !!

* وهكذا هى أمريكا .. وهكذا هى بعد جنين ، حقيقة عارية من كل صـدق ، وسـندا قويـا للكيـان الاسرائيلى فى عدوانه الجديد الذى قلب كل الاتفاقات السابقة رأسا على عقب ، ان المؤكد بعد الاجتياح الذى تم لمدن الضفة ، أن ما سبق وتحدثنا عنه وتحدث عنه الكثير من المثقفين والسياسـيين مـن أن (اسرائيل) هى أرخص بارجة حربية او حاملة طائرات امريكية خارج الولايات المتحدة ، يعد الآن قـولا صحيحا ، فقط نضيف عليه ان هذه (البارجة) أو (الحاملة) مخضبة حتى النخاع بالدماء : وقودها دماء ، أدواتها دماء ، والهواء الذى يتنفسه (ركابها) دماء ؛ وهى بالقطع دماء عربية ؛ لم يكن مخيم جنيـن أولها ولن يكون آخرها ، فقط هو علامة فارقة فى تاريخ هذه الدماء ، علامة كشفت دون عناء زيـف (الراعى) الأمريكى للسلام ، ونازيته الكامنة !!

* * *

وثانيا : وفى مرحلة ما بعد (جنين) ، صار من المؤكد ان ثمة تغييرات سياسية كبرى ستحدث فى المنطقة تشبه الى حد كبير أحداث ما بعد نكبة ١٩٤٨ ، ولعنة مجزرة جنين ، ستظل تطارد النظام الرسمى العربى ، الذى أشهر افلاسه ، وأعلنت وفاته لحظة دخول الدبابات الاسرائيلية الى مكتب (الرئيس) ياسر عرفات فى رام الله ومحاولة اذلاله بالتقسيط ، وليس دفعة واحدة ، لكى يقرأ (الرؤساء) و(الملوك) الرسالة بدقة وتروى ، ويشاهدوا بتمعن اللقطة التليفزيونية الصادرة من (المقاطعة) : وهو الاسم الرسمى لمقر (عرفات) ، ويفهموا دلالاتها جيدا .

* * *

* وبالمقابل : لم يكن غير الشعب الفلسطينى بفصائله المجاهدة [وليس بقادة أوسلو الذين ظهروا مجددا على ساحة التفاوض بوجوههم البائسة من عريقات حتى أبو مازن مرورا بالرجوب والهندى ودحلان وقريع وآخر القائمة التى يعلمها القاصى والدانى]، والمقاومة اللبنانية بقيادة حزب الله ، والشعب العربى والاسلامى عبر مظاهراته واحتجاجاته التى وصلت الى حد سقوط شهداء (وأبرز نموذج لهم الشهيد المصرى ابن مدينة الاسكندرية الطالب محمد السقا الذى سقط برصاص شارون المصرى) ، يؤكد على صدق القانون الجديد ، ومدى ملائمته للواقع ولطبيعة العدو الذى نقاتل ، وأيضا لمشاعر الغضب النبيل المتفجر فى قلوب الملايين المسلمة والعربية ، الذين أبعدوا قصرا عن ساحة المواجهة بحجة أن (الحرب شر) ، والحرب فعلا شر ولكن مع المعتدى ، ضرورة حياة ، وحق ، وواجب شرعى ووطنى ومن ثم هى (خير خالص) ، لقد أكد الانسان الفلسطينى والعربى والاسلامى ، أن (الدم) وحده ، وبعد ملحمة جنين هو قانون المرحلة الحاكم ، وهو قانون عادل ، لأنه قانون السماء ، التى طالبت وأكدت على القصاص ، وجعلت من القصاص حياة [ولكم فى القصاص حياة .. صدق الله العظيم] .

* * *

هذه الحقائق وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره (وسيفصله الكتاب) ماذا تعنى ؟ انها ببساطة تؤكد انه كى يتم بناء إستراتيجية للمقاومة طويلة المدى لابد من التغلب على مكامن الضعف العربى فى كافة المجالات وخاصة المجال السياسى (حيث الاستبداد السياسى والحكام الذين شاخوا على مقاعدهم وطالت فترة حكمهم بأطول مما ينبغى كما قال هيكل فى حواره المثير مع قناة المحور قبل أيام) ؛ وفى المجال الاقتصادى حيث التخلف الاقتصادى ضاربا جذوره والتى تحتاج الى اقتلاع ، وفى المجال الثقافى والعلمى ، ان المواجهة اذن مواجهة مركبة ، طويلة المدى وتحتاج فقط الى نقطة بداية شعبية وها هى جنين قد سطرتها ، فقط على النخبة ان تقود شعوبها فى الاتجاه الصحيح للبوصلة ، بوصلة المقاومة .

ومرحليا : ولتتوائم مع عنوان المرحلة ، قانون الدم لابد من اعلاء رايته المساندة

للشعب الفلسطيني الصامد ، وهذا لا يتأتى من التظاهرات فقط على أهميتها ، ولكنه يحتاج الى تحركات شعبية على الحدود مع فلسطين فى كافة بلاد المواجهة من جنوب لبنان الى الجولان مرورا بالأردن فسيناء ، صحيح ستواجه التحركات بالقمع الرسمى العربى الذى يحمى الكيان الصهيونى بأشفار عيونه ، ولكنه قمع سيكون مؤقتا ، لأن تحدى ارادة الجماهير ولفترات طويلة امر لم يعد يجدى ، ثم انه حتى لو طال أليست هذه هى ضريبة الجهاد التى علمنا اياها الدين ، والتى لابد وأن تدفع ، اذن لتتحرك الجماهير بقواها وجمعياتها وأحزابها ونقاباتها الى الحدود مع فلسطين ، ولترابط عليها أو لتحاول الدخول ان أمكن وعبر فعل شعبى متدرج يعلن وبصراحة المساندة المعنوية الكاملة لفلسطين ، ويرسل من خلال هذا التحرك الحدودى الواسع (والسلمى فى أغلبه) رسائل عدة للعالم وللحكام وللطابور الخامس من المطبعين وسماسرة المفاوضات والأوطان .

* ومرحليا أيضا لابد من الدفع بالمال والسلاح الى أيدى المجاهدين فى فلسطين بكافة السبل ، فأبطال مخيم جنين الذى استشهد (ولن نقول سقط) وشتان ما بين المغنيين ففى الاستشهاد (حياة كما نعلم) كانوا يقاتلون حتى الرصاصة الأخيرة .. ماذا لو لم تكن هذه هى الرصاصة الأخيرة ، ماذا لو ان معهم (آر بى جى) كما سبق واقترحت احدى الدول العربية على ياسر عرفات ابان وصوله الى فلسطين ، فرفض قائلا لها : (لا أريد أن أغضب أصدقائى الاسرائيليين !!) ماذا لو أمكننا من الآن توصيل الأسلحة للفلسطينيين الذين لايزالون يقاتلون وسيظلون - بالمناسبة - يقاتلون حتى تقوم الساعة ؟!

* ان (الدم) الذى أساله شارون فى جنين ، أذاقته اياه مرة آخرى (نضال) ومن قبلها آيات الأخرس ووفاء ادريس وحمزة سمودى وإخواتهن من شباب (الجهاد الاسلامى) وحماس وفتح ؛ فالدم الفلسطينى والعربى ، ليس رخيصا ، ومن حق هذا الدم أن يسال أمامه وخلفه وتحته دم كثير ممن تجرأ على خدشه ، ونحن أمة تدافع عن نفسها وهى لا تحب الدم لمجرد الانتقام ، وهى لم تعل رايته وتجعله عنوانا للمرحلة ، محبة فى القتل ، ولكنه أمر فرض عليها فرضا ، وأجبرت عليه عنوة ولا تمتلك ازاءه الا المقاومة ، دفاعا عن الدين والنفس والعرض والوطن ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون وليصمت المرتجفون ، وصدق الرسول الأكرم حين قال عنهم [هلك المتنطعون] ، نعم هلكوا حكاما وغير حكام ، رأوا فلسطين تذبح من الوريد الى الوريد فتنطعوا ، ودعوا للسلم وهم ركع لغير الله ، ركع لذلك الرئيس الأحمق بجدارة الذى دعى (لدولة فلسطينية مؤقتة) يرتبط اكتمالها باكتمال عمالتها لكيان الصهيونى ، واثباتها جدارة

الخيانة لآمال شعبها ، هنا فقط تصبح دولة وفقا لفهم (بوش) ، دولة كهذه من المؤكد ان عز الدين القسام كان سيرفضها مثلما رفضها بالدم حفيده فى الجهاد محمود الطوالبة (النورسى) ومثلما سيرفضها كل من صار على دربهما ولم يحد ، ولاشك ان هذا الضرب هو الصحيح ، وما عداه باطل .

(٤)

هل انكسرت الانتفاضة ؟

مع تزايد وتيرة الذبح الاسرائيلى تجاه شعبنا الفلسطينى ، واستشهاد (قرية) اثر (قرية) ، و(مخيم) اثر (مخيم) ، خاصة بعد ملحمة جنين التى قادها الاستشهادى الأكبر فى كربلاء الجديدة / الشهيد القائد الشيخ / محمود طوالبة قائد (سرايا القدس) فى جنين ، بعد هذه المذابح ، كثر الحديث ، عن نهاية الانتفاضة والمقاومة فى فلسطين ، وأن الأمر لم يعد سوى أمر أيام ، بل ساعات ، وتلفظ هذه المقاومة أنفاسها ويعود عرفات وجماعته الى خيار التسوية البائس ، الذى يدور فى الفراغ ، وهذه المرة سيدور فى فراغ قاتل لأن عرفات سيجبر على الذهاب الى غزة ، والاكتفاء بها ، وببعض أجزاء من سيناء كما طالب قبل أيام (آفى ايتان) : الوزير فى حكومة شارون ورئيس حزب المفدال المتطرف .

* للأسف ، هذه الرؤية المهزومة من داخلها ، باتت تسيطر على قطاعات عديدة من نخبتنا ، خاصة مع تراجع وتيرة التظاهرات فى بعض عواصمنا العربية (خاصة القاهرة) نتيجة للأجازات الجامعية للطلاب (الذين هم وقود الثورة والتغير عبر التاريخ العربى المعاصر) ، وباتت مصمصة الشفاه ، والتألم لحال البيوت المهدمة والجثث المتناثرة لشهداء المخيمات والقرى ،هى الفعل الثابت الوحيد لهذه (القطاعات) من نخبتنا المحترمة.

* ولكن ...

* هل الصورة بالفعل قد وصلت الى هذا الحال من الانهيار ؟ وهل انكسرت فعلا الانتفاضة والمقاومة وتوقفت آلياتها عن عملها المؤثر بعد ضرب بنيتها التحتية فى مدن ومخيمات الضفة ؟ وماذا بأيدينا أن نفعل لها كى تستمر وتنتج ؟ ذلك هو السؤال الذى نحاول ان نجيب عليه .

* * *

بداية يهمنا الاعتراف دون خجل على ان ثمة خسائر مؤلمة قد ألمت خلال الشهر الماضى (أبريل) بالمقاومة وبالشعب الفلسطينى المناضل الذى يمثل الحاضنة الأكبر للانتفاضة والمقاومة ، ولا مجال لانكار ذلك ، بل من المهم ايراده حتى نتبين حجم ونوع الاجرام الذى تم تجاه أنبل ظواهر واقعنا العربى والاسلامى المعاصر ، " الانتفاضة الفلسطينية " وأيضا كى نرى عظمة هذا النبل ، حيث نشاهد استمرار المقاومة رغم كل هذا الألم .

* والألم أو الخسائر الفلسطينية فى مدن الضفة خلال شهر أبريل تمثلت فى اعتقال قرابة ٥ آلاف عنصر بينهم ١٤٠٠ من المنتمين الى التنظيمات لمناضلة [٣٤٠ من حركة حماس - ٣٤٢ من حركة فتح - ١٠٢ من حركة الجهاد الاسلامى - ٣٥٦ من الأجهزة الأمنية الفلسطينية] هذا فضلا عن مئات الشهداء (تقدرها بعض المصادر الصحفية بحوالى ٤ آلاف شهيد والبعض الآخر يرى أنها لا تزيد على ٦٠٠ شهيد فقط) ، ومن الخسائر التى أصابت المقاومة الفلسطينية والانتفاضة الباسلة هو تدمير الجيش الاسرائيلى لحوالى ٤ آلاف قطعة سلاح كانت بحوزة الفلسطينيين و٢٠ مصنعا صغيرا لانتاج المتفجرات والأحزمة الناسفة وتدمير ٤٥٠ عبوة ناسفة كانت جاهزة للعمل فضلا عن مصادرة مائة مدفع رشاش وحوالى ٢٠ محرك لصواريخ القسام ومعدات قتالية آخرى .

واذا أضفنا لهذه الخسائر ، خسارة الغطاء الشعبى الآمن لحركة المقاومين وقيام الجيش الصهيونى بتدمير بيوت وأماكن العبادة [مساجد - كنائس] كانت تمثل ملاذا آمنا وبيئة ملائمة للغطاء الشعبى الآمن .. كل هذا ولاشك خسائر فادحة لحركة الانتفاضة والمقاومة .

* ولكن .. كل هذه الخسائر المؤلمة ، لم تؤثر على أهم ما أراده العدو الصهيونى ، وهو روحية المقاومة وارادتها فى الصمود ، فالخسائر المادية سيتم حتما وبسهولة تعويضها ، والشهداء ، يخلقون بدمهم ، أجيالا جديدة من الاستشهاديين (وليس فقط الشهداء) ؛ لأن (بركة) دمهم هى النبع الحقيقى لامداد المقاومين بماء الحياة والجهاد هكذا يفهم شعبنا الفلسطينى الشهادة وهكذا حق قصة الصراع ؟ والسجناء المعتقلين ، سيخرجون يوما ، وسيواصلون الرحلة من جديد .

* ليس الأمر هكذا فحسب ، بل ان استمرار الضربات النوعية للانتفاضة / المقاومة ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ، يؤكد أن كل أهداف حملة شارون فى الاجتياح والذبح ، قد أخفقت ، فها هى العملية النوعية الفذة للمقاومة الفلسطينية داخل مستوطنة [أدورا قرب الخليل] والتى أودت بـ ٤ قتلى و٨ جرحى من قطعان المستوطنين (وحدثت ليلة الأحد ٢٠٠٢/٤/٢٨م) وتلتها سلسلة عمليات للجهاد الاسلامى وحماس وكتائب الأقصى كان آخرها عملية حمزة سمودى فى (مجدو) يوم ٢٠٠٢/٦/٥ ثم عملية الجامعة العبرية فعملية صفد الى آخر المسلسل الكبير من العمليات النوعية الهامة والتى تؤكد وبجلاء ان هذه الانتفاضة لم تنكسر .

* نفس المعنى نجده فى ذروة عملية الذبح الصهيونى ، والاجرام المنظم ضد الشعب الفلسطينى ، فأثناء اجتياح وتدمير مخيم جنين ،ظل المجاهد الشيخ [الشاب فى سنه الذى لم يكمل الثلاثين عاما] محمود طوالبة ابن حركة الجهاد الاسلامى قائد سرايا القدس فى جنين ، يقاتل ٩ أيام متواصلة مع رفاقه دون أن يلقى السلاح ، بل لقد قام هو ومجموعته - كما أكد الجيش

الاسرائيلى - بتدبير الكمين الشهير الذى أودى بحياة ١٣ جنديا اسرائيليا من خلال تفخيخه لأحد المنازل التى اقتحمها هؤلاء الجنود ، ثم ومن عظمة نضال هذا المجاهد [الذى يعد بالفعل القائد الحقيقى لمعركة جنين وليس سواه] قام بتفجير نفسه - كما يروى البعض - فى تجمع من الجنود الاسرائيليين بعد أن أوهمهم بأنه يسلم نفسه ، لقد خلقت أسطورة محمود الطوالبة ما أسماه المراقبون الصهاينة بـ(ماسادا فلسطينية) جديدة أو ما وصفه يورى أفنيرى الكاتب السياسى الاسرائيلى المعروف بـ (ستالينجراد فلسطينية آخرى) وما نسميه نحن (بكربلاء جديدة) .. هذا الفعل المقاوم ، حتى آخر طلقة وآخر نفس هو الوجه المضىء فى هذه الملحمة ، وهو الذى أكد أن قتل روحية الفلسطينى وارادته لم يحدث ولن يحدث ، وها هم رفاق وتلامذة محمود طوالبة يدوسون بأقدامهم على (المعونة الأمريكية) التى أرادت الولايات المتحدة ان تدخلها اليهم منذ أيام ، رافضين بإباء وشمم يحسدهم عليه الجميع ، أنهم رغم الجوع والتشرد والعراء والبيوت المهدمة ، يرفضون ان يأخذوا من القاتل ، صدقة مسمومة ، ويصرون على بقاء ارادتهم وروحهم صامدة ، كما علمهم (محمود طوالبة) ورفاقه ، والطريف ان هذا المخيم (جنين) هو نفسه المخيم الذى وقف الى جوار عز الدين القسام عام ١٩٣٦ فى جهاده ضد الصهاينة ومع (الحسينى) فى الأربعينات ، ونفس الحال يقال عن نابلس وطولكرم ورام الله وبيت لحم وغيرها .. إنها إذن إرادة غير قابلة للهزيمة ، أو الانكسار .

* * *

والأمر لم يتوقف عند حدود صمود المقاومة واستعدادها للمنازلة مزة آخرى وبإصرار أشد ، ولكنه يتجاوز ذلك الى انهيار نفسية ، وبنية العدو المقابل ، وصدق الله سبحانه وتعالى حين ذكر فى كتابه العزيز [ان تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون] ، والألم الاسرائيلى متعدد الأنواع والمستويات ، فإذا أخذنا بالمعنى المادى الذى يحلو للبعض ان يجعله وحده مرجعا فى التحليل السياسى ، فإن الأرقام - الباردة - تقول ان الاقتصاد الاسرائيلى قد تكبد حوالى ٦ مليارات دولار خسائر بسبب الانتفاضة وحوالى ٧٠٠ قتيل ، ويخسر ١٠٤ ملايين دولار شهريا لتجنيد الاحتياط وعمليات التنمية انخفضت بنسبة ١٠% عن العام السابق للانتفاضة المباركة (٢٠٠٠/٩/٢٨م) وواجهت شركات الطيران الاسرائيلية إفلاسا مريعا بسبب التوقف النسبى للرحلات الجوية ، وأعمال البناء تخسر شهريا ٢١٣,٥٨ مليون دولار بسبب توقف العمال الفلسطينيين عن العمل داخل الكيان الصهيونى بسبب اندماجهم فى أعمال المقاومة ، والدخل اسرائيليا انخفض بوجه عام الى ٤٠,٣% فى كل الفروع ، وحركة البيع والشراء داخل الأسواق انخفضت بنسبة ٥٠% وهو ما يساوى ١٥ مليار شيكل أى حوالى (٣,٢ مليار دولار) والسياحة شهريا تخسر ما يساوى مائة مليون دولار ، فالسائحين انخفضوا

من ١٠٧ مليون سائح سنويا الى حوالى نصف مليون سائح خلال العام المنصرم وفقا لمكتب الاحصاء المركزى الاسرائيلى .

* واذا أضفنا الى هذا الانهيار الاقتصادى ، الرعب الذى يجتاح المستوطنين رغم الآلة العسكرية الجبارة التى تحميهم ، وخوفهم من أى شىء يحمل ملامح فلسطينية أو تشتم منه رائحة عربية ، فإن معالم الهزيمة والألم تصبح مؤكدة لدى الطرف الاسرائيلى ، اذ ان هذا مناخ توتر لا يساعد على الحياة فى أبسط اشكالها ، مما يؤدى الى تعطل حركة الانتاج ، ومن ثم الاستمرار طويل المدى فى المكان وتعميره ؛ وتزايد معدلات الهجرة أو (الفرار) منه بالمعنى الأدق .

* هذه الحال تمثل مؤشرا على تزايد " الألم الصهيونى " مثلما هو الألم الفلسطينى ، بل أشد منه لأنه أى (الفلسطينى) جبل على المقاومة وهو لن يخسر شيئا ان هو قاوم ، وناضل ، فهذه هى طقوسه اليومية الاعتيادية منذ مائة عام ، وهو فى ممارسته لها لن يخسر سوى قيوده ، التى كبلته اياها اتفاقيات التسوية المذلة التى لايزال عرفات وصحبه يحاولون التمسك بها والعودة اليها من جديد فى مشهد شديد البؤس والابتذال .

* * *

* واذا مددنا التحليل على استقامته ، سنجد (الانتفاضة / المقاومة) وقد انتقلت عدواها الايجابية من الحالة الفلسطينية المحدودة الى الفضاء العربى والاسلامى الأرحب ، لقد استنهضت الأمة من جديد ، وهو استنهاض لم تستطعه أية قوة أو قضية آخرى ، واستطاع الفعل الفلسطينى الملحمى (بشقيه المآساوى والبطولى) ان يستنهض الأمة بعد إغفاءة نوم طويلة ، وتعددت مظاهر اليقظة ، سواء عبر صعود سلاح المقاطعة للشركات والسلع الغربية والامريكية (تحديدا) والذى استطاع ان يكبد الولايات المتحدة خلال شهر واحد فقط (شهر أبريل ٢٠٠٢) ٢٠٠ مليون دولار مما أصاب صناع القرار الأمريكى بالتوتر والشعور بالخيبة من المفاجأة (الحياة ٢٠٠٢/٤/٢٧م) ؛ وان علمنا ان أسواق مصر والخليج قد استحوذت على ٨٠% من المستخدمين لسلاح المقاطعة ومن نسبة الشركات والسلع الامريكية الخاسرة ، لعلمنا أية دلالة كبرى يحملها هذا المعنى الكبير الذى فجرته الانتفاضة / المقاومة .

وأيضا يضاف الى اعلاء راية (المقاطعة) ، اعلاء راية (التظاهر السلمى) شبه اليومى فى كافة عواصمنا العربية ، خاصة تلك العواصم التى كانت توصف بأنها عواصم التسوية الكبرى (القاهرة – عمان) ، وهو تظاهر مثل تعبيرا شعبيا عفويا يقول ان (فلسطين) مشكلة عربية قبل ان تكون فلسطينية وارتبط بالتظاهر حملة تبرعات بالمال والدم ، بل والتطوع ولعل استشهاد الشاب المصرى (ميلاد العبيسى) ابن (نجع القينيشات) أحد النجوع والقرى المجهولة فى بر

مصر وغير من شباب مصر، لدليل حى على عمق الوعى لدى الشعب المصرى بأن فلسطين قضية مصرية قبل ان تكون فلسطينية ، وهى كذلك بالنسبة لكافة البلاد العربية .

* لقد أعادت الانتفاضة ، الصراع كله ومن جديد الى مربعه الأول الحقيقى ، مربع المقاومة ، مربع ان الصراع مع الكيان الصهيونى صراع وجود وبقاء وليس صراع حدود وأمتار عشرية من الأرض ، وأن ما أخذ بالقوة فى هذا الصراع وعبر المائة عام الماضية لن يسترد بغير القوة ، وأن (الأقصى) و(القدس) و(فلسطين) ، هم القبلة السياسية لهذه الأمة ، مثلما هى (مكة) قبلتهم الدينية ، وأن لا اسلام صحيح ، ولا عروبة صحيحة ، بغير فلسطين ، بمعنى بسيط ومباشر ، لقد أيقظت (الانتفاضة / المقاومة) كل ما حاولت اتفاقات التسوية المذلة من كامب ديفيد الأولى (١٩٧٩) حتى كامب ديفيد الثانية (٢٠٠٠) أن تقتله او تهيل عليه التراب ، لقد أحيت الانتفاضة ، ذاكرة الصراع من جديد ، وكان لهذا الاحياء ثمن ، وهو ثمن من الصعب الآن ، الالتفاف عليه أو تجاوزه والعودة من جديد الى خيار قتله خيار المفاوضات،الذى سيعد انتحارا سياسيا بكل معنى الكلمة لمن يقترفه او يسير فيه او يوافق عليه .

* انتفاضة تفعل كل هذا من المؤكد انها اذن لم تنكسر .

* * *

ولكن ...

اذا كانت تلك هى ملامح المشهد ، (ألم) يقابله (ألم) أشد .. يتبقى سؤال : كيف نحول هذا الألم الفلسطينى الى فرح ، وابتهاج ، ونزيد بالمقابل (الألم الاسرائيلى) ؟! المسألة حين تترجم الى عمل اجرائى ، تعد أبسط مما نتصور فمع احترامنا لكافة أساليب المساندة والدعم الذى يقدمه الشارع العربى بأحزابه ونقاباته ولجانه وطلابه وأفراده ، فإنه دعم لم يصل بعد الى المستوى الذى تستحقه هذه (الانتفاضة) ، وتضحياتها الكبيرة ؛ لقد قدمنا - وقدم غيرنا - عشرات المقترحات لتطوير الأداء السياسى لهذه القوى فى سبيل دعم أقوى للانتفاضة (أو لأنفسهم بمعنى أدق) ، فقط الامر يحتاج الى تطبيق عملى ، وعندما خطا الشاب (ميلاد العبيسى) بأقدامه على رمال الخط الفاصل بين رفح المصرية ورفح الفلسطينية (وكانتا رفح واحدة قبل ربع قرن وقسمها الاحتلال والمفاوضات المذلة التى جرت بين الحكومة المصرية والكيان الصهيونى) ، قدم ترجمة عملية مباشرة وبسيطة لما ينبغى ان نقوم به جميعا ، ثم جاء استشهاده الدرامى ليمثل اعلانا رسميا عن أنجح السبل للمساندة ، واذا أضفنا اليه ما قام به سبعة من الشباب المصرى ومنهم فتاة من مدينة الاسماعيلية عندما حاولوا اختراق الحدود مع فلسطين ؛ للتطوع بالأنفس ، يؤكد ان هذا هو السبيل ؛ صحيح يقف دون هذا السبيل ، اتفاقات ، ومواثيق مذلة ، وحكومات مستبدة ، تحمى اسرائيل أكثر مما تحمى هى نفسها ، وصحيح أن أساليب الدعم الآخرى ، مهمة ومطلوبة ، ولكن المرحلة بتطوراتها تحتاج الى ما هو أقصى من ذلك ، تحتاج الى زحف فعلى الى الحدود العربية المحيطة بهذا الكيان ، زحف يكون فى طليعته الفلسطينيون

المقيمون فى بلاد المواجهة وعددهم بالمناسبة لا يقل عن مليون انسان ، فإذا افترضنا أنهم أو نصفهم قد زحف ومعه ما يعادله من المواطنين العرب ، فإن ذلك سيمثل أداة ضغط على (اسرائيل) المزروعة داخل فلسطين و(اسرائيل المزروعة داخلنا) أى أنظمتنا العربية ، والأمر ليس مثاليا أو مجرد تحليق فى الخيال ، فلقد فعلها من قبل عشرات الشباب ، والمطلوب الآن ، أن يفعلها بعض الشيوخ ، شيوخ النقابات والأحزاب واللجان والهيئات !!

* ويتوازى مع هذا ؛ محاصرة سفارات الولايات المتحدة وهيئاتها الاقتصادية فى بلادنا العربية بأجساد المتظاهرين ، وفرض أمر واقع عليها ، وهو أننا نرفضها ونرى فيها عدوا لا يقل فى عدائه لنا وعداؤنا له عن الكيان الصهيونى ، صحيح سيتم قمع هذا الحصار ، وستحاول (اسرائيل العربية) قتله ، كما تحاول الآن ، ولكن الاستمرار ، وتكرار المحاولة سيستمر فى النهاية .

* أما الطريق الثالث ، والمهم فى تطوير الأداء ، فهو طريق طويل الأمد ، انه طريق التغيير السلمى لأنظمة الحكم فى بلادنا العربية ، ونقول (التغيير السلمى) أى بالنضال السياسى ، حتى لا تظن بعض تيارات العنف فى بلادنا أن الفرصة مواتية والدعوة مواتية ، فنحن نرفض هذا المنهج لأنه سيورثنا أنظمة لا تقل عدوانية واستبدادا وتفريطا فى قضايانا عن تلك التى تحكمنا ، ان التغيير السلمى لهذه الحكومات هو الطريق المؤكد الى فلسطين ، فكل دعاوى التضامن والمساندة ، وكل محاولات إفهام هؤلاء الحكام أن الخطر قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من غرف نومهم ؛ لم تعد تجدى نفعا ، وتصطدم دائما بعقبة الحكام أو (اسرائيل العربية) ، والتى شاخت على مقاعدها وآن لها ان ترحل سلميا وعبر النضال السياسى المثابر ، طويل المدى تماما مثل قضية الصراع .

* هذا هو الطريق ، نضال فى فلسطين يرفعه منهج (محمود طوالبة) و(وفاء ادريس) يؤازره نضال فى المحيط العربى عبر الابداع فى أساليب العمل تواكب الابداع الجهادى فى فلسطين ، ويؤكد الاثنان معا نضال مشترك ضد خيار التسوية كما يحاول سماسرة أوسلو اعادته الى الحياة بعد ان مات ودفن ، وضد الاستبداد السياسى الحاكم فى بلادنا المبتلاة بالفراعنة الصغار والجدد ، أولئك الذين يشكلون ما أسمينا خجلا بـ (اسرائيل العربية) !! .

(٥)

وماذا بعد

هذا الذى انتهينا اليه فى سبل دعم الانتفاضة جاءت مجزرة غزة فجر الثلاثاء (٢٠٠٢/٧/٢٣م) والتى راح ضحيتها الشيخ صلاح شحادة قائد كتائب شهداء الأقصى و١٥ شهيدا و١٥٠ جريحا ، لتؤكد مجددا عليه ولتضع حدا لأى لغة أخرى مع هذا العدو ، سوى (لغة الدم) ، فهى وحدها اللغة التى يفهمها هذا العدو ، وما عداها باطل وزائف وخاصة تلك المبادرات والزيارات والمفاوضات التى يجريها بعض رؤساء ومسئولى الدول العربية وكأنهم يتعاملون مع دولة تحترم القانون الدولى وليس مجرد (عصابة حرب) لا يصلح معها الا المواجهة والردع .

إننا وبعد كل ما تقدم من مسيرة الانتفاضة والمذابح والبطولات الفلسطينية من الأقصى الى جنين وصولا الى غزة نؤكد ختاما فى هذا الفصل على ما يلى :

أولا : كان المهزومون من داخلهم (حكاما ونخبة سياسية وصحفيين) من دعاة التوقف عن العمليات الاستشهادية ، يتهمون المجاهدين من (حماس والجهاد وكتائب شهداء الأقصى) بأنهم هم السبب الرئيسى فى عدم توقف دورة العنف وأنهم يقدمون لشارون وحكومته الذرائع لكى يستمر فى غيه وقتله ، فماذا يقولون الآن ؟ ان حركة حماس وقبل ساعات فقط من استشهاد صلاح شحادة وسط أطفاله فجرا ، كانت قد أعلنت على لسان مؤسسها الشيخ أحمد ياسين ، أنها ستوقف العمليات الاستشهادية اذا انسحبت اسرائيل من الضفة ، وكانت وتيرة هذه العمليات قد هدأت بالفعل ، رغم كل هذا اذ بهذه المجزرة الرهيبة ضد (المدنيين) تحدث ، واذ بالمطالبين بوقف العمليات الاستشهادية يخرسون ، واذا بواشنطن تشجب على استحياء (على غير عادتها لو كان الأمر مع مدنيين مشكوك فى مدنيتهم داخل الكيان الصهيونى) ، الآن وبعد هذه المجزرة نسأل وبوضوح ألا تكفى هذه الحادثة لكى يخرس والى الأبد دعاة الادانة للنضال الوطنى الفلسطينى ، وبخاصة للعمليات الاستشهادية ، ان العار سيلاحق بعد ذلك كل من يجرؤ على الادانة ، ولن نجد وقتها ، وبكل صراحة سوى الاعلان عن خيانتهم لهذه الأمة ان هم طالبوا من قتل أطفاله وهدم بيته ودنست مقدساته ، أن يصمت وينحنى.

ثانيا : تأتى مجزرة غزة ومن قبلها ملحمة جنين لتؤكد من جديد على قانون هذا الصراع الأذلى وهو قانون فرض علينا فرضا ولم نكن نمتلك ترف الأخذ به أو تركه ، وهو أن ما أخذ بالقوة ، لن يسترد بغير القوة وأن لغة التفاوض ، والحوار مع القتلة لن تجدى وهى مضيعة للوقت ، واللغة الوحيدة الآن هى لغة المواجهة والمقاومة ، وما عدا ذلك مجرد أوهام فى رأس حكام ومثقفين تابعين للولايات المتحدة واسرائيل ، ومن السخف ان يمشى عاقل خلف الأوهام ، فمصيره حتما هو الموت والفناء على أيدى خصمه ، المطلوب الآن هو إمداد أهل غزة والضفة بالسلاح العربى الذى صدأ فى مخازن الحكام ، هذا وهو المطلوب وغيره لا قيمة له .

ثالثا : على كافة قوانا الوطنية والاسلامية فى مصر والبلاد العربية ان يبدأ أفرادها كل فى بيته وحزبه وشارعه ومؤسسته وجماعته مواجهة صحيحة وفاعلة للعدو الامريكى / الاسرائيلى ، مواجهة تبدأ بمقاطعة السلع والشركات وتمر عبر الكلمة والدعم المعنوى والسياسى ولا تنتهى الا عند الدعم بالمال والسلاح والنفس لمن يستطيع ؛ فما يحدث فى فلسطين وفى لبنان سيحدث غدا فى مصر والمسألة فقط مسألة وقت ليس الا ، والنازيون قادمون لا محالة وما تم فى جنين وغزة سوف يحدث فى شبرا والمنصورة وأسوان ودمشق وبيروت والرياض ولن يستثنى أحدا .وليس أمام هذه الأمة سوى طريق واحد لا ثانى له : انه طريق المقاومة والجهاد .

الفصل الثاني
جنين .. المدينة
تاريخ ومقاومة

لي مفردات تشبه الآتين من رحم الغضب
السالكين الموت وربا يبحثون عن العرب
إن تقرأوها تسمعوا نبض الشهيد وقد أحب
لا تخدعوا .. فمن القصائد حمزة وأبو لهب

سمير فراج

* كانت ولاتزال مدينة جنين (ومن بعد مخيمها) ، رمزا للصمود والنضال وكان موقعها الجغرافى المتميز عاملا رئيسيا فى قيامها بدور سياسى ، ونضالى كبير .

فطبيعتها الجغرافية والزراعية جعلت منها مدينة ذات موارد اقتصادية متنوعة وخاصة فيما يتصل بالموارد الزراعية ، والاستثمارات وخاصة فى مجال التعليم والخدمات والمهن والحرب ، وكان لتميزها الجغرافى المستقل الدور الكبير فى صناعتها لتاريخ خاص بها وسط التاريخ الفلسطينى النضالى ، تاريخ من العناد والثورة .

ومن الناحية الجغرافية تقع مدينة جنين على دائرة عرض ٢٨و٣٢ شمالا وعلى خط طول ١٨و٣٥ شرق جرينتش ، كما تقع على الاحداثيات ٢٠٨ عرض و١٧٨ طول حسب شبكة الاحداثيات الفلسطينية ووفقا لكتاب [قصة مدينة جنين - تأليف حرب حنيطى - الصادر ضمن سلسلة المدن الفلسطينية رقم (١٠) والناشر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - منظمة التحرير - صـ ١٠] وينقطع فى الأجزاء الشمالية من فلسطين استمرار الاقليم الجبلى المحاذى للسهول الساحلية مكونا سهلا يشبه مثلثا متساوى الأضلاع ، تمتد قاعدته من سفوح جبال الكرمل حتى شرقى مدينة جنين ، أما ضلعاه الاخران ، فيمتد الأول من جنوب شرق الناصرة وينتهى فى جوار مدينة جنين ، ويمتد الضلع الثانى بمحاذاة جبال الجليل ، ويطلق على هذا السهل اسم " مرج بن عامر " ، وبالتالى يمثل موقع مدينة جنين رأس مثلث سهل مرج ابن عامر ، عند التقاء المرتفعات الممتدة من جبال الكرمل ومن جنوب شرق الناصرة وقد تعرضت هذه المرتفعات لعملية نحت شديدة مما كون أودية أخذت اتجاها شماليا وجنوبيا فى معظمها .

ويصرف سهل مرج ابن عامر مياهه فى جداول يبدأ تجمعها فى جوار قريتى دير أبو ضعيف وبيت قاد ويتجه غربا حيث يلتقى بمياه العيون والينابيع فى شمال جنين ، ثم تستمر شمالا مخترقة سهل مرج ابن عامر من الشمال الى الجنوب ثم تنعطف غربا لتكون الحدود الفاصلة بين قضاءى الناصرة وجنين ، وتعتبر هذه الأودية جزءا من حوض نهر القطع الذى أطلق عليه الصليبيون اسم نهر حيفا ، وقد استقطبت هذه الأودية مراكز التجمع السكانى منذ القدم ، حيث وفرت سهولة الوصول والاتصال ، كما وفرت المياه من خلال الينابيع الوفيرة المنبثقة من بطون هذه الأودية ، وتعتبر مدينة جنين فى موقعها ممرا طبيعيا يصل سهل مرج ابن عامر بمنطقة جبال نابلس الداخلية ، سيما ان الوادى الذى تقع عليه المدينة يؤدى الى سلسلة المنخفضات الداخلية مثل سهل عرابة وسهل الرامة ، كما وفر سهل مرج ابن عامر ممرا للمدينة يصلها بالساحل وبسوريا الداخلية ، وبناء على ذلك تمثل مدينة جنين ملتقى بيئات متعددة منها البيئة الجبلية والبيئة السهلية والبيئة الغورية .

ومما يعطى موقع مدينة جنين أهمية أنها تقع فى موقع وسطى بالنسبة للمدن الفلسطينية ،

حيث تقع جنوب مدينة الناصرة على بعد ٢٥ كم والى الجنوب الشرقى من مدينة حيفا على بعد ٥٠ كم والى الشمال من مدينة نابلس على بعد ٤٣ كم ٠

كان لهذا الموقع أكبر الأثر فى حياة المدينة قديما وحديثا ، ويظهر ذلك فى تاريخها الاقتصادى والاجتماعى ، وفى أهميتها كعقدة مواصلات بين جبال فلسطين سيما طريق القدس - الناصرة ، كما تتفرع من المدينة طرق الى حيفا وعكا ، ولقد اهتم الاستعمار الانجليزى بالمدينة وطرقها فعبدها ، ولم تتوقف أهمية المدينة على الطرق البرية ، بل امتدت أهميتها الى الخطوط الحديدية حيث يمر بها خط يصل الى العفولة ومن ثم بيسان فسمخ وطبريا ٠

* * *

وكان لهذا الموقع الجغرافى المتميز تأثيره على التاريخ وهى المدينة التى يصل عمقها التاريخى الى ما قبل التاريخ ذاته فلقد ورد ذكرها فى التوراة باسم (عين جانيم) أى عين الجنات لكثرة مياهها وأشجارها فى أثناء الوجود العربى الكنعانى فيما قبل التاريخ ٠

ولما جاء الفتح الاسلامى عدل اسمها الى " جنين " ، وقد وصفها (صاحب معجم البلدان) بأنها "بليدة بين القدس وبيسان من أرض الأردن ، بها عيون ومياه" ، وتعاقبت على حكم المنطقة الدولة الأموية والعباسية ، ولكن عندما انحطت الدولة العباسية أخذ يسيطر على فلسطين فئة خارجة على القانون ، وقد سهل هذا مهمة الصليبيين فى غزوهم لهذه الديار ٠

سقطت مدينة جنين تحت الحكم الصليبى عام ١١٠٣م ، وقد احتلها دوق أدنبرة ، ودخلت ضمن امارة بلدوين ومملكة القدس ، وقد غير الصليبيون اسمها الى جراند جرين وذلك تمييزا لها عن بلدة زرعين التى دعوها باسم بيتيت جرين ، وقد أحاطها الصليبيون بأسوار وقلاع فسيحة ٠

بقيت جنين بيد الصليبيين حتى عام ١١٨٧ ، حيث هاجمها صلاح الدين الأيوبى الذى استطاع جنده ثقب قلعتها ، ولكن القلعة سقطت عليهم ، وبالتالى غادرها جند صلاح الدين الى زرعين ومن ثم الى عين جالوت ، وبعد معركة حطين سقطت جنين بيد المسلمين ، وقد عقد صلاح الدين صلحا بينه وبين أعدائه عام ٥٨٨ هـ ، وبالتالى نزلها صلاح الدين يوم الأحد الواقع فى ٨ شوال ، وقد غادرها فى اليوم الثانى الى بيسان ٠

وفى عام ١٢٢٩ م عقد صلح بين فردريك الثانى امبراطور النمسا والكامل الأيوبى ، أعطيت المدينة بموجبه الى الصليبيين ثانية ولكن الملك الصالح استطاع تحريرها نهائيا عام ١٢٤٤م بمساعدة القبائل الخوارزمية ، وفى عام ١٢٥٥م تم الاتفاق بين الناصر الأيوبى وبين أيبك أول سلاطين المماليك على اعطائه كل الأراضى التى تقع غرب الأردن " فلسطين حاليا " ، وبالتالى دخلت جنين فى حوزة المماليك كما يقول كتاب [قصة مدينة جنين ص ص ٣٠ - ٣١] وكانت فى حوزة الظاهر بيبرس ٠

* * *

تمر الأيام وفى عام ١٨٠٠ يهاجم نابليون فلسطين ويعسكر قائده كليبر فى مرج ابن عامر ، هنا هاجمه جنود الدولة العثمانية بمساعدة أهالى نابلس وجنين ، وكادوا يقضون على الفرنسيين فى تلك المنطقة ، لولا نابليون الذى هب لنجدة كليبر ، فقد أرسل خمسمائة رجل الى جنين ليقطعوا خط الرجعة على العثمانيين ، وانتصر الفرنسيون ، بعد ان اقتلعوا أعمدة الجوامع الرخامية ، وحرقوا أجزاء كبيرة من المدينة ، وبعد اندحار الفرنسيين ورجوعهم الى مصر ، تطورت مدينة جنين ثانية وأصبحت مركزا لمتسلمية جنين ، يحكمها متسلم ينوب عن والى صيدا . وعندما احتل المصريون فلسطين ، عهد ابراهيم باشا بمتسلمية جنين الى الشيخ حسين عبد الهادى ، وقد ازدهرت البلدة فى هذه الأثناء ، كم ازداد نفوذ سلطة آل الهادى .

وبعد خروج ابراهيم باشا من سوريا فى عام ١٨٤٠م ، اتخذ جوكموس قائد جيوش الحلفاء جنين مقرا عاما لقيادته ، ظنا منه أن جيوش ابراهيم باشا سوف تسلك طريق جنين ، ولكن رجاء القائد قد خاب ، حيث انسحبت جيوش ابراهيم عن طريق الأردن .

ولما رأت الدولة العثمانية استحداث أقضية جديدة عام ١٨٨٢ ، حولت جنين الى مركز قضاء ، أطلق عليه اسمها ، وأتبع هذا القضاء كمتصرفية نابلس الى ولاية بيروت التى أنشئت بدلا من ولاية صيدا ، وبقى لآل عبد الهادى السيطرة على المنطقة ، ولكن ظهر آل جرار كقوة منافسة لآل عبد الهادى ، وكان لآل جزار السيادة على جنوب شرق جنين ، وقد امتد نفوذهم فى بعض الأحيان لنابلس ، واشتد الخلاف بين آل عبد الهادى وآل جزار مما أدى لاحتدام النزاع بينهم ، حيث جرت بينهم معركة انتهت بانتصار آل عبد الهادى ، وقد اغتر آل عبد الهادى بقوتهم ، لدرجة أنهم تمردوا ضد الدولة العثمانية ، ودفع هذا الأمر الدولة العثمانية لارسال حملة بقيادة واليهم فى دمشق ، انتهت بإخضاع آل عبد الهادى وتخريب بلدة عرابة معقلهم ، وبعدها أشرفت الدولة العثمانية على منطقة جنين بصورة مباشرة ، وذلك عن طريق موظفيها .

* * *

وتذكر [موسوعة المدن الفلسطينية : مدينة جنين ص ٣٤] انه بعد الاشراف العثمانى على منطقة جنين ، ازدهرت المدينة ، حيث بنى فيها الكثير من الأبنية الضخمة مثل سوقها القديم وبعض بيوت السكن ، كما رصفت عدة شوارع فى البلدة بالحجارة ، ولا تزال مثل هذه المبانى قائمة حتى الآن .

وفى بداية القرن العشرين ، ربطت جنين بخط حديدى مع العفولة وبيسان ونابلس ، وأتبعت مدينة جنين الى سنجق نابلس ضمن ولاية بيروت بعد أن كانت تتبع سنجق اللجون .

وفى الحرب العالمية الأولى عسكرت فئة من الجيش العثمانى فى جنين ، كما أقيم فيها مطار غرب المدينة للجيش الألمانى ، ولا يزال نصب شهداء الطيران الألمانى قائما فى المدينة ، وإثر

تقدم الجيش الانجليزى نحو جنين ، انسحب العثمانيون شمالا عن طريق بيسان ، وفى العشرين من شهر سبتمبر عام ١٩١٨ احتل الانجليز جنين ، واستولوا على كثير من المعدات والأسرى ، وبعد شهرين من وصول الانجليز للمدينة عقد الجنرال اللنبى مؤتمرا لقادة جيوشه فى جنين ، بعده عين حاكما عسكريا لبريطانيا على المدينة ، وبقى الحال كذلك حتى عام ١٩٢١ ، حيث قسمت فلسطين الى وحدات ادارية ، كانت جنين فيها قضاء من أقضية المنطقة الشمالية وكانت نابلس قضاء آخر ، وفيما بعد ضمت جنين الى لواء السامرة وأصبحت ضمن أقضية لواء نابلس .

هذا ولمدينة جنين سجل حافل بالنضال ضد الاستعمار البريطانى والصهيونى ، ولم يسكن المدينة أى صهيونى ، وفى أحراش يعبد التابعة لجنين أعلنت أول ثورة مسلحة ضد الاستعمار البريطانى ، وذلك عام ١٩٣٥ ، وقد تزعم هذه الثورة الشهيد المجاهد الكبير عز الدين القسلم ، كما اشترك سكان مدينة جنين فى إضراب ثورة عام ١٩٣٦ التى استمرت قرابة ستة شهور ، وقد بدأت هذه الثورة بإضراب ومظاهرات تحولت الى مهاجمة المعسكرات البريطانية والمستعمرات الصهيونية فى فلسطين وقد أعطى موقع جنين ميزة لهذه الثورة ، من حيث سيطرة هذه المدينة على الطريق الذى يصل شمال فلسطين بجنوبها ، ويعد هذا الطريق الوحيدة قبل فتح الطريق الساحلى ، وكان الثوار يهاجمون سيارات الانجليز عند خروجها من الجبل الى المرج ، مما أجبرالانجليز على تسيير سياراتهم على شكل قوافل مسلحة ، وبرغم ذلك استمر الثوار فى مهاجمة سيارات المستعمرين وقوافلهم ، وتعد مدينة جنين آخر موقع تتوقف فيه الثورة ، فمنها انسحب فوزى القاوقجى مع بقية المناضلين العرب بعد انتهاء الاضراب والثورة.

ومن أهم الحوادث التى عرفتها جنين إبان هذه الفترة ، اغتيال حاكمها البريطانى موفيت الذى عرف عنه الظلم والعداوة للعرب ، وقد اغتاله (على أبو عين) من بلدة قباطية . وذلك فى قلب مقر الحكم وقتها " دار الحكومة " وذلك فى أغسطس من عام ١٩٣٨ ، وقد استغل البريطانيون هذا الحادث ليهدموا سوق البلدة التجارى ، ودمروا الكثير من المنازل ، وتم إلقاء العديد من الأبرياء فى السجون ، وقد وصف شاهد عيان بريطانى هذه الحوادث لصديقته قائلا : " تجدين ما لا يطاق ، إرهابا بريطانيا أشد من الارهاب العربى ، لا يصدقه بريطانى مدنى مثلى لولا أنه شاهد بعينه ، قتل بوليس بريطانى ، فنسفوا بلدة جنين نسفا ، وما بالغ البيان الرسمى حيث أحصى ما هدم من المساكن بمئة وخمسين ، وما قولك فى أشخاص ركضوا هروبا للنجاة ، فأطلقت عليهم النار ، فسقطوا ؟ أليس ذلك دأب النازية ؟ أما التعذيب ابتزازا للإقرار ؟ فما حدث تشمئز لوصفه نفس الأبى ، وما أريد به الا إلقاء الرعب فى نفوس الناس ، وليس لعقاب

المذنب ، وما وقفوا عند تدمير الدور والبيوت ، تنكيلا ، بل نسفوا ونـــهبوا وسـلبوا نقـودا ومجوهرات،ويستحيل على أن أوقفك على كل ما هو جار مثل ذلك،وما قولك فى عمال عـــرب شجعان أوفياء يقضون النهار فى إصلاح أسلاك التليفون ،وهم عرضة لرصاص الثوار ، عـاد بعضهم مساء فوجدوا بيوتهم أنقاضا،وقد نسفها الجنود البريطانيون،تلك حوادث تزيد الثـــوار نقمة وبأسا"[انظر مصطفى الدباغ:بلادنا فلسطين – الجزء الثالث – دار الطليعة بيروت ١٩٧١] .بعد ذلك هدأت البلاد وأخذ الناس فى جنين فى تعمير ما تهدم . كما أعادوا تنظيـــم الشـارع الرئيسى بشكل جديد ، وبقى الحال كذلك الى أن بدأت حرب ١٩٤٨ وأخذ اليـــهود يـهاجمون القرى السهلية فى شمال جنين ، وقد تمكن اليهود من احتلال عدد من القرى فى المـــرج ، الا انهم لم يجرؤا على اجتياز المرج لاحتلال المناطق الجبلية الحصينة ، ومن أهم القـــرى التـــى سقطت فى أيدى اليهود فى هذه الفترة هى : زرعين،والمـــزار ونـــورس وصفولـــة والجلمـــة والمقيبلية وفقوعة وعرانة ، وقد تلقى اليهود فى هذه الأثناء المساعدات والأسلحة التى تركها لهم الانجليز بعد خروجهم فى ١٤ أيار عام ١٩٤٨ ، وهذا دفعهم للقيام بمحاولة يائسة لاحتلال مدينة جنين ، حيث حدثت معركة جنين التى تعد من أبرز المعارك الفلسطينية ، وقد حدثت هذه المعركة يوم ٣ يونيو ١٩٤٨ ، حيث قام اليهود بتطويق المدينة ، ممـــا اضطـــر المجـــاهدين الفلسطينيين والعراقيين وعددهم لا يزيد على ٣٠٠ مجاهد الى اللجوء لعمارة الشرطة الواقعة عند مدخل جنين الغربى ، أخذ اليهود وعددهم ٤٠٠ يهودى ، بعد أن استولوا على معظم أحياء المدينة ، يقصفون العمارة قصفا شديدا بنيرانهم الحامية من مدافعهم رشاشاتهم ، وكاد اليـــهود يتغلبون على المحاصرين لولا وصول نجدة عراقية ، قوامها ٥٠٠ جندى ، بقيادة عمر علـــى التى أخذت تضرب مواقع اليهود المتمركزة على التلال المحيطة بجنين ، وفى الوقت نفسه خف للنجدة أيضا زهاء مئة مجاهد فلسطينى من القرى المجاورة ، وبعد معارك دامية فـــى خـــارج البلدة وفى شوارعها وأزقتها اندحر اليهود وأخذوا يلسحبون ، وقبل صلاة الجمعة بساعة مـــن يوم ٤ يونيو ١٩٤٨ كانت المدينة قد تطهرت تماما من الأعداء ، وقد غنم العـــرب فـــى هـــذه المعركة عددا كبيرا من المدافع والرشاشات والبنادق وغيرها من العتاد .

قال اليهود وقتها : ان عدد القتلى والجرحى والمفقودين من رجالهم بلغ فـــى معركـــة جنيـــن (١٢٤١) وأما شهداء العرب فكانوا أقل من المئة (مصطفى الدباغ ـ مرجع سابق صـــ٤٧٩) . وقبل ان ينسحب الجيش العراقى من فلسطين عائدا لبلاده أقام نصبا فى مدينة جنين ، تذكـــارا لشهداء جنين والقرى المجاورة فى المعركة المذكورة ، كما أقام نصبا آخر لشهداء العـــراق ، عند مفترق طريق جنين – قباطية – نابلس .

وبعد انتهاء الهدنة الأولى فى ٩ تموز ١٩٤٨ قام العراقيون والفلسطينيون بهجوم على القوات

اليهودية التى كانت تتمركز فى القرى التى استولت عليها وبعد يومين من هذا الهجوم تمكنوا من استرداد قرى فقوعة وعرانة والمقيبلية وصندلة وجلمة وغيرها ، حتى ان طلائع المهاجمين وصلت الى تلال المزار ، وقد غنم العرب فى هجومهم هذا الكثير من الغنائم من بينها المدافع والرشاشات والبنادق وسيارات الجيب وغيرها ، وعلي أثر ذلك دب الرعب فى قلوب اليهود سكان المستعمرات القائمة فى المرج وأخذوا يتأهبون للرحيل ولكن للأسف تراجع القادة العرب كعادتهم ولم تتحرر فلسطين ، بل توزع الفلسطينيون على مخيمات كما هو واضح فى الجدول المرفق نهاية هذا الفصل وهو التوزيع الذى تزايد داخل وخارج فلسطين ليصل داخل فلسطين بعد ١٩٦٧ الى ١١ مخيما وخارجها الى ٥٢ مخيما .

* * *

وبعد ١٩٦٧ كانت منطقة جنين ومخيمها المنشأ عام ١٩٤٨ كما يروى (حرب حنيطى فى كتابه : قصة مدينة جنين – مصدر سابق صـ ٢٤٦) تمثل مشكلة تواجه السياسة الاستيطانية ، فالكثافة السكانية العربية العالية فى المنطقة والتى تقترب كثيرا من مناطق التجمع السكانى الصهيونى المكثف فى المستوطنات الصهيونية ، ونظرا لوعورة المنطقة ، فإن تأسيس مستوطنات زراعية تسيطر على مساحات واسعة من الأراضى هى أمر صعب التحقيق ، ومع ذلك فقد تم تأسيس عدد من المستوطنات فى المنطقة على أمل تحقيق الأهداف التالية :

أ – السيطرة على مفارق الطرق الاستراتيجية .

ب – وصل مستوطنات الأغوار وشفا الأغوار بالمنطقة الساحلية .

ج – اقامة عدد من المدن اليهودية لإحداث سيطرة سكانية يهودية فى المنطقة متأخرة نسبيا حيث بدأت عام ١٩٧٥ وذلك بعد تأسيس منطقة غوش أمونيم ، وبعد تسلم الليكود السلطة .

وقد لاقت السياسة الاستيطانية الصهيونية فى المنطقة الكثير من الانتقادات بوصفها مستوطنات أشباح ، نظرا لقلة أعداد المستوطنين فيها ، ونظرا لارتباط المستوطنين بأعمال داخل الكيان الصهيونى وبالرغم من الانتقادات فإن بناء المستوطنات قد استمر وتم توجيه الاستثمار اليها بصورة مستمرة جعلت منها قاعدة اقتصادية وجعلت منها مستوطنات حقيقية مهيمنة عبر المنطقة ، ولاسيما ان هذه المستوطنات أخذت شكل أحزمة وقطاعات حول المدن الرئيسية فى المنطقة مثل منطقة جنين ، وتهدف هذه الأحزمة أو القطاعات الاستيطانية لخنق المدن العربية وقطع صلاتها بالقرى العربية الأخرى ، وفى الوقت نفسه حرمان المدن العربية من أى توسع مستقبلى ، واذا علمنا أن تقدم المدينة وإقليمها فى العادة يعتمد على الصلات والعلاقات بين المدينة وإقليمها ، فإن قطع هذه العلاقات يعنى تخلف المدينة والاقليم فى آن واحد ، وهذا ما هدفت اليه السياسة الاستيطانية .

* * *

وكان لوجود مخيم اللاجئين المهجرين بعد عام ١٩٤٨ الدور الأساسى فى استمرار الاستنفار والعداء الاسرائيلى تجاه المدينة ومخيمها .

ويشهد تاريخ جنين المدينة والمخيم العديد من الجرائم الصهيونية التى يندى لها جبين البشرية ولم تكن مذبحة الأيام العشرة الأول من أبريل ٢٠٠٢م آخرها ، فيذكرنا التاريخ انه فى شهر مارس عام ١٩٨٣ أضاف اليهود صفحة سوداء جديدة فى سجل جرائمهم البشعة فى حق الشعب الفلسطينى ، وتختلف الجريمة الجديدة عن غيرها من الجرائم باستخدام السلاح الكيماوى ضد طالبات فلسطينيات بريئات ، حيث عمدت الى تسميمهن بطرق شتى .

وبدأت ظاهرة تسمم الطالبات الجماعى فى مدينة جنين ، ثم اتسعت فيما بعد وشملت أقضية طولكرم ونابلس والخليل والقدس ، وقد سجل عدد من المستشفيات العربية والاسرائيلية خلال ثلاثة أسابيع ما يزيد على ألف حالة تسمم أغلبيتها لطالبات فى المرحلتين الاعدادية والثانوية. ولم تعترف السلطات الصهيونية بجريمتها ، بل ادعت ان ذلك كله لم يكن سوى حالات من التظاهر بالتسمم .

لكن الأطباء الفلسطينيين العاملين فى المستشفى الوطنى بنابلس حيث عولجت حوالى ستين طالبة أثبتوا ان السلاح الكيماوى المستخدم ضد الطالبات هو عبارة عن مادة كيماوية صلبة تتحول الى غاز حال تفاعلها مع الجو بدرجة حرارة معينة ، وان هذا الغاز المتسامى (أى الذى تتحول مادته من الصلابة الى غاز دون المرور بحالة السيولة) هو شبيه بالغاز الذى استخدمه الجيش الأمريكى فى فيتنام .

ومن أعراض هذا التسمم المعاناة من نوبات متفاوتة أبرزها آلام حادة فى المفاصل والرأس وشعور بالدوخة ، وأحيانا الاصابة بغيبوبة .

* * *

هذا وقبل ان نختم يذكرنا التاريخ النضالى لجنين أيضا بطبيعة سكانها وعائلاتها الكبيرة حيث الأغلبية العظمى من عائلات جنين تعود بأصولها الى مختلف المدن والقرى الفلسطينية المجاورة ، وقد نزحت اليها خلال فترات زمنية سابقة لتحسين أوضاعها المعيشية وبخاصة بعد أن أصبحت جنين مركز قضاء حمل اسمها وذلك فى عام ١٨٨٢ عندما استحدثت الدولة العثمانية أقضية جديدة فى فلسطين .

ومن ضمن هذه العائلات : جرار ، عبد الهادى ، الجرادات ، السعدى ، الطاهر ، أبو عنى ، عزوقة (الامام) ، الحنيطى ، منصور ، فزع ، صباح ، العبوشى ، اللحام ، الزغيبى ، أبو الرب ، أبو عيسى ، الحافى ، الصغير ، أبو عميرة ، الشرايعة ، الخالدى ، الحسينى ، لحلوح ، العارضة (الشقران) ، حمدان ، موسى الزريقى ، عساف ، البدارنة ، العطاطرة ، الجربان ، أبو

شملة ، الحمارشة ، الشواهنة ، الغبارية ، العلاونة ، الحمامرة ، الفاخورى ، وهيب ، الشلبى ، العارورى السعدى ، زيد ، اكميل ، الزكارنة ، العمارنة ، هذا وقد أنجبت جنين وقضاها شخصيات بارزة وهذه طائفة ممن توفاهم الله تعالى خلال القرن الحالى :

الشهيد سليم الأحمد عبد الهادى (١٨٧٠ - ١٩١٥) ، الشيخ الشهيد فرحان السعدى (١٨٦٠ - ١٩٣٧) ، القائد الشهيد محمد صالح الحمد (أبو خالد (١٩١٣ - ١٩٣٨) ، الشهيد محمد سليم الحسن (١٩٣٨) ، الشهيد عبد الفتاح محمد الحاج مصطفى (١٩٣٨) ، المجاهد عارف حمدان أحمد (١٩٣٨) ، الشهيد مصطفى على الأحمد (١٩٣٤) ، القائد الشهيد يوسف سعيد أبو درة (١٩١٠ - ١٩٣٩) المجاهد داود الحورانى ، القائد عبد الرحمن الحمد (١٨٩٨ -) ، رجل الأعمال عبد السلام محمد أبو عيسى (١٩٢٨ - ١٩٨٢) ، الشيخ المجاهد نمر السعدى (١٩٠٥ - ١٩٤٨) ، الشيخ محمد اليوسف جرار ، المجاهد حافظ باشا عبد الهادى ، المجاهد فوزى جرار ، المجاهد أحمد مسعود المصلح ، الشهيد الحاج محمد احمد جرار (١٩٤٨) ، الأديب عبد الله مخلص (١٨٧٨ - ١٩٤٧) ، الشهيد سلمى طه (١٩١١ - ١٩٧٤) ، المجاهد عبد الغنى سنان (١٩٠٠ - ١٩٧٥) ، الشاعر الأديب محمد العدنانى ، المجاهد حسن البابر (١٨٩٥ - ١٩٨٤) ، الشيخ المجاهد محمد نافع العبوشى (رئيس بلدية سابق) (١٩٠٦ - ١٩٨٦) ، الشيخ فريز جرار ، الشيخ المجاهد محمد نجى أبو جعب ، الشهيدة الهام زعرور (١٩٦١ - ١٩٨٣) ، المجاهد تميم محمد العدنانى (١٩٤٢ - ١٩٨٩) ، القائد الشهيد عبد الله عزام (١٩٤٢ - ١٩٨٩) ، الشهيد البطل عصام دراغمة (١٩٦٦ - ١٩٩٢) .

جدول رقم (١)

تطور مساحة مخيمات الضفة الغربية المنظمة - (المصدر مجلة صامد)

المخيم	المحافظة (الموقع)	تاريخ الانشاء	المساحة (دونم) عند الانشاء	المساحة الراهنة
شعفاط	القدس	١٩٦٦	٩٨	١٩٨
الامعرى	القدس	١٩٤٨	٩٢	٣٦٠
دير عمار	القدس	١٩٤٩	١٦٠	١٤٥
الجلزن	القدس	١٩٤٩	٢٤٠	٢٤٠
قلنديا	القدس	١٩٤٩	٢٣٠	٣٥٣
الدهيشة	القدس	١٩٤٩	٢٥٨	٣٤٠
عائدة	القدس	١٩٤٨	٦٠	١١٥
بيت جبرين (العزة)	القدس	١٩٤٩	٢٤	١٣٥
عقبة جبر	القدس	١٩٤٨	١٦٨٩	٦٨٩
عين السلطان	القدس	١٩٤٨	٧٠٨	٧٠٨
النويعمة	القدس	١٩٤٨	٢٧٠	٢٧٦
بلاطة	نابلس	١٩٥٠	١٦٧	٤٦٠
عسكر	نابلس	١٩٥٠	١٦٣	١٦٢
عين بيت الماء	نابلس	١٩٥٠	٢٨	٢٨
نور شمس	نابلس	١٩٥٢	٢٢٦	٢٣٠
الفارعة	نابلس	١٩٤٩	٢٢٥	١٩٤
طولكرم	نابلس	١٩٥٠	١٦٥	٤٦٥
جنين	نابلس	١٩٥٣	٣٧٢	٤٧٣
الفوار	الخليل	١٩٥٠	١٠٨	٢٣٨
العروب	الخليل	١٩٤٩	٢٥٨	٢٣٨
المجموع			٥٥٤١	٦٠٢٩

من تحليل هذا الجدول المرفق يمكن استنتاج ما يلى :

١ – تضم محافظة القدس بألويتها ، القدس ، رام الله ، بيت لحم ، وأريحا (١١) مخيما ، تشكل أكثر من نصف مخيمات الضفة الغربية ، يليها محافظة نابلس وألويتها نابلس ، جنين ، وطولكرم ، (سبعة مخيمات) ، ثم محافظة الخليل (مخيمان فقط) ، مع العلم بأن هذه المخيمات جميعها أنشئت قبل عام ١٩٦٧م .

٢ – بلغت المساحة الاجمالية لمخيمات الضفة الغربية عند انشائها ٥٥٤١, دونما ، ارتفعت الى ٦٠٢٩ دونما فى الوقت الراهن ، أى بزيادة اجمالية قدرها ٨,٨% ، وهى نسبة محدودة جدا وتشكل مساحة مخيمات محافظة القدس ٥٩% من المساحة الاجمالية ، تليها محافظة نابلس ٣٣,٤% ثم محافظة الخليل ٧,٦% فقط .

٣ – هناك ١٢ مخيما اتسعت مساحتها فى الفترة ما بين الانشاء والوقت الراهن وهى : شعفاط ، الامعرى ، قلنديا ، الدهيشة ، عائدة ، بيت جبرين والنويعمة ، وهى واقعة فى محافظة القدس ، ثم بلاطة ، نور شمس ، طولكرم ، جنين فى محافظة نابلس ، أما فى محافظة الخليل فقد اتسعت مساحة مخيم الفوار .

أما مخيمات دير عمار وعقبة جبر فى محافظة القدس وعسكر والفارعة فى محافظة نابلس ، ثم مخيم العروب فى محافظة الخليل ، فقد تعرضت مساحتها للنقصان ، فى حين ثبتت مساحة بقية المخيمات ، وعددها ثلاثة ، وهى الجلزون ، عين السلطان ، وعين بيت الماء .

الفصل الثالث

جنين المخيم:

ملحمة لا مجزرة

بدموع زينب كنت تبكين الذى للموت جاء
وتشققت شفتاك من ظمأ الحسين بكربلاء
من ذا سيدرك أن موتك كان من أجل البقاء
والناس تسألنى : الفرزدق أم جرير فى الهجاء ؟!

سمير فراج

وقعت الملحمة أو البطولة فى منطقة شديدة الفقر ، شديدة الضيق فى المساحة ، ولكنها كبيرة فى إيمانها ، وصمودها ، وأبطالها الكبار ... انها (مخيم جنين) .

البعض منا ، يخلط بين هذا المخيم الصامد ، وبين المدينة التى يلتصق اسمها به مدينة جنين ، التى سبق أن أشرنا اليها والى جغرافيتها وتاريخها ، ولكن هناك فرقا ، فى المكان وفرقا فى الزمان ، والأدوار برغم ان الاثنين كانا ولايزالان ، رمزين للتحدى والثبات والمواجهة .

* سؤالنا الآن حول هذا (المخيم) ماذا عنه ؟ ، ماذ عن أرضه وسمائه ؟ ماذا عن أهله وشهدائه ، ماذا عن البطولة التى جرت - دما وفخرا - بين ثناياه الطاهرة ؟

ذلك ما يجب عليه هذا الفصل وبأكبر قدر من المعلوماتية والتوثيق عبر محورين للبحث الأول ويتناول جغرافية المخيم وتاريخه والثانى يتحدث عن ملحمة المخيم الاخيرة عبر الشهادات الحية .

* * *

أولا جغرافية المخيم وتاريخه : تحدثنا موسوعة (المخيمات الفلسطينية) الصادرة عام ١٩٩٠ عن المخيم قائلة الآتى :

تاريخ الانشاء : انشئ مخيم جنين فى عام ١٩٥٣ من قبل وكالة الغوث ، وقد أطلق عليه فى البداية مخيم العائدين ، وبعد فترة من الزمن عرف باسم مخيم المحطة وسبب التسمية يعود لأن محطة قطار تركية قديمة توجد فى أسفل المخيم ، ثم تعارف عليه الناس باسم مخيم جنين.

الموقع : يقع مخيم جنين على الجانب الغربى لمدينة جنين ، وقد بنى على تلة صخرية منحدرة على الجهة الغربية للمدينة ضمن حدود البلدية ، وكان هذا الموقع يستخدم إبان حكم الانتداب البريطانى كمحطة لسكة الحديد وكمعسكر للجيش البريطانى .

المساحة : تقدر مساحة المخيم بـ (٣٧٢) دونما وقد ازدادت الى ٤٧٣ دونما فيما بعد .

الوضع السكانى : بنى مخيم جنين فى البداية لكى يستوعب أربعة آلاف لاجئ فلسطينى ، وقد بلغ عدد سكانه فى مايو عام ١٩٦٧ (٧٢٩٠) نسمة من (١٢٢٣) عائلة وبلغ عدد سكان المخيم فى يناير عام ١٩٨٦ حوالى (٨٤٧٥) نسمة من (١٦٩٨) عائلة ، وحسب الاحصاءات فقد بلغ عدد سكان المخيم فى ٣٠ يونيو ١٩٨٨ (٩٠٥٨) نسمة ، بينما بلغ عدد سكانه (٩٥٣٠) نسمة فى ٣٠ يونيو ١٩٨٩ حسب احصاء للوكالة ، وحسب الاحصاء الأخير لوكالة الغوث والذى جرى فى ديسمبر ٢٠٠١ بلغوا ١٣,٩٢٩ حسب نشرة الوكالة .

ومعظم سكان المخيم عاشوا قبل عام ١٩٤٨ فى حوالى ٢٥ قرية وبلدة فى منطقة حيفا منها قرى زرعين ، نورس ، المزار ، والكفرين ، صبارين ، والمنسى ، والغبية ، وصيفا ، وقيسارية ، نعين حوض ، والسنديانة ، ودالية الروحة ، وأجزم ، وأم الزينات ، وجبع ، وعين غزال ، والطيرة وأل الطنطورة ، وقنير ، وأم الشوف وغيرها ، وبرغم اختلاف قراهم الأصيلة وتنوع النسب العائلى الا ان المعاناة جعلت منهم أناسا متآلفين وكأنهم أسرة واحدة .

أوضاع المساكن : تتزاحم (١١٧٣) وحدة سكنية كجسد واحد يمد رجليه فى أطراف مرج ابن عامر ويسند ظهره الى مرتفعين يتخلله واد يعرف (بوادى الحدى) اضافة الى منطقة سهلية مكتظة تعرف بمنطقة (الساحة) .

ويسكن أهالى المخيم فى بيوت تتألف من نماذج معتمدة من قبل الوكالة وهى عبارة عن أكواخ مبنية من الاسمنت المسلح وغرف اضافية وملحقات تبنى على حساب اللاجئين الخاص ، والباقى يسكن اما فى بيوت خاصة البناء أو ثكنات استخدمت سابقا من قبل سلطات الانتداب البريطانى كمقرات وثكنات عسكرية وصنفت الأكواخ كالتالى حسب احصاءات السبعينيات :

- أكواخ شيدتها وكالة الغوث وعددها (١٤٣) وحدة سكنية .
- أكواخ خاصة من الحجارة والطين مسقوفة من الوكالة (٣٧٦) وحدة سكنية .
- أكواخ خاصة من الحجارة والطين مسقوفة على حساب الأهالى (٨٦٩) وحدة سكنية .
- أكواخ خاصة من الاسمنت المسلح (٢٤) وحدة سكنية .
- ثكنات بأسقف من الزينكو (٢٤) وحدة سكنية .

الوضع الاجتماعى : لا يختلف مخيم جنين عن غيره من المخيمات فالعائلات كبيرة والسكن صغير والأفراد الذين بحاجة الى اعالة كثيرون والأشخاص الذين يشتغلون قلة ومجتمع فتى تزيد الفتوة فيه عن ٥٥% أما نسبة الشيوخ فتقل عن ٤٥% ، ولا يوجد حدائق أو ملاعب فى المخيم ، فالأولاد لا يلعبون فى الشوارع المملوءة بالنفايات والحفر والمجارى المكشوفة ، فالحياة الاجتماعية متدنية لا تقاس بمستوى الحياة فى أماكن أخرى من المدن والقرى .

الوضع الاقتصادى : سعيا وراء لقمة العيش فإن عددا كبيرا من أهل المخيم يعملون فى شركات ومصانع اسرائيلية فى حيفا والخضيرة وغيرها ، اما البقية فيعتمدون فى كسب قوتهم وقوت أبنائهم عن طريق محلات تجارية يملكونها مع شركاء او يعملون بها فى مدينة جنين فضلا عن وجود قلة من أصحاب المهن وهناك مهاجرون وموظفون يعملون فى دول الخليج والأردن.

ظاهرة جديدة فى المخيم : وهى كما يبدو تنم عن حس تجارى حيث بدأ عدد من سكان المخيم ببناء حوانيت تجارية على الشارع الرئيسى فى المخيم حتى تكون مورد رزق سواء كان ذلك باستغلالها أم بتأجيرها وعموما فالوضع المعيشى متدن لأغلب السكان والبقية القليلة دون الوسط .

أوضاع الخدمات : وتشمل الخدمات الماء والكهرباء والشوارع والمجارى والهواتف وعمال النفايات ، أما الماء والكهرباء فقد تم توصيلهما فى مدينة جنين الى كل بيت ، كما يوجد فى مخيم جنين خزان ماء سعته (٢٤٥م) وهناك خطوط مياه خاصة يقدر طولها بـ (٩٠٠)م .

ويوجد فى المخيم محلات مختلفة لخدمات السكان قدر عددها فى عام ١٩٦٧ بـ ٤٨ محلا ازدادت هذه المحلات فى عام ١٩٨٦ الى (٥١) محلا كما يوجد فى المخيم مقهيان .

أما بالنسبة للنظافة فيعتبر مخيم جنين من أنظف المخيمات ويرجع ذلك الى وجود مراقبة للعمال كما توجد هناك (٩) حافظات كبيرة للنفايات موزعة على المخيم ويعاني المجاورون لهذه الحافظات من امتلائها السريع وتأخر تفريغها خارج المخيم واشعال النار فيها مما يؤدى الى رائحة كريهة ودخان يسبب المضايقة وخاصة أن البيوت مزدحمة ومتجاورة .

الوضع التعليمي : يوجد فى المخيم خمس مدارس منها مدارس ذكور واحدة اعدادية ومدرستان ابتدائيتان ، ومدرستان للبنات واحدة اعدادية واخرى ابتدائية ، وقد بلغ عدد الطلاب فى السنة الدراسية ٨٧/٨٦ (١٠٧٢) طالبا و(٩٩٦) طالبة وهذا الرقم يتزايد كل عام مما شكل ازدحاما فى غرف الدراسة والذى يؤثر بالتالى على استيعاب التلميذ أو التلميذة ويسبب الارهاق للمعلمين والمعلمات .

الوضع الصحى : ولمعرفة الوضع الصحى لابد ان نلقى الضوء على ثلاثة أمور رئيسية تكون بالنسبة للمخيم مقومات الوضع الصحى :

أولا : العيادة : هناك مركز صحى تابع لوكالة الغوث يشهد ازدحاما طيلة الأسبوع وذلك لوجود حالات مرضية او حالات مراجعة فحص اعتيادى للأطفال ويعمل فى هذا المركز طاقم طبى ، طبيب عام وهو يداوم خمسة أيام أسبوعيا وطبيب أسنان حيث أدخلت وحدة أسنان حديثة وكاملة وهذه الوحدة تعمل السبت والخميس فضلا عن الأربعاء حيث يقوم الطبيب العام بجولات طبية تثقيفية على مدارس المخيم وهناك أيضا مختبر حديث وست ممرضات لهن خبرة طويلة .

ثانيا : مكتب الصحة العامة والعيادة الطبية : التى تستقبل ما يقارب ١٤٣٥ زيارة شهرية حتى عام ١٩٩٠ .

ثالثا : مركز لتوزيع المؤن والتغذية الاضافية : تقدر بـ (٨٤٥) وحدة كمساعدات تموينية ، وفى مركز التغذية الاضافى يوجد (٣٩٦) منتفعا .

الوضع الرياضى : يوجد فى المخيم مركز الشباب الاجتماعى ينتسب له ملات الأعضاء ويمارس فيه الشباب هواياتهم الرياضية والاجتماعية والثقافية ، وقد أغفلت سلطات الاحتلال هذا المركز عدة مرات بحجة انه يشكل خطرا أمنيا وبؤرة ثورية ضد الاحتلال الاسرائيلى .

المشكلات العامة :

أولا : مشكلة البناء : نتيجة لازدياد عدد السكان مع بقاء وحدة المساحة على حالها ، وتطور السكان الذين كانوا يكتفون فى بداية السبعينيات وقبلها فى الستينيات بغرفة أو غرفتين للأسرة ، أما فى هذه الفترة ومنذ حوالى عشر سنوات أخذ السكان فى التوسع الرأسى والأفقى الأمر الذى أدى الى زيادة عدد الأزقة فى المخيم .

ثانياً : أزمة المياه : هذه الأزمة كانت خانقة جداً فى بعض المناطق خاصة المرتفعة ، فقد غابت المياه نهائياً لمدة تزيد على شهرين متواصلين وعمد الكثيرون للتغلب على هذه الأزمة بشراء تنكات المياه بسعر خمسة دنانير للتنك الواحد فى عام ١٩٨٧ ونتيجة للأمطار وتحسن منسوب المياه فقد شهدت أزمة المياه انفراجاً واضحاً ، وقد قامت وكالة الغوث بوضع ثلاث مضخات تقوية فى المناطق المرتفعة فى المخيم ، الأمر الذى أدى الى تحسين وضع المياه خاصة فى الأماكن المرتفعة من المخيم .

المرحلة النضالية : تؤكد كافة المعطيات النضالية فى الوطن المحتل ان أبناء مخيم جنين لم يتخلوا البتة عن مسيرة نضال شعبهم الفلسطينى واسم مخيم جنين تردد كثيراً فى وسائل الاعلام الاسرائيلية والاجنبية وهى تنقل اخبار الانتفاضات الجماهيرية والعمليات الفدائية وأبناء مخيم جنين اسوة بباقى اخوتهم فى المخيمات الاخرى ، ويشكل وقود الثورة ولهيب استمراريتها ومن المخيم كما سنرى خرجت أغلب العمليات الاستشهادية لانتفاضة الأقصى ، وفقاً لما ذكر تقرير وزارة الخارجية الاسرائيلية ومثّل المخيم معقل حركة الجهاد الاسلامى تحديداً دوناً عن غيرها من باقى الفصائل المناضلة .

* * *

جنين : عاصمة المقاومة والاستشهاديين وشاهدة جديدة على همجية العدو

خاض ويخوض الكيان الصهيونى حرباً ضارية ضد الشعب الفلسطينى ، الا انه لم يستطع كسر ارادة الصمود او التحدى لديه بل انتقل مقاومو الشعب الفلسطينى من مرحلة الانتظار الى مرحلة الفعل ، وقد شكل صمود المجاهدين فى مخيم جنين علامة فارقة فى مرحلة الجهاد والمقاومة التى ينتهجها الشعب الفلسطينى وقواه المجاهدة .

فعلى الرغم من هول المجازر البشعة التى نفذها جنود الاحتلال فى حق أبناء الشعب الفلسطينى فى جنين ونابلس وبيت لحم ورام الله ، الا ان هذا العدو لم يستطع كسر ارادة الصمود والمقاومة ، وبالتالى لم يستطع وقف الهجمات الاستشهادية والعمليات النوعية فى عمق كيانه سواء فى حيفا أو فى القدس أو فى غزة والضفة .

وكل محتل غاصب ، يعيش على دماء الأبرياء ، ويصنع من مجازره جسراً للعبور الى نصر موهوم نفذ جيش الاحتلال مجازر عديدة فى مخيم جنين شكلت عنواناً جديداً اضافياً على بربريته ولا انسانية ولكن هذا الاجرام لم يفلح فى كسر ارادة الشعب المقاوم بل ان جيش العدو . حُشر فى جنين فى زاوية حجمه الطبيعى ، وتحطمت أسطورة جيشه الذى لا يقهر ، فقد تجندل جنود العدو صرعى بكمائن أبناء جنين ورصاصاتهم القليلة فأصبح مخيم جنين أسطورة

المقاومة ، ولعنة ستطارد المحتلين حتى يرحلوا عن أرضنا .

سيكتب التاريخ قصة بطولة جنين من نور ، وستتكشف عبر الأيام قصص مخبوءة ، ولم تعرف حتى الآن ، الا ان ما رشح من قصص البطولة والفداء يعطى عنواناً واضحاً ، لإرادة الصمود والتحدى القادرة على هزيمة الأعداء وإلحاق العار بهم .

وتنضح الصحف الصهيونية ببطولات المجاهدين ،والتى سنستعرض بعضاً منها هنا استناداً الى الملف المتميز الذى أعدته حركة الجهاد الاسلامى فى فلسطين عن هذه الملحمة :

* قالت اذاعة الاحتلال الصهيونى (٢٠٠٢/٤/١٠) : ان عدد الصامدين من المقاتلين فى مخيم جنين لا يتجاوز مئة شخص مسلحين بأسلحة فردية ، وعبوات متفجرة تزن الواحدة منهم مئة كيلو جرام.

واضافت الاذاعة الصهيونية على الرغم من ثمانية أيام من المعارك المتواصلة والقصف بالمروحيات والدبابات ، وهدم المنازل لم يتمكن الجيش الصهيونى من انهاء المقاومة فى المخيم والتى انحصرت فى مساحة بسيطة وسط المخيم ، وللعلم مساحته لا تتجاوز ٦٠٠ متر مربع (وفقاً للاذاعة الصهيونية) .

وقال قائد ما يسمى بالمنطقة الوسطى اللواء اسحاق ايتان (٢٠٠٢/٤/١٠) ان مئات الفلسطينيين يتحصنون فى مخيم جنين بقيادة كبار رجال الجهاد الاسلامى فى المنطقة محمود طوالبة ، وثابت مرداوى ، والشيخ على الصفورى ،.وأضاف ايتان.ان هذه قاعدة للمخربين الانتحاريين ، مضيفاً ان المخيم عاقد العزم على القتال حتى النهاية .

وكتب زئيف شيف الخبير الاستراتيجى فى صحيفة هاآرتس (٢٠٠٢/٤/١٠) من الواضح ان مخيم اللاجئين فى جنين يرى استعدادات كبيرة وشاملة عشية احتمال عودة الجيش الى نقطة المركز الصعبة للمسلحين الفلسطينيين فى المخيم وقد قرر مقاتلو منظمة الجهاد الاسلامى عدم الاستسلام والقتال حتى الرصاصة الأخيرة .

وصدق شيف القول لأن الشهيد محمود طوالبة (قائد سرايا القدس) قد استدرج جنود العدو الى منزله فى المخيم بتاريخ ٢٠٠٢/٤/٦م وعندما اقتحموا منزله فجره بهم ، مما أوقع العديد منهم بين قتيل وجريح ، وعمل بهم قتلاً قبل ان يستشهد بتاريخ ٢٠٠٢/٤/١٠م .

ومن حكايات البطولة أيضاً أن دبابة صهيونية تحصنت بجوار مسجد مخيم جنين الكبير وسيطرت على الساحة الرئيسية للمخيم ، وقتلت عدداً من الشهداء ، فتطوع مقاوم لاعطابها فدخل فى احدى فوهات " مواسير " التصريف الصحى ومعه المتفجرات ، ليخرج من الفوهة الاخرى القريبة من الدبابة ثم أشعل العبوة ، وأعطب الدبابة .

ويفيد المواطنون ان الجنود ظلوا موجودين فى الدبابة أكثر من ثلاث ساعات يخشون الخروج ،

وبعد مجيء دبابة اخرى لسحبها خرج جندى فرمى عليه مجاهد زجاجة حارقة . فأحرقه أمام الأعين قبل ان يطلق عليه جنود العدو النار ويردوه قتيلا .

ويروى أحد أبناء المخيم ان المقاومين قتلوا كولونيلا فى الجيش الصهيونى أمام منزل ماريا فى المخيم ، ويقول أيضا ان المقاومين حاصروه وأمطروه برصاصهم وتركوه صريعا ولم يجرؤ أحد من الجنود على حمله أو اسعافه ، بل بقى ما يقرب من ربع الساعة صريع الأرض ودمه ينزف برغم انه قائد الوحدة ، وتقول سيدة محاصرة انها كانت تسمع تذمر الصهاينة الذين تمركزوا على مدخل منزلها عندما كان يشتد رصاص المجاهدين ، وانهم كانوا يشتمون شارون كلما انفجرت عبوة بالقرب منهم .

ويؤكد المقاومون ان خسائر العدو كانت كبيرة جدا ولم تظهر كلها لوسائل الاعلام ، ففى اليوم الأول من الاجتياح أعطب المجاهدون ثلاث دبابات ، فأحرقوها بالكامل والجنود بداخلها . وكما قتل المجاهدون فى منطقة الجابريات ما يقرب من خمسة الى سبعة جنود الا ان العدو لم يعترف بذلك .

مجازر العدو فى جنين :

بدأت تتكشف بعض المعلومات عن المجازر الهمجية التى نفذها جيش العدو فى جنين ، ويحاول قادة العدو التخفيف من الآثار المروعة لتلك الجرائم التى ارتكبوها .

ويتلخص ذلك فى تصريحات تقدر عدد الشهداء الذين سقطوا بـ (٢٥٠) شهيدا مع ان العدد الحقيقى يفوق ذلك بكثير ، وقد نقلت وكالة (فرانس برس) تصريحا عن مسئول صهيونى كبير لم تذكر اسمه ان جيشه قتل نحو مئتين وخمسين فلسطينيا خلال المعارك الضارية التى خاضها المجاهدون ضد جيشه .

وعلى الرغم من هذا الاقرار الا انه نفى وقوع مجزرة ، ووصف ما حصل بأنه معركة قتل فيها ٢٣ جنديا اسرائيليا ، وفى وقت لاحق أعلن جيش الاحتلال فى بيان له ان مئات قتلوا وجرحوا خلال معارك جنين ، وقالت مساعدة الناطق باسم الجيش الجنرال رون كيتوى ان مئات عدة من الفلسطينيين قتلوا خلال المعارك فى مخيم جنين .

ويقول الصحفى الفرنسى بيار بارنسى (صحيفة لوماتينيه) والذى أمضى ٤٨ ساعة فى مخيم جنين انه شم رائحة جثث وأضاف ان جيش الاحتلال قام بدفن جث الشهداء فى حفرة فى الساحة المركزية للمخيم ، وردمها بالأسمنت ، وان وسط المخيم بات يشبه برلين علم ١٩٤٨ نظرا لحجم التدمير الفظيع ، وذكر أيضا انه شاهد أكواما من النفايات ظروفا صحية مريعة وأطفالا فى حالة يرثى لها ، ونساء يصرخن وهن يحملن أطفالهن لانهن لم يعدن قادرات على تنظيفهن بسبب عدم وجود ماء ، ونقص كبير فى الأغذية والحليب .

وتقول المواطنة أمانى (١٨ عاما) : فقدت كل أثر لعائلتى ، فقد دبت فوضى كبيرة ، وتعرض

منزلنا للقصف وكنا نهرب من مكان لآخر ، ولا أعرف ان كان أهلى أحياء أو أموات الا اننى خائفة جدا على أشقائى الذين ينشطون مع المقاومة .

وتقول فتحية عصفور : مرت عشرة أيام على أهلنا وهم محاصرون .. الاسرائيليون خربوا شوارعنا ودمروها ، وأجبروا أهالى المخيم على مغادرته .

وقال المواطن جمال الزبيدى انه عثر على جثث خمسة شهداء بدأت فى التحلل ، فالرائحة تنبعث منها ، والطيور تنهشها ، وأضاف ان الجثث متناثرة فى أزقة المخيم وتحت الأنقاض ، وأخرى تم جرفها مع الأنقاض ، بحيث أصبح من المستحيل التعرف على أصحابها ، وكما روى شهود عيان ان جنود العدو أعدموا الجريح أبو جندل (أحد المقاومين البارزين) وذلك بعد نفاد ذخيرته فى وسط ساحة المخيم .

هذا ويعتبر الحقد الصهيونى على جنين ومخيمها حقدًا من نوع خاص ، قد اعتبرت صحيفة معاريف الصهيونية (٢٠٠٢/٤/١٥) ان جنين تحولت الى المكان الأخطر على أمن الكيان الصهيونى بسبب قربها من خط الحدود القريب من بقية المدن الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٤٨ بالاضافة الى نجاح حركة الجهاد الاسلامى فى تحويل المنطقة الى قاعدة قوية لها ، وأضافت الصحيفة ان الجهاد الاسلامى نجح بسهولة فى تجنيد أعدادٍ كبيرة من الاستشهاديين والناشطين العسكريين فى منطقة شمال الضفة الغربية وخاصة مخيم جنين وبلدة قباطيا اللتين تحولتا الى معقلين كبيرين للجهاد الاسلامى .

وعقب العملية الاستشهادية التى نفذها الاستشهادى محمود نصر ابن سرايا القدس فى كريات موتسكين فى حيفا (٢٠٠١/٨/١١) وصفت صحيفة معاريف الصهيونية مدينة جنين بأنها مدينة من أسمتهم بالانتحاريين .

يذكر ان أكثر من عشرين استشهاديا من مخيم جنين نفذوا عمليات استشهادية غالبيتهم من سرايا القدس الجناح العسكرى لحركة الجهاد الاسلامى ليس آخرهم الاستشهادى راغب أحمد عزت جرادات ، من سيلة الحارثية بمنطقة جنين ، والذى نفذ عملية استشهادية فى حيفا صباح ٢٠٠٢/٤/١٠ وأسفرت عن مقتل واصابة ثلاثين صهيونيا معظمهم من الجنود .

* * *

ومع ظهور أول خيوط فجر التاسع والعشرين من شهر آذار / مارسْ الماضى ، بدأ الكيان الصهيونى أولى مراحل حرب واسعة وشاملة على الشعب الفلسطينى فى الضفة والقطاع ، فى العملية العسكرية التى طالما لوح بها كضربة قاصمة فى مواجهة الانتفاضة المتواصلة منذ الثامن والعشرين من سبتمبر ٢٠٠٠ .

فحين تقدمت الساعات فى صباح ذلك اليوم ، تأكد ان مختلف قدرات التجمع الصهيونى

ومؤسسته العسكرية بقوات احتياطها ، قد جيشت كلها فى الحملة التى أطلق عليها العدو الصهيونى اسم " السور الواقى " لتكون الحملة الأوسع والأكبر منذ عام ١٩٦٧ .

وكان هديد أرتال مئات الدبابات وطائرات اف ١٦ والكوبرا والأباتشى وهى تتوغل فى أرض وسماء الضفة الغربية وتطلق النار على كل ما يتحرك وتخلف الدمار والدم فى كل مكان ، يحمل فى ثناياه تأكيدا على سعى الكيان الصهيونى الى استعادة أجواء النكبات الفلسطينية منذ عام ١٩٤٨ ، بما كانت عليه من نتائج وتحولات ، الى درجة ان مصادر فى الحكومة الصهيونية اعتبرت الحملة حرب تحرير اسرائيلية جديدة .

ومنذ اللحظات الأولى كان الهدف الميدانى للحملة العسكرية الصهيونية واضحا : سحق الانتفاضة تماما عبر تدمير وتفكيك كل بناها وقواها المحركة والمقاتلة ممثلة بتشكيلات الأجنحة العسكرية الاسلامية والوطنية وقواعد تمركز ومواقع التحكم والسيطرة فى هذه البنى للوصول الى تحطيم جسمها المقاتل وشل قدرته على استخدام ذراعه الأقوى : العمليات الاستشهادية ، وذلك من خلال التصفية والاعتقال والتدمير ، تحت عنوان ميدانى أساسى هو تحويل مدن وقرى ومخيمات الضفة الغربية الى ساحة من الحرائق ومعسكر اعتقال كبير .

* * *

هذا وتذكر المعلومات والوثائق المتاحة انه قد نشأ فى الأيام الأولى من الاجتياح ، اعتقاد لدى قادة المؤسسة العسكرية الصهيونية أن المهمة قد تكون سهلة ، وقد اعتبر العدو ان توغلاته الدراماتيكية ، والتى تتسم بالمباغتة والحشد العسكرى الهائل ، فى رام الله وبيت لحم وقلقيلية ونابلس ، يمكن ان تتحقق أيضا ، وبالطريقة ذاتها فى جميع المناطق الأخرى ، فاذا كان الاجتياح قد تمكن من المدن الرئيسية ، فإن البؤر لن تشكل صعوبات أكبر .

والى ذلك كان الصهاينة قد سلحوا أنفسهم بترسانة من الأوهام عن امكان كسر ارادة القتال الفلسطينية ، فالاعتقالات التى شملت الآلاف وأجواء الرعب والقتل العشوائى ، وعمليات التدمير المنظم والحصار والتجويع والارهاب جعلتهم يعتقدون أن القبضة العسكرية الصهيونية على وشك ان تحكم سيطرتها وتحقق أهدافها فى أقرب وقت وبأقل الخسائر ، وظلت هذه التصورات تدور فى رؤوس قادة العدو الى ان اتجهت أرتال الدبابات وأسراب الطائرات نحو جنين وباتجاه مخيمها الذى وصفه شارون بأنه بؤرة الانتحاريين وهناك كانت المفاجأة فى انتظارهم .

كانت توقعات الصهاينة للمعركة فى المخيم بعيدة الى أقصى مدى عما واجهوه فيه ، ولقد تملك بعض قادتهم شىء من الخوف قبل بدء المواجهة فقد ذكر هؤلاء المحاولة الاسرائيلية لاقتحام جنين ومخيمها قبل شهر فى مطلع مارس الماضى ، فعلى الرغم من ان العملية كانت محدودة

الا ان الجنرالات الصهاينة تحدثوا آنذاك عن مؤشرات خطيرة ميدانيا لمسوها فى الاشتباكات المحدودة التى خاضوها مع المجاهدين والمقاتلين فى المخيم ، فضلا عن قلقهم من طبيعة الامتداد والتكوين العمرانى فى المخيم والتى تشل حركة الآليات والدبابات الاسرائيلية او تقلل من دورها فى أدنى الأحوال .

ومع ذلك فإن الاستخفاف الصهيونى ظل قائما وخاصة مع مظاهر الاحساس بقوة الترسانة العسكرية الصهيونية التى كانت تحرق الشجر والحجر وتقتل المدنيين العزل فى كل أنحاء الضفة الغربية المحتلة .

لقد كانت تلك بالتأكيد أكثر القراءات العسكرية الاسرائيلية خطأ فى مختلف فصول الاجتياح الأخير ، ولعل ما زاد من جسامة هذا الخطأ الفادح فى تقدير حجم المعركة ، حال التأهب والاستعداد الشامل للمعركة فى المخيم الذى قال لجيش الصهاينة (ان استشهاديينا بانتظاركم ليجعلوا من المواجهة سلسلة من العمليات الاستشهادية) ، والمميز فى هذا السياق ان هذا الاستعداد لم يقتصر على المجاهدين والمقاتلين وحدهم فى المخيم ، فالأخوة فى قلب المخيم كانوا يؤكدون ان كل عائلات وأفراد المخيم نساء وشيوخا وأطفالا كانوا يعتبرون أنفسهم جنودا فى معركة لا هزيمة فيها ولا تراجع ولا خروج ، وأن نهاية المطاف هى الشهادة ، أيا كانت حدود الهجمة العسكرية الصهيونية ، ولذلك فإن جميع أبناء المخيم كانوا مع مجاهديه ومقاتليه فى اعداد المتاريس وإطعام المقاتلين والمساعدة فى سد الطرقات الضيقة واخلاء البيوت التى سيقاتل من خلالها المجاهدون لامتصاص صدمة الهجوم الأول ، حتى ان النساء اشتركن فى طبخ المتفجرات فى الأوانى كأنهن يجهزن العجين لكعك العيد ، ولقد كان صمود المخيم وقتاله البطولى عيدا حقيقيا أهدته فلسطين للأمة .

المخيم فى قلب المعركة :

فى الساعة الرابعة من فجر الثالث من ابريل ، بدأت القوات المدرعة الاسرائيلية فى التقدم نحو مخيم جنين تحت غطاء كثيف من الطائرات الحربية والمروحية من طراز اف ١٦ وأباتشى وكوبرا ، وقد قامت مئات الدبابات بالتقدم نحو المخيم من ثلاث جهات ، وبدأت مع سلاح الجو بإمطار المخيم بوابل كثيف من القذائف والصواريخ مستهدفة مختلف مناطقه بشكل عشوائى .

كان الاعتقاد السائد لدى قادة الهجوم الصهيونى على المخيم ان الضربة الأولى يجب ان تكون قاسية وعنيفة وساحقة ، بحيث تؤدى الى انهيار المقاومة بشكل متسارع ، وقد نقلت مصادر صحفية صهيونية ان قائد الهجوم الصهيونى اكد لرئيس أركانه الجنرال موفاز ، ان العملية لن تستغرق أكثر من يومين لانهاء جميع مراحلها .

لكن الجيش الصهيونى ، فوجئ منذ اللحظة الأولى بمقاومة عنيفة وبطولية لم تخطر لقادته على بال

، وما لبث هذا الجيش ان بدأ يحصى قتلاه فى مواجهة استبسال المجاهدين فى معركة الدفاع عن المخيم التى قادها الشيخ المجاهد محمود طوالبة قائد سرايا القدس فى منطقة جنين .

لقد بدا المخيم الذى لا تبلغ مساحته أكثر من كيلو متر مربع جبهة نار استشهادية فلسطينية مترامية الأطراف وفشلت محاولة الاجتياح الأولى فشلا كبيرا ، وأصيب قادة الهجوم الصهيونى بالصدمة وهم يشاهدون جنودهم يفرون من أرض المعركة ، فيما تمكن المقاومون من استدراج عدد من الدبابات الى عبوات ناسفة زرعت فى الطريق المؤدي الى المخيم حيث اعترف العدو بتدمير ثلاث منها ، وفى غضون يومين ودون خسائر تذكر تمكن المجاهدون من صد ست محاولات اسرائيلية لاجتياح مخيم جنين واحتلاله ، وقد بدأ العدوعندئذ يشعر بحجم المأزق الذى وضع نفسه فيه فى مواجهة مخيم صغير جعل جنوده يتصرفون كالجبناء فى مجابهة أفراد لا يملكون الا بنادق فردية قليلة وكميات قليلة من المتفجرات من تصنيع يدوى .

وجاء اليوم الثالث ، وصمود مخيم جنين يزداد صلابة ، فاتجه الصهاينة الى تغيير التكتيك العسكرى للهجوم ، وكانت الخطة ان يتم التقدم بحذر مع تعزيز القوات المهاجمة بقوات من الاحتياط وتدعيم وحدات الهندسة وقوات المشاة الميكانيكية والتحرك فى الهجوم تحت ستار القصف الجوى والمدفعى الكثيف ، وبهدف التقليل من خسائر الجيش الصهيونى فى الأرواح ، لجأت القوات الصهيونية المهاجمة الى تجنب التقدم عبر الأزقة واتباع أسلوب اختراق الجدران بتفجيرها والانتقال من بيت الى بيت بهذه الطريقة ، الا ان الصهاينة جوبهوا مرة اخرى بمقاومة مستميتة قال عنها قائد قوات الهجوم الاسرائيلى (انها مقاومة لم نعرف لها مثيلا فى كل حروب اسرائيل .. لقد استعدوا جيدا ويقاتلون بمعنويات عالية جدا) .

تراجع العدو مرة اخرى وتكبد مزيدا من الخسائر وارتفعت صيحات جرحاه من كل مكان مر فيه جنوده وحوصر جنود آخرون ، وفى ذلك اليوم أيضا أكدت الأنباء من داخل المخيم الهجوم على عدد من الجنود وقتلهم وانتزاع أسلحتهم من فلسطينيين أعلنوا أنهم سيواصلون القتال حتى الشهادة .

وبقدوم اليوم الرابع لمحاولات الاجتياح الاسرائيلى لمخيم جنين ، بدا واضحا ان الكيان الصهيونى أصبح منشغلا عن كل تفاصيل اجتياحه الواسع للضفة ، بالعقدة الرهيبة التى يمثلها مخيم جنين وسارعت قيادة أركان الجيش الصهيونى الى تدارس الوضع العسكرى ، فاستقدمت قوات اضافية كبيرة ، وقامت باعادة النظر فى خطتها العسكرية ، فقررت القيام بما سمى بـ " حلاقة " البيوت أى شق طرقات عريضة لتحرك الدبابات عبر القيام بعملية نسف وتدمير منظم لمعظم بيوت المخيم المكتظة ، وأن يتم ذلك بالتوازى مع استراتيجية الدك الشامل بقذائف الدبابات وصواريخ الطائرات ، لأى موقع أو بيت تنطلق منه رصاصة واحدة او يمكن ان تشكل جدرانه ملاذا ومتاريس للمقاومين .

وبدأت هذه الخطة الصهيونية تتبدى على أرض المواجهة فى اليوم التالى .. عشرات آلاف القذائف والصواريخ انهالت على المخيم المقاتل لتنشر الدمار والحرائق فى كل مكان وتهدم البيوت على رؤوس المواطنين العزل ، وهذا يظهر حقدا دمويا ممزوجا بالخوف وسارت الدبابات خلف البلدوزرات التى تشق لها الطريق بتدمير المنازل ودفن ساكنيها تحت أنقاضها ، أما جنود الدبابات فقد اختفوا فى أبراجها المصفحة لأن الأوامر كانت عدم مغادرة الدبابات والقتال من داخلها الى ان يصبح خطر المقاومين محدودا .

وبدا للجيش الصهيونى ان الخطة تحقق نتائجها المرجوة لكن التاسع من نيسان كان يوما مشهودا للمجاهدين فى المخيم ، وقد جاء ليسقط أوهام الجيش الصهيونى ويوقعه فى العجز القاتل من جديد ، ففى صبيحة ذلك اليوم ، وحين غادر جنود المشاة الميكانيكية دباباتهم تقدموا ليقوموا بعمليات تطهير للأحياء والبيوت المتبقية من المخيم ، ظهر لهم الاستشهاديون وانفجرت بهم العبوات الناسفة التى فاجأتهم من كل مكان حولهم ، فقد وقع الجنود الصهاينة فى عدد من الكمائن القاتلة أعدها لهم المجاهدون بقيادة الشهيد القائد محمود طوالبة قائد سرايا القدس فى مخيم جنين ، فقتل فى موقعة واحدة أكثر من خمسة عشر جنديا صهيونيا ، وأصيب العشرات وفقا لاعترافات العدو ، وفى تفاصيل المعركة ان فصيلة من القوات الاسرائيلية المهاجمة حاول أفرادها التوغل فى أحد أحياء المخيم بالقرب من ساحته ، فاستدرجهم المجاهدون الى احد المنازل الذى تم تفخيخه بالعبوات الناسفة ، وعندما أصبحوا فى مركز الكمين وتحت مرمى النيران ، قام المجاهدون بتفجير العبوات ثم أمطروا الجنود الصهاينة بوابل من نيران القنابل اليدوية والأسلحة الفردية الرشاشة .

وفى التوقيت ذاته ، كانت مجموعات من المجاهدين تفاجئ قوات اخرى فى كمين آخر ، أسفر عن سقوط العديد من القتلى والجرحى الصهاينة الذين سقطوا على أطراف الأزقة يطلقون صيحات الاستغاثة ، الامر الذى دفع قيادة العملية العسكرية الصهيونية الى طلب هدنة كى تتمكن من اخلاء الجنود الجرحى من مواقع الكمائن والمواجهات .

وقال جنود صهاينة عن المخيم المفخخ بالعبوات الناسفة ان المقاتلين الفلسطينيين حولوا المخيم الى حقل للموت .. لقد فخخوا كل شىء .. الحاويات وأغطية المجارى ، والأبواب والسيارات المتوقفة فى الطرقات وعلقوا العبوات على أغصان الشجر والحيطان والحجارة .

وقد أصيب الجيش الصهيونى بالذهول نظرا لحجم خسائره وبسبب الصمود البطولى وارادة القتال والكفاءة القتالية النادرة التى أبداها المجاهدون الفلسطينيون الذين ظلوا حتى اللحظات الأخيرة بمعنويات عالية على الرغم من الحصار وقلة الذخيرة ونفاد المؤن ، فى حين تراجعت معنويات الجنود الصهاينة الى الحضيض وشوهدوا وهم يولون الادبار ، وبكى بعضهم قائلا انه (لا يريد الاستمرار فى هذه الحرب التى لا تحمل لهم الا الموت) .

وفى صورة اخرى من المواجهة البطولية ، وفى المجاهدون بوعيدهم لقوات العدو بتحويل المعركة الى سلسلة من العمليات الاستشهادية ، فمعظمهم كان يتزنر بحزام ناسف واستطاع بعضهم اختراق صفوف العدو والالتحام بجنوده وتفجير أنفسهم بينهم ، وقال الميجر اسحاق ايتان رئيس المنطقة المركزية ان مهاجما فلسطينيا استشهاديا شارك فى الكمين الذى قتل فيه خمسة عشر جنديا صهيونيا .

* * *

بقدر ما زرع صمود مخيم جنين وبسالة سرايا مجاهديه الخوف والرعب فى قلوب الصهاينة ، فإنه أظهر مدى الحقد الذى أخذ يمتلك جنرالات العدو نتيجة مرور سبعة أيام من الهزائم الصهيونية المتتالية التى حققتها قلعة جنين الصغيرة ضد قواتهم ووضعتهم وجها لوجه أمام عجز لم يتصوروه واندحار حطم هيبة الجيش الصهيونى وقدرة آلته العسكرية .

وأمام الهزائم المتكررة اندلع فيضان الحقد الجبان ، فالقوات الصهيونية المهاجمة باتت تعرف أنها لن تستطيع اجتياح المخيم بمواجهة حقيقية على طريقة الجيوش ذات الشرف العسكرى ، لأن ذلك سيعرضها الى خسائر فادحة ، لذلك اتخذت قيادة الأركان قرارا بمسح المخيم عن وجه الأرض بقصفه عن بعد جوا وبرا بغية القضاء على المقاومة ، وبالتوازى مع ذلك أقدم رئيس أركان الكيان الصهيونى على تغيير قائد القوات المهاجمة للمرة الثانية مقررا أن يتولى العمليات بنفسه ، ومؤكدا ومصرحا لسيناريو الاجتياح ان قواته ستقوم باقتحام المخيم حتى لو تطلب ذلك مسحه عن وجه الأرض وتدميره بالكامل على رؤوس من فيه .

وبدأت العملية من جديد فى العاشر من أبريل ، وانطلقت عمليات القصف والتفجير واستخدام الجرافات فى محاولة لتسوية المخيم بالكامل بوجه الأرض ، وكانت الأباتشى والكوبرا تحوم بكثافة فوق المخيم وتطلق صواريخها على كل ما يتحرك ، في حين لجأ مشاة العدو لتأمين تقدمهم على الأرض ، باستخدام المواطنين العزل كدروع بشرية ، وتم دفع الأهالى للسير أمام الدبابات ، فيما كان الجنود ينفذون اقتحامات حذرة لبيوت الفلسطينيين فى المخيم ويعمدون الى تدمير الجدران كوسيلة للانتقال من مكان الى آخر .

ووقت أن كان القصف الصهيونى يحول المنطقة الى ركام وجحيم ، كان القائد الشهيد محمود طوالبة مع عشرات المجاهدين من سرايا القدس على خط المواجهة ، اشتبكوا فى معركة قاسية مع قوات العدو وأظهروا بطولات نادرة جعلت القوات الصهيونية المهاجمة تتراجع وهى تحمل جرحاها بالعشرات وفقا لما أكده شهود عيان من المخيم .

وقد ذكرت اذاعة جيش العدو ان المعارك العنيفة تواصلت وأن مئة مقاتل فلسطينى مسلح بقيادة مسئولين محليين من الجهاد الاسلامى متحصنون فى المخيم ، وأضافت ان مسئولى سرايا القدس اللذين يتوليان قيادة المقاتلين هما محمود طوالبة وعلى صفورى .

ولم تحاول القوات المهاجمة اعادة الكرة ، فاستنجدت بمدافع الدبابات وبطائرات الأباتشى التى صبت صواريخها وقذائفها على أماكن تمركز المجاهدين الأبطال ، مما أسفر عن استشهاد القائد المجاهد الشيخ محمود طوالبة مع العديد من اخوته بعد مقاومة أسطورية جعلت وسائل الاعلام الصهيونية والغربية تسمى الشهيد طوالبة بالجنرال .

وقد اعترف الجيش بأن هؤلاء المقاومين كانوا ينتقلون ببراعة فائقة من الدفاع الى الهجوم ويخلون منطقة وسرعان ما يعودون للسيطرة عليها بحيث لم يكن من الممكن الحديث عن سيطرة صهيونية على موقع محدد حتى اليوم التاسع من المعركة عندما وصلت الدبابات الاسرائيلية الى ساحة المخيم بعد أن سوت جميع الأحياء والمنازل التى فى طريقها بوجه الأرض،وكان الجنود لايغادرون الدبابات الا حين يجدون مواطنين يستخدمونهم دروعا بشرية . فى تلك المرحلة من المعركة كان التدمير والابادة الجماعية هما هدف العملية العسكرية الصهيونية وسيناريو تحركها فى المخيم ، ولإكثار حصيلة القتل استمر العدو فى منع طواقم الاسعاف من الوصول الى المخيم لإنقاذ الجرحى والمصابين من مدنيين وعسكريين فلسطينيين وتركوا حتى الموت فى الشوارع ، كما تعالت أصوات مكبرات الصوت الصهيونية التى راحت تطلب من السكان اخلاء المنازل والتجمع فى الساحة وكانت تردد بين حين وآخر عبارة " اسرائيل أقوى منكم فاستسلموا " .

لكن المعركة لم تنته هنا ولم يستسلم المقاتلون رغم نفاد المؤن واقتراب الذخيرة من نهايتها ، ففى اليوم التالى ١١ أبريل ، أكد المجاهدون انهم لايزالون يقاتلون ويتنقلون من منطقة الى اخرى وان نطاق وجودهم أصبح فى الجزء الأعلى من المخيم ، وكان هذا التأكيد على الرغم من الاعلانات الاسرائيلية المتكررة منذ بدء العملية بأنها سيطرت على المخيم بشكل كامل .

من بين الأنقاض ظهر المجاهدون مجددا ، وبما يشبه المعجزة واصلوا قتالهم ببسالة لم يسبق لها مثيل ، الا ان حوصروا فى مبنيين من قبل مئات من الجنود الاسرائيليين من وحدات النخبة والعشرات من الدبابات وطائرات الكوبرا والأباتشى من الجو ، وحتى الساعات الأخيرة من يوم ١١ أبريل كان المجاهدون داخل المخيم يؤكدون انهم لم يستسلموا ، لكن ذخيرتهم نفدت وبالرغم من ذلك فإن التقارير كانت تؤكد ان شاؤول موفاز وبن اليعازر كانا يجدان صعوبة فى إقناع جنودهما بالتحرك داخل مخيم مدمر ، وفى اليوم التالى الثانى عشر من أبريل وقعت مجموعة المقاتلين الأخيرة التى تضم ٢٧ مقاتلا فى أسر القوات الصهيونية بعد أسطورة صمود واستشهاد عز نظيرها ، وكبدت العدو خسائر موجعة لم يعترف منها الا بثلاثين جنديا قتيلا وعشرات الجرحى .

* * *

أذهل صمود مجاهدى مخيم جنين جنرالات العدو وجنودهم ، فقد قال قائد لواء المظليين الذى تولى غزو المنطقة " لقد قاتل هؤلاء الرجال بشكل لم يخطر على بال أحد من صناع القرار فى اسرائيل " مضيفا أنهم قاتلوا حتى الموت ، ونقلت مصادر صحفية اسرائيلية ان التساؤل الذى يدور فى صفوف الجيش الاسرائيلى بعد المعركة هو من أية عجينة هؤلاء الفلسطينيون ، وعبر عدد من الجنود الصهاينة عن سعادتهم الكبرى بخروجهم أحياء من جحيم مخيم جنين ، ولا يستطيع الصهاينة تفسير ظاهرة الصمود الفلسطينى فى المخيم والدفاع عنه حتى الشهادة ، خاصة وأن المعركة معروفة النتائج بحسابات القوة التقليدية ، ولذلك فهم يتساءلون أيضا : ما الذى أراده هؤلاء المقاتلون مادموا لم يكونوا قادرين على تحقيق النصر الذى هو فى رأيهم هدف أى مقاتل ، فى حين أنهم يرون أن الشهادة لا يمكن ان تكون هدفا فى حد ذاتها .

وقد شحذ الصهاينة عقولهم فى البحث عن تسمية أو تشبيه لما حدث ، فقال قائد قوات الاحتلال الصهيونى فى منطقة جنين الرائد إيال شلاين : " توقعنا كل شىء من الفلسطينيين ودرسنا كل الاحتمالات وأعددنا أنفسنا لكل أشكال المقاومة الفلسطينية قبل ان نقدم على دخول هذا المخيم ، ولكن على الرغم من ذلك فوجئنا وجوبهنا بمقاومة لم نعرف مثيلا لها فى كل حروب اسرائيل . لقد قاتلونا كالأسود " .

أما التشبيه الأكثر التصاقا بالعقلية اليهودية ومخاوفها على مستقبل وجود اسرائيل ، فهو وصفهم مخيم جنين بأنه (ماتسادا فلسطينية) فى إشارة الى الماتسادا اليهودية أى القلعة التى كانت مقامة على تخوم البحر الميت والتى تقول الرواية اليهودية أنها حوصرت ورفضت ان تستسلم لغزاتها الرومان وفضلت ان يقتل أبناؤها بعضهم بعض حتى لا تقع فى الأسر والاحتلال .

لكن ما لا تفهمه العقلية اليهودية - الصهيونية ان صمود مخيم جنين وسواه فى التاريخ الفلسطينى الذى يضيئه صمود القسام فى يعبد وإيثاره الشهادة على الاستسلام ، هذا الصمود لا تسجله الذاكرة الفلسطينية والارادة المنتمية لعقيدة الاسلام ، بوصفه حالة انتحار وخروج من التاريخ . وبهذا المعنى فإن مخيم جنين وصموده هو ملحمة فداء ستكون فاتحة اخرى نحو ملاحم استشهاد تقود موكب شعب فلسطين الى النصر تحت ظلال الشهادة ، فالشهادة هى حياة فى عقيدة هذه الأمة وفى روح ووجدان المجاهدين الذين وقفوا يسدون بأجسادهم المعابر أمام الترسانة الصهيونية .

هكذا جسد القائد الشيخ طوالبة هذه المعادلة ، وعلى هذا النحو فسر دمه المعنى الذى لم يفهمه جنود الاحتلال المهاجمون لمخيم جنين فتساءلوا عن قيمة القتال ان لم يكن هناك نصر ، فالشهادة كما رآها محمود واخوته هى نصر مبين لأنها فى أرفع درجات الفوز العظيم الذى وعد الله سبحانه وتعالى الشهداء .

والشهادة أيضا من أبهى صور العطاء فى المقاومة وكى تستمر المقاومة حتى تحرير الأرض والمقدسات ، وعلى هذه المنارة من الرؤيا يقبع سر صمود مخيم جنين ، وفى تلك الأرواح الشهيدة تتحقق ملحمته ورؤياه الأوسع التى يختصرها قول محمود طوالبة لإخوته فى آخر اتصال معهم خارج فلسطين : اخوتى الى اللقاء فى الجنة ان شاء الله .

(من الملف الذى أعدته حركة الجهاد الاسلامى نقلا عن مقال للكاتب ماهر عبد الرحمن)

* * *

صور عن الصمود والمقاومة

لم يعد مخيم جنين مجرد رمز للمقاومة أو عاصمة للاستشهاديين بل دخل التاريخ من أوسع أبوابه لأن قصة صموده وبطولة مقاتليه دفعت العديد الى قراءة ما حدث هناك وخاصة مع سماعهم عن اختلال موزاين القوى وحجم الخسائر وشراسة المعركة وعنفوانها وقصة الخدع والاشراك التى نفذها مقاتلو المخيم وفى النهاية قصة كل الشهداء الذين قاتلوا حتى الرمق الأخير ٠

وفى وسط حارة الحواشين أو الساحة كما يطلق عليها وهى المنطقة التى شهدت القسم الأكبر من التدمير ترتفع شاهقة راية سوداء عليها شعار (الجهاد الاسلامى) ، وهى الحركة التى ارتفع لها فى المعركة عددا من الشهداء من بينهم قادة تتهمهم اسرائيل بالوقوف وراء عمليات قتل فيها العشرات من الاسرائيليين ٠

* * *

فى مدخل المخيم قطع كثيرة من دبابات الميركافا الاسرائيلية وجنازيرها الثقيلة وهى جزء من خسائر الجيش الصهيونى وضعها بعض الشبان بعد تجميعها كما تنتشر فى مناطق اخرى بالمخيم قطع من هذه الدبابات بعضها فى حارة الحواشين وقرب مسجد الأنصار ، ولا يتردد الاطفال وتلاميذ المخيم الذين عاصروا شراسة القتال من التلذذ فى أن يدوسوا على هذه المخلفات الصهيونية بأقدامهم ، هنا فجروا دبابة وهذا باب خلفى لها وبقيتها سحبه الجنود بواسطة البلدوزرات الضخمة ، هكذا قال ابراهيم ١٠ أعوام ٠

لا تتوقف القصص والحكايات عند حد معين ففى كل زاوية وممر قصة ، وتحت كل منزل مهدم وركام منثور بطولة شهيد ٠٠ هنا استشهد طه الزبيدى وهنا استشهد شادى النوبانى وهنا استشهد الشيخ رياض بدير ، وهنا محمود ومحمد وغيرهم من المقاتلين الأبطال٠

فى احدى قرى المخيم مازال الدم شاهدا ٠٠ وبقايا من شعر مازال ملتصقا بالجدران ٠٠ وسبب ذلك انفجار صاروخين اطلقا من طائرة أباتشى عبر النافذة ، ليستشهد على الفور خمسة شهداء ٠ ويبقوا على حالهم عدة أيام ٠

الشهيد على نائل قصقص ٥١ عاما ليس من المقاتلين او المسلحين ، وكان ذنبه الوحيد انه خرج من منزله الى الباحة ليتوضأ ٠٠ لكن رصاصات القناصة لم تمهله طويلا لأداء صلاة الظهر ٠٠ نادى عليه أبناؤه من الداخل ٠٠ لكنه كان صامتا خاشعا قرب برميل من الماء ٠

يقول أحد أبنائه : كان ذلك يوم السبت ٤/٦ بعد عدة أيام من الحملة الاسرائيلية الهمجية ٠٠ حيث اطلاق الرصاص والقنابل والصواريخ ، وقد خرج والدى الى الباحة ليتوضأ وقد اجتاز لهذا الغرض المسافة التى تقل عن سبعة أمتار بسرعة ٠٠ لكن يبدو ان الرصاصة كانت أسرع

.. فقد سمعنا سوى اطلاق رصاص من قبل قناصة تواجدوا على منزل مقابل وعندها أخذنا ننادى عليه حتى نعلم وضعه لكنه كان صامتا .. وعندما حاولنا الخروج أطلقت علينا النار ، وعندما حاول جارنا أبو خالد القدوم الى المنزل أصيب فى بطنه .. واضطررنا نحن فى النهاية الى الخروج من المنزل من الجهة الخلفية باتجاه منزل للأقرباء .. وبقى والدى مكانه أكثر من ثمانية أيام ، وكان قد أصيب بثلاثة رصاصات إحداها فى رأسه .

لم تكن عائلة الشهيد قصقص المكونة من تسعة أفراد هى الوحيدة التى تشاهد مقتل رب الأسرة بدم بارد .. فالعديد من الجرحى قضوا وهم ينزفون اياما .. وكل الشهداء احتضنتهم الأرض طويلا دون مراسم دفن من الأهل والسكان .

ولا يخفى سكان المخيم حزنهم على فقدان عدد من قادة المقاتلين خلال المعركة خاصة لما كانوا يتميزون به من عطاء وكرم وشجاعة وطهارة ، فأبو جندل الذى كان يصدح بصوته عبر فضائية الجزيرة ليوزع الأمل على الملايين لم يكن يبحث عن شئ سوى هؤلاء الذئاب الذين افترسوا المخيم غدرا وظلما ، وحتى يوم استشهاده واعدامه لم يكن يعرف الكثير من البشر اسم ذلك الشهيد .

كان أبو جندل يوسف فريحات – كما يقول احد قادة المقاومة فى المخيم – رمزا للجميع فقد كان يعمل فى الأمن الوطنى لكن علاقاته مع المقاتلين من حماس والجهاد الاسلامى وكتائب شهداء الأقصى كانت مميزة ، وكان دائما برفقتهم فى الأزقة والحوارى .

كما سقط فى المخيم محمد النورسى وهو مسئول الوحدات الخاصة فى جهاز المخابرات العامة واعتبر الكثير فقدانه خسارة كبيرة للمقاومة والمخيم على السواء .

* * *

أما مهندس الموت كما يصفه الاسرائيليون والذى نجا عدة مرات من محاولات اغتياله كان آخرها عندما قصف السجن الذى يحتجز فيه فى نابلس .. فهو محمود طوالبة قائد سرايا القدس الجهاز العسكرى لحركة الجهاد الاسلامى .

قال زياد (٢٨ سنة) من المخيم وأحد المقاومين : لقد كان محمود مقاتلا شرسا يبحث عن الجنود فى المنازل ، يلاحقهم من بيت الى آخر ويوقع بهم الاصابات ، وبقى يقاتل حتى نفدت ذخيرته ثم هدمت الجرافات المنزل عليه ولم يعثر على جثته حتى الآن سوى بعض أشلاء .. قال البعض انها لمحمود ، لكن والدته لم تقتنع بالأمر .

كان محمود طوالبة مسئولا – حسب زعم الاسرائيليين – عن ارسال ما لا يقل عن ١٢ قنبلة بشرية الى داخل اسرائيل من بينهم شقيقه الصغير ، وفى ذمته كما يقول اعداؤه العشرات من القتلى والمئات من الجرحى .

يقول الشيخ بسام السعدى ٤٣ عاما أحد قادة الجهاد الاسلامى ومن سكان المخيم لقد أدينا واجبنا على أكمل وجه والجهاد شارك بثلاثة أجنحة عسكرية يقودها كل من ثابت مرداوى ونجح الاحتلال فى اعتقاله ، والشيخ رياض بدير ٥٦ عاما من طولكرم والذى عثرنا على جثته بعد عشرة أيام وكان ملتحما بسلاحه ومصحفه ، ومحمود طوالبة الذى استشهد تحت الأنقاض ولم نعثر الا على بقايا أشلائه .

ويضيف السعدى الذى كان يتواجد مع عدد من رفاقه فى منزل بسيط من المنازل التى بقيت من المخيم : لقد استعد المجاهدون للمعركة جيدا ، واكتسبوا خبرات نتيجة العمليات والاجتياحات الاسرائيلية السابقة ، وهو ما مكنهم فى هذه المرة من تنظيم صفوفهم ، واعداد الاشراك والخدع للجنود وملاحقتهم وايقاع الخسائر بهم ، وكان الشىء الأساسى الذى مكن المقاومة من الصمود هو حالة التلاحم والوحدة والقسم المشترك بين الجميع علي الاستشهاد مقاتلين .

وكان الجيش فى بداية عمليته العسكرية قد حاصر منزل السعدى مطالبا اياه بالاستسلام قبل قصفه ، لكن ذلك القائد الذى يعتبر نفسه مسئولا سياسيا قال : نادوا على عبر مكبرات الصوت مطالبين بالاستسلام لكنى لم أكن موجودا ، ثم قاموا بإحراق المنزل وقصفه .

* * *

ويشير السعدى الى انه كان يتجول فى المخيم ليرفع من معنويات المقاتلين ويطلع على أحوالهم ويشحذ هممهم ، ويحثهم على الصمود والمواجهة وتلقين العدو درسا لا ينساه .

وفيما يتعلق بالخطط والاستعدادات العسكرية التى جهزها أفراد المقاومة فى المخيم قال السعدى : كنا نتوقع اجتياحا اسرائيليا ضخما نظرا للحشود حول المخيم ، لكننا لم نكن نتوقع ان يكون بهذا الحجم ،وقد جهز المقاومين - الذين كانوا حوالى ٢٥٠ - أنفسهم وأيقنوا ان هذه المعركة ستكون قاسية ، لذلك قاموا بعمل بعض التجهيزات من سواتر ترابية وأكياس رمل ، وزرع عدد من العبوات فى مداخل المخيم لاعاقة دخول الجنود وآلياتهم ، بالاضافة الى توزيع المقاتلين على مجموعات صغيرة تنتشر فى مواقع داخل المخيم ، الى جانب وضع قناصة لحماية المقاتلين . ويضيف السعدى : أدركنا ان الجنود سيستخدمون الأسلوب نفسه الذى استخدموه فى مخيم بلاطة وغيرها خلال اقتحامهم للمنازل حيث كانوا يدخلون عبر فتحات فى الجدران ، لذلك كانت هناك عدة اشراك لافشال هذا المخطط بالاضافة الى ابقاء مقاتلين فى منازل يتوقع ان ينفذ منها الجنود ، حتى أيقن الجيش الاسرائيلى فى النهاية ان كل محاولاته فشلت وتكبد فى الوقت نفسه خسائر كبيرة .

وكان المقاتلون فى المخيم قد استخدموا كل امكاناتهم وطاقاتهم فى الدفاع ومعركة الصمود ، من أسلحة خفيفة وعبوات متنوعة الى جانب قاذفات آر بى جى ، لكن الجيش الذى كان يهزم

يوما فى المعركة أدخل فى النهاية البلدوزرات لتدمير كل شىء حتى وان كانت المنازل مسكونة بأهلها .

* * *

فى مسجد الأنصار المطل على المخيم وحارة الحواشين المدمرة ترك جنود الاحتلال هناك بصماتهم القذرة ، فعلى جدرانه البيضاء اثر رصاصهم المتنوع .. وقد قاموا بتفجير الباب ، وفى الداخل لم يسلم شىء من رصاصهم حتى المصاحف فقد شوهت وألقيت على الأرض وعلى الجدران وضعوا شارات ورسومات عبرية ، وقاموا بكسر صندوق التبرعات وسرقه ما بداخله مبلغ ٨٠ شيكل حوالى ١٦ دولارا كما يقول أحد الأطفال ، وفى الوقت نفسه وضعوا جملة بالعبرية على الصندوق الخشبى تقول (انتم وضعتم ونحن سنأخذ) وفى نهاية التدنيس لم ينس الجنود ان يضعوا بولهم وبرازهم داخل المسجد .

على أشلاء المنازل وجدرانها المائلة وداخل عدد من المنازل اشارات بعضها باللون الأحمر واخرى سوداء .. وكلها فى النهاية تعنى شيئا واحدا : هو حقيقة الاحتلال .

عندما كان الجنود يقتحمون منزلا ويعيثون فيه فسادا كانوا يضعون اشارات تبين مرورهم واتجاههم ، بالاضافة الى رقم سرى بالانجليزية وكان بعض المواطنين يضللونهم فإفساد تلك العملية الاسرائيلية من خلال وضع الكثير من الاشارات والأسهم .

وقد قامت طواقم فنية بوضع اشارات حمراء على المنازل الآيلة للسقوط والمهددة بالخطر الانهيار ، وفى نفس الوقت كان خبراء من فرنسا يبحثون عن ألغام وقنابل مزروعة تحت الأنقاض وبين أطنان الركام. كان العديد يتساءل ربما من الاحباط أو الفاجعة الكبيرة المحيطة به " يا الهى من سيزيل كل هذه الأنقاض " لكن الاجابة كانت تأتى سريعة ليس ممن ذبحتهم الاحزان وأثقلتهم المواجع ولكنها كانت تأتى من عشرات الشبان والرجال الذين زينوا المخيم بصور المقاتلين والفدائيين الذين كانوا يحملون سلاحهم .. فى مشهد ربما أصبح مألوفا فى الحياة الفلسطينية .

* * *

أطفال يروون قصة الملحمة الأسطورية فى جنين

فقد أطفال مخيم جنين حقائبهم المدرسية وكتبهم التى احترقت أو دفنت تحت أنقاض منازلهم التى دمرتها طائرات الأباتشى الامريكية والدبابات والبلدوزرات الصهيونية ، الا انهم لايزالون يصرون على مواصلة مسيرتهم التعليمية والانتظام فى دروسهم وصفوفهم التى لم تسلم أيضا من عمليات القصف والعدوان ، والى جانب منهاج تعليمهم المقرر والعادى فإن الطلبة اضافوا الى المنهاج كتبا وعناوين وحصصا جديدة ، انه منهاج الملحمة الاسطورية لمعركة مخيم جنين

التى لا تتوقف ألسنتهم لحظة واحدة عن الحديث عنها بفرح وسعادة واعتزاز ، يعبرون عنها برسومهم وأغنياتهم والقصص التى يتداولونها بمعنويات عالية تؤكد ان دبابات شارون وحربه ومجازره دمرت منازل هؤلاء الأطفال ولكنها أسست فى قلوبهم وحياتهم روح المقاومة التى جعلتهم يتفاخرون بمعرفتهم بالشهداء وقادة المعركة ومشاركتهم فى التصدى لقوات الاحتلال .

* * *

بعد انتهاء المعركة ، وحين تمكن الصحفيون من دخول مخيم جنين ، مرت عيون عدسات المصورين سريعا على مشهد سيبدو عجيبا بالنسبة لمراسل أجنبى يبحث فى موقع الحدث عن مادة تقرير اخبارى عاجل .

بدا فى الصورة رجل من المخيم يجلس على كرسى من البلاستيك فوق هرم أنقاض بيته المدمر بالكامل ، وفيما كان صغاره على سفح الانقاض يحاولون انتشال شئ ولو كان صغيرا من أثاث المنزل ، كان الرجل ينظر الى كاميرا المصور تارة ، ثم تارة اخرى الى قطعة من الكرتون يبدو انه انتزعها من علبة من مواد الاغاثة التى وصلت الى المخيم ، ليكتب عليها العبارة التالية :

"الاستشهاديون قادمون" .

المنزل تماما ولكن الاستشهاديين قادمون ، ليس هناك من طعام ولا حتى رغيف يسد رمق الأطفال ولكن الاستشهاديون قادمون .. لا أثاث ولا مال ، ولا كتب أو دفاتر للأولاد ولا مدارس ، ولربما كان هناك شهداء من العائلة حصدهم سلاح الموت الصهيونى .. لكن كل ذلك ليس مهما بالنسبة لهذا الفلسطينى مادام الاستشهاديون قادمون .

وهم سيأتون حتما .. تلك هى نبوءة الارادة الفلسطينية ، انها الرؤية التى ترى ما لا يراه الآخرون ، فالصورة الاخبارية المباشرة لمشهد مخيم جنين ، الصورة الظاهرة هى ان هناك توغلا وانتصارا صهيونيا على كيلو متر مربع واحد دفع الصهاينة مقابله ثمنا غاليا كى يدخلوه لأيام ، بعد ان سووه بالأرض خوفا من مجاهدين قد يظهرون أهم من مساحات الأرض ، أما ما تراد تلك الارادة الفلسطينية التى تنهل من عقيدة رأس سنامها الجهاد والايمان بوعد الله بالنصر ، فهو ان المقاومة هى حياة هذا الشعب ، ولذلك ، فالاستشهاديون حتما قادمون ، ولن يفهم هذا الايمان من يرى مخيم جنين مجرد أنقاض مجزرة ، ولا يستطيع ان يفهم ذلك من لا يتبين ملامح الشهداء الباقية على الجدران ، والصاعدة على الأشجار ، والممتدة فى ملامح الأطفال وفى أصواتهم وهم ينشدون أمام مشهد الدمار والمجزرة : " الاستشهاديون قادمون " .

لقد أراد الصهاينة لاجتياحهم الأخير ان يكون معركة كسر عظم شاملة لقوى ارادة القتال الفلسطينية وبناها ، لكنهم لم ينتصروا فى نهاية المطاف ، وإن بدا الفهم مخالفا لحقائق الحدث

المباشرة بما فى ذلك اعادة العدو لاحتلاله الكامل للضفة الفلسطينية واستشهاد العشرات من خيرة المجاهدين والمناضلين ، وسلسلة الاعتقالات الواسعة .

لم ينتصروا ، لأن النصر ليس معركة ، ولم ينتصروا لأن المقاومة لم تنهزم ، ولم ينتصروا لأن الاجتياح كان ماثلا على الدوام فى حسابات المجاهدين ، ولم يكن بينهم من يعتقد بإمكان ربح المعركة التقليدية مع جيش مدجج بأحدث أنواع الأسلحة ، لكنهم خاضوا المعركة من رؤية ان الصمود والقتال حتى الشهادة هو انتصار فلسطين مادامت ارادة القتال قائمة والدرس مستلهم من صمود القسام فى يعبد من ثلة الرجال المؤمنين ، ليس رغبة فى الهلاك وانما رغبة فى ترسيخ مفهوم الشعب المظلوم المجاهد بأن الغلبة هى فى استمرار المقاومة ضد الاحتلال مهما كان وجه المرحلة . لكن ثمة خطرا يتهدد كل ذلك من زاوية اخرى .

فمع أن أول قتلى هذه المعركة هو التسوية السياسية ، ومع ان الكيان الصهيونى قال بوضوح مجددا ان مفهوم التسوية الذى يريد هو استسلام الشعب الفلسطينى للاحتلال وإخضاعه بالكامل عبر تجريده من كل مقومات وجوده السياسية والوطنية ، فإن المؤسف ان هناك ما يشير الى ان السلطة الفلسطينية يبدو أنها قد توصلت الى هذه الحقيقة بنتيجة الصهيونى المتواصل .

فعندما صمدت قيادة السلطة وقال ياسر عرفات أمام شاشات التلفزة انه يرفض التسليم ويفضل على ذلك الموت شهيدا ، كان للموقف صدى بأن الدم الفلسطينى واحد والسلاح واحد والهدف واحد فى الخندق الواحد ، وعلى الرغم من الحصار والتوغل الصهيونى والتدمير والشهداء ، لم يكن الكيان الصهيونى قد استطاع تحقيق أى من أهدافه السياسية ، حتى وهو يعلن وصوله الى آخر مرحلة من مراحل الاجتياح ، وعند ذلك الحد انفتحت فجأة بوابات الأسئلة القديمة مجددا حين فوجئ الشعب الفلسطينى بـ " صفقة " تسليم الأبطال الذين قتلوا الارهابى رحبعام زئيفى الى سجانين امريكيين وبريطانيين ، واكتملت المفاجأة عندما تبين ان بينهم أحمد سعدات ، الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وفؤاد الشبكى الذى تتهمه (اسرائيل) بالمسئولية عن سفينة الأسلحة " كارين A " ثم لم تمض أيام حتى تكرر السيناريو نفسه بشأن المقاتلين المحاصرين فى كنيسة المهد .

هذا الحدث هو سابقة خطيرة فى ظلال الوضع الراهن ، ومن المفارقة أننا لم نسمع السلطة ، ولو لمرة واحدة ، تقول للولايات المتحدة والكيان الصهيونى ان هؤلاء ليسوا إرهابيين أو جناة ، أو على الأقل إشارة واحدة بأن ما فعلوه كان ردا على اغتيال الصهاينة للقائد السياسى الفلسطينى أبو على مصطفى ، فلا يكون الموقف التالى إسقاطا لحق الشعب الفلسطينى فى المقاومة .

لكن المشكلة الأدهى ليست فى الحدث ذاته وانما فى المعانى التى يشير اليها : انه يعنى ، قبل كل شىء ، أن السلطة الفلسطينية لاتزال ترى ان التسوية السياسية مع الكيان الصهيونى هى أمر ممكن ، ولذلك فإنها تستجيب للضغوط الامريكية الصهيونية وتلزم نفسها بوظائف اتفاق أوسلو الأمنية ، متعامية عن حقيقة أن دبابات شارون قد سحقت هذا الاتفاق نهائيا .

وهذا ذهاب الى الكارثة .. الكارثة التى يمكن ان تهدد حقائق الكفاح الفلسطينى وحقوق شعب فلسطين على أرضه ، وتمزق وحدة قواه الحية المجاهدة والمقاتلة ، فإن رضخت السلطة اليوم للاملاءات الامريكية الصهيونية ، فى اطار هذا الفهم ، فإنها تدخل بذلك نفقا لن ينتهى من الاملاءات والتصورات السياسية الصهيونية ، اما ان رفضت الرضوخ واختارت المواجهة ، فهى قد تسقط من حسابات الولايات المتحدة واسرائيل لكنها لن تسقط فى شعبها أبدا ، فهذا الشعب هو الرهان .. وانظروا اليه واقفا بين أنقاض بيوته برغم الجراح والدمار ، وملامح أبنائه تقول : الاستشهاديون قادمون .

أقوال عن المخيم - الأسطورة والملحمة

** " انهم يقاتلون بشكل لم يخطر على بال أحد من صناع القرار فى اسرائيل " (آفى كوخافى قائد لواء المظليين الصهاينة الذى تولى غزو منطقة مخيم جنين) .

** " طلب الجيش الاسرائيلى وقفا للنار من عشرات المقاتلين الفلسطينيين فى مخيم جنين بعد مقتل ثلاثة عشر جنديا صهيونيا فى كمين متفجر ، وقد دفع هذا الصمود الأسطورى رئيس أركان الجيش الصهيونى الجنرال شاؤول موفاز الى الاشراف بنفسه على ادارة المعركة " (وكالة الصحافة الفرنسية) .

** تواجه قوات جيش الدفاع مقاومة فلسطينية شرسة فى المخيم ، وتدور معارك دامية فى أزقة المخيم ، ولايبدو ان الجيش سيتمكن من تحقيق أهدافه فى الأيام المقبلة " (صحيفة يديعوت أحرونوت الصهيونية ٢٠٠٢/٤/٧) .

** سيذكر الفلسطينيون مخيم جنين ابتداء من اليوم كعاصمة للمقاومة البطولية ، أما بالنسبة لنا فسيكون المخيم كابتنا (حيمى شاليف- معاريف) .

** ان عمليات الجيش فى لبنان كانت عبث أطفال بالنسبة لما يدور هنا (ضابط صهيونى من القوة المهاجمة) .

** جوبهنا بمقاومة لم نعرف مثيلا لها فى كل حروب اسرائيل (الرائد الصهيونى ايال شلاين).

** غالبية المقاومين فى المخيم يرتدون الأحزمة الناسفة استعدادا لتفجير أنفسهم بالدبابات والجنود الاسرائيليين اذا ما نجحوا فى اختراق الدفاعات (امراة فلسطينية من مخيم جنين).

** المعارك العنيفة تتواصل مع مئة مقاتل فلسطينى متحصنين فى قلب المخيم بقيادة مسئولين محليين من الجهاد الاسلامى (اذاعة الجيش الصهيونى ٢٠٠٢/٤/٩) .

** ظلت المجنزرات الصهيونية تجوب الشوارع فى اليوم الأخير وتنادى عبر مكبرات الصوت على المقاتلين كى يستسلموا ، لكننا لم نشاهد مقاتلا واحدا يستسلم ، وكان هناك عدد من الجرحى الذين اعتقلهم الجنود ثم قاموا بإعدامهم فى المكان نفسه (شاهد عيان فلسطينى) .

** أصبت بصدمة ولن أنسى فى حياتى ، وشعرت برغبة فى البكاء بسبب الرعب ، لم نمر فى حياتنا بشىء كهذا (رقيب اسرائيلى من القوة المهاجمة) .

** كنا كاننا ندخل الجحيم ، وأحمد الله انى بقيت على قيد الحياة ، لقد فخخ المقاتلون الفلسطينيون كل شىء ، وضعوا المتفجرات فى كل مكان ، على أغطية المجارى وفى الحاويات والسيارات وعلى الجدران وعلى أغصان الأشجار (جندى اسرائيلى من القوة المهاجمة لمخيم جنين) .

** حين تقدم الجنود الاسرائيليون ووصلوا الى الكمائن المتفجرة ، قمنا بنسفهم ، وعندما أدرك كبار الضباط الاسرائيليين ما حدث بدأوا يصرخون عبر مكبرات الصوت بأنهم يطالبون وقفا فوريا لاطلاق النار ، وقد تركناهم يتقدمون ليسحبوا جنودهم ثم فتحنا عليهم النار ، فأصيبوا بصدمة كبيرة ورعب شديد حتى انهم فقدوا القدرة على تحديد اتجاهات هروبهم فركضوا نحونا (أحد المقاتلين الفلسطينيين الذين تمكنوا من الانسحاب من المخيم بعد انتهاء المعركة) .

** بعد الكمين الذى قتل فيه الجنود الاسرائيليون اندفع الى بيتنا جندى اسرائيلى وأخذ يصرخ ويبكى قائلا هذه حرب قذرة ولا أريد أن أموت فيها ، أرجوا ان لا ترى امى ما يحدث لنا الآن (جندى صهيونى من قوات الاحتياط) .

** ما رأيته يفوق تصور الخيال كل شىء مدمر وكان زلزالا أصاب المنطقة (تيرى رود لارسن - مبعوث الأمين العام للأمم المتحدة) .

** لم أر من قبل ما رأيته فى جنين (نائب مدير وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين - الأونروا) .

** هناك جرائم حرب قد حدثت فعلا فى المنطقة (رئيس مفوضية حقوق الانسان التابعة للأمم المتحدة) .

** رأيت طفلا تحت أنقاض أحد البيوت وأمة المصابة تنزف الى جانبه ، وبقيت أم منير مسجاة ونزفت حتى الموت الى جانب جثمان طفلها (شاهد عيان فلسطينى) .

** فى ظل تأكيدات صحفية وشهود عيان عن عمليات نقل لمئات الجثث الى أماكن مجهولة فى محاولة اسرائيلية لاخفاء معالم المجزرة ، أكدت وكالة الصحافة الفرنسية فى ١١ أبريل ان مواطنين من قرية (أبو كف) البدوية الفلسطينية فى اراضى ١٩٤٨ ، شاهدوا عمليات دفن يقوم بها الجيش الاسرائيلى فى قرية نباطين القريبة ، وقالت فتاة من القرية شاهدت بعينها جنودا يرتدون قفازات ويغطون أقدامهم بالبلاستيك يسحبون جثثا من شاحنتين ويضعونها فى حفر ثم يدفنونها بالجرافات " .

** فى ساحة الحواشين فى وسط المخيم يعيد المشهد الى الذاكرة صور برلين عام ١٩٤٥ ، خلال ليلتين أمضيتهما هناك ، سمعت ضجيج الجرافات تعمل ليلا ثم اختفت الجثث ، وفى مبنيين مختلفين رأيت فى الأول جثة محترقة بالكامل ، وفى الآخر جثتين تحت الركام (الصحفى الفرنسى باربانسى من صحيفة لوماتينيه)

** اللاجئون الذين أجريت معهم مقابلات فى الأيام الأخيرة ، بينما كنت أحاول دخول المخيم لم يكذبوا والواقع انهم قدروا درجة الذبح والرعب بأقل مما حصل ، ونادرا ما رأيت خلال أكثر من عشر سنوات من تغطيتى للحروب فى البوسنة ، والشيشان ، وسيراليون ،

وكوسوفى ، مثل هذا التدمير المتعمد وهذا الازدراء للحياة الانسانية (جانين دى جيوفانى مراسلة ذى تايمز)

** رأيت الجثث على قارعة الطريق ، لقد قمنا بدفن عدد منها فى الشارع نفسه تحت الوحل (حسن - ٥٢ عاما من مخيم جنين)

* * *

مخيم جنين عود على بدء

فى قرية يعبد الصاعدة على هضبة من هضاب منطقة جنين فى فلسطين ، تكشف تجربة وحياة وارادة قتال القساميين فى حالة الحصار ، حيث وقف الشيخ المجاهد عز الدين القسام مع رفاقه وحيدا يقول لهم فى اللحظات الأخيرة من معركة غير متكافئة على الاطلاق : هذا جهاد نصر أو استشهاد .. موتوا شهداء .

فى الحسابات الزمنية والتقليدية يبدو ما جرى فى يعبد انكسارا لثلة من الرجال وقفوا فى وجه الامبراطورية البريطانية التى تساند عصابات اليهود فى ذلك التاريخ من عام ١٩٣٥ ، لكن الأمر ليس كذلك فى فضاء الفكرة الأوسع ، وبالقياس الى حركة التاريخ البشرى ، وبإدراك كنه العوامل والمعوقات التى تؤثر فى هذه الحركة وتصوغ اتجاهها ، أى أن الصورة ما وراء الحدث المباشر بنتائجه هى تلك اللوحة الخفية ، التى لا تظهر فى آنية الحدث لأنها أوسع من حدوده وأعمق فى أغوارد وأشمل من الوقوف فى مساحة مفرداته ، ومن هنا تصبح القيمة فى الانعكاس الذى لم يره جيش الغزاة البريطانيين مشعا من تلال يعبد ، فيما كان ذلك الجيش يقفل راجعا بآلياته وطائراته وقد رفع رايات النصر على القسام واخوانه ، فنصر اللحظة كان لهم ، لكن نصر التاريخ كان للقسام .. وأكد الزمن ذلك بفكرة الالهام ، اذ أصبحت ثورة القسام وصموده وحصاره واستشهاده إلهاما يقض مضاجع المشروع الصهيونى على أرض فلسطين خارج حدود زمن الانتصار البريطانى - الصهيونى فى المعركة .

* * *

ولنعد الى مخيم جنين مرة اخرى ، فصمود هذا المخيم الذى اتخذ قرارا بالاستشهاد قد يتشابه مع قلاع ومدن حوصرت عبر التاريخ الانسانى ، لكنه مع ذلك يبدو استثنائيا فى صموده وعظمته بالنظر الى مدى بأس وارادة هذا الصمود ، والسلاح القليل المتوافر ، وحقيقة أن كل أبنائه رجالا ونساء وأطفالا وقفوا محاربين حتى الطلقة الأخيرة والصرخة الأخيرة والنزع الأخير والحائط الأخير .. وهذا ما لم يحدث على مر التاريخ .

وهذا يعنى ان على الذاكرة الفلسطينية ان تحفظ ملامح مخيم جنين جيدا ، وعلى كل مسلم وعربى ان يتلقى الرسالة التى توضح ان ثقافة الالة وشتى صنوف ابداعاتها الفكرية والأدبية تحظى اليوم ببحر شاسع من الرؤى والمفاهيم والاستعارات التى يضعها بين يديها دم مخيم جنين الذى قاتل حتى توهج الهاما ونورا وفكرة .

لقد ظل حصار عكا وحصار يعبد ، ومعركة الكرامة بمثابة ينابيع ترفع روح القتال والصمود فى تاريخ شعب فلسطين ، واليوم يكشف مخيم جنين كل ذلك التاريخ ويمنحنا اسمه الذى يفتح الأبواب لانتصار أكيد تسوقه الينا دماء الشهداء .

سوف يجد من يسعى الى المقارنة بين مدينة ستالننجراد ومعركتها فى الحرب العالمية الثانية ، وبين مخيم جنين ومعركته فى الحرب السابعة ، فروقا كبيرة جدا ، بين المدينة والمخيم ، وبين الظروف الحربية ، وطبيعة القوى ، وحجومها .. الخ ، لكنه سوف يعثر بالمقابل على شىء من التقارب بين التجربتين ، حين ينظر الى قدرة الارادة على الولوج بالواقع الى عالم الأسطورة .

فى الصحف الصهيونية ، هناك من يكتب الآن على جنينجراد معترفا بالمقاومة الفلسطينية الأسطورية فى المخيم ، ويطرح السؤال : ماذا بعد ؟ فالصهاينة الذين أعلنوا أن هدفهم هو اجتثاث المقاومة الفلسطينية ، والقضاء على بناها ، استطاعوا ارتكاب مجزرة بشعة فى مخيم جنين ، الذى شهد سقوط المئات من الشهداء ، وانكشفت معالم كبيرة عن هذه المجزرة على الرغم من محاولة الصهاينة اخفاءها ، ولكن ماذا عن الهدف الأصلى المعلن ، أى تقويض بنى المقاومة الفلسطينية ؟ باستثناء شارون الذى يقول انه اقترب من تحقيق أهدافه ، وموفاز الذى يقول انه بحاجة الى مزيد من الوقت ، ثمة ما يشبه الاجماع فى الكيان الصهيونى ، على ان العدوان الذى استهدف المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية ، سوف يجر مزيدا من عمليات المقاومة (وهو ما حدث بالفعل) .

واذا كانت الصحافة الصهيونية تجارى الارهابيين شارون وموفاز ، فى حديثهما عن الحاجة الى مزيد من الوقت ، لتسويغ جرائم جديدة على غرار ما حدث فى مخيم جنين ، والبلدة القديمة من نابلس ، فإن فى هذه الصحافة أيضا . تعبيرا عن القلق وخاصة فى أوساط المؤسسة العسكرية الصهيونية مما قد تحمله المرحلة القادمة .

فى يديعوت أحرونوت كتب ران أدليصت : فى هذه المرحلة ، على مشارف انتهاء عملية السور الدفاعى ، قلصنا بضعة أسابيع أو أشهر من قدرة الفلسطينيين على تنفيذ عمليات متواصلة وبالنوعية التى عرفناها ، ولكننا عمقنا أضعافا مضاعفة من حوافزهم على التخطيط لمثل هذه العمليات .

المحلل الصهيونى هنا ، لا يضيف كشفا جديدا ، فمن المتصور ان أى عاقل لا يستطيع تصور أن تتوقف المقاومة الفلسطينية ، طالما ان الاحتلال قائم ، بيد ان محللين صهاينة يسندون ما ذهب اليه أدليصت بمعطيات ووقائع .

حينما كان الصهاينة يتحدثون عن سقوط مخيم جنين فى أيديهم ، كان استشهادى من سرايا

القدس ينفذ عملية فى حافلة للجنود فى حيفا ، هذه كانت رسالة أوضح من أى تحليل عن أن العمليات مستمرة ، وفى أعقاب هذه العملية كتب المحلل الاستراتيجى لصحيفة " هآرتس زئيف شيف يقول : ان الجولة العسكرية الحالية مع الفلسطينيين توشك على الانتهاء ولكن حرب الفلسطينيين مستمرة ، العمليات الاستشهادية متواصلة ، والأنفجار فى حافلة المسافرين فى طريقها من حيفا الى القدس هو دليل على ذلك ، وأصبح من الواضح للجميع أن كل دخول جديد الى المناطق الفلسطينية يكلف ثمنا باهظا .

كان هذا قبل ان تقع العملية الاستشهادية الثانية فى القدس ، والتى نفذتها الاستشهادية عندليب طقاطقة ، ولكن لم يكن من الضرورى تغيير الكثير من المعطيات ، طالما ان العمل قد جاء فى السياق ذاته .

وقالت صحيفة يديعوت أحرونوت الصهيونية : لا يمكن ضرب البنية التحتية للمقاومة الفلسطينية ، وأضافت بقلم كاتبها (هوفمان) : ان الأبحاث التى نفذت فى مواجهة ظاهرة العمليات الاستشهادية الفلسطينية تشير الى انها لا تحسم بعملية عسكرية وانها ستتواصل ، وأن الفلسطينيين هم أكثر هذه منفذى العمليات عددا فى العالم .

فى صبيحة يوم الأربعاء عادت مشاهد العمليات لشاشات التلفزة مع مشاعر المرارة التى تترافق معها ، خلال أقل من أسبوعين تبين ان فترة الهدوء التى سادت لم تكن الا مرحلة عابرة قصيرة فعملية السور الواقى لم توقف العمليات الاستشهادية .

لقد قام أخصائى صهيونى ، يعمل فى مركز دراسات الأمن القومى فى حيفا ويدعى نعومى بدهتسور بإعداد بحث حول شخصية الاستشهادى الفلسطينى ، وينظر الي هذا الاخصائى فى الكيان الصهيونى على انه متخصص فى ظاهرة العمليات الاستشهادية وهو يقول : الاستشهاديون لن يتركونا نحصد ثمار هذه العملية ، وهذه العملية فشلت فى قمعهم .

ويضيف بدهتسور : ان الاعتقاد بامكان ضرب البنية التحتية للمقاومة الفلسطينية مسألة لم تعد ممكنة اليوم ، والعملية العسكرية الاخيرة لن تحل المشكلة ، فالمعطيات المتوافرة حول حجم الظاهرة تشير الى انها لن تنتهى عما قريب ، حتى وان بدأت العملية السياسية .

وتتحدث المصادر الاستخباراتية الصهيونية ، تتحدث عن أن هناك ٦٠٠ متطوع استشهادى فى الضفة ، ومثل هذا العدد فى قطاع غزة،ويقول أحد ضباط الاستخبارات الصهاينة دانى ريشف:الأمر الذى يميز الاستشهاديين الفلسطينيين هو حجم الظاهرة ، ان الروح التطوعية والاخلاص كبيران .

كان أحد الذين أطلقوا اسم جينينجراد على مخيم جنين هو المحلل العسكرى الصهيونى فى صحيفة يديعوت أحرونوت اليكس فيشمان ، وهو يقول : فى الشاباك يعترفون ، انه على الرغم

من كل الاعتقالات والتحقيقات لا يمكن القول اننا الآن نجحنا فى ضرب القواعد العسكرية على نحو جوهرى ، وهذه القواعد لم تتحطم ، وتتحدث التقارير من الميدان عن انتقال مطلوبين كبار الى مناطق قروية ، والمدافع الثقيلة للعنف لم تكشف فى حى القصبة فى نابلس .

كما تحفل الصحف الصهيونية بتقارير عن القتال الضارى الذى دار فى جنين وفى حى القصبة ، ومثل الارهابيين من المسئولين ، والجنرالات الصهاينة يتحدث الصحفيون والمحللون أيضا عن الحاجة الى مزيد من الوقت ، ولكن مع اشارات الى انه حتى لو أخذ هؤلاء الوقت الكافى ، فلا شىء يضمن نجاحهم فى وضع حد نهائى للمقاومة الفلسطينية .

وقد قال قائد وحدة المظليين الصهاينة الذى قاد الهجوم فى حى القصبة يقول : برغم اننا ضربنا القاعدة الارهابية هنا ، الا انها لم تختف ، وهى ستتجدد ، ولا يجب ان يشك أحد فى ذلك .

وربما انطلاقا من احساس المؤسسة العسكرية الصهيونية بالعجز عن مواجهة المقاومة الفلسطينية ، والتى سوف تستأنف عملياتها ، بعد وقت لن يطول ، فضلا عن أنها سوف تنوع أساليب نضالها انسجاما مع الواقع المستجد الذى كان من نتائجه انتشار القوات الصهيونية ، وضمن إنفاذ مخطط صهيونى قديم ، عاد الصهاينة الى تداول فكرة الفصل .. فهل ستشكل هذه الفكرة حلا بالنسبة لهم ؟ ان كثيرا من المحللين الصهاينة يشككون فى أن يوفر هذا الفصل حلا ، ربما لن يكون أكثر من حل مؤقت فى انتظار الانفجار القادم ، تلك متوالية سوف تظل تتكرر حتى يرحل الاحتلال ، ورحيله ليس بعيدا على كل حال .

* * *

مرة أخرى يثبت الكيان الصهيونى انه مشروع عقيم لا ينجب الا الموت ، ولا يستطيع ان يعبر عن ذاته بغير المجازر والدمار ، فما حدث فى مخيم جنين ومدينة نابلس القديمة وفى كل الأماكن التى اجتاحها الجيش الصهيونى مؤخرا كان لابد ان يحدث ، ما دام الكيان الصهيونى قادرا على فعله .

وبداية لابد من التأكيد على ان الهجوم الصهيونى الأخير لم يكن بداية المجزرة ، بل ان هذه المجزرة بدأت منذ انطلاق انتفاضة الأقصى ، التى واجهها الصهاينة بسلسلة طويلة من المجازر المتفرقة كانت حصيلتها الاجمالية أكثر من ١٥٠٠ شهيد غالبيتهم من المدنيين ومن ضمنهم ٣٥٠ طفلا ، والمئات من النساء والشيوخ ، هذا الى جانب الدمار الهائل المتمثل فى هدم مئات البيوت السكنية وقصف أحياء كاملة بالطائرات وتجريف الأحياء والأشجار واجتياح المدن والقرى بالدبابات . الاجتياح الصهيونى الشامل للضفة الغربية فى أواخر آذار / مارس ٢٠٠٢ ، ان تكثيفا للحرب المعلنة ضد الشعب الفلسطينى ، ومحاولة تحقيق انجازات صهيونية كبرى بالجملة وخلال فترة زمنية محدودة لم يكن بحال من الأحوال مجرد رد فعل على العمليات

الاستشهادية التى سبقت هذا الاجتياح بساعات قليلة ، لأن هجوما شاملا يوظف أكثر من ٢٥٠٠ دبابة وأكثر من ٥٠ ألف جندى بالاضافة الى سلاح الطيران والهندسة وغيرها ، لابد أنه تطلب أسابيع طويلة بل شهورا لانجازه بهذا المستوى من الحشد والتنظيم والتنفيذ ، مما يعنى أن خطة هذه الحرب كانت مبيتة وتنتظر اللحظة المناسبة لتنفيذها .

* * *

كانت المجزرة دائما فى قلب أهداف الحرب الصهيونية ، فالحرب من المنظور الصهيونى لا تهدف الى مجرد إلحاق الهزيمة العسكرية بالعدو ، فمنذ قيام الكيان الصهيونى حدد الصهاينة أهداف حروبهم المقبلة ضد العرب على النحو التالى الذى صاغه موشيه ديان : يجب الا ينحصر هدف الحرب فى إلحاق الهزيمة بالعدو ، بل يجب ان يشمل ايضا تدمير القاعدة العسكرية والاقتصادية للعرب كليا ، كما يجب تقويض القوة البشرية المقاتلة بشكل مستمر ومنهجى .

فى ضوء هذه الحقيقة يمكن النظر الى تعمد الجيش الصهيونى ، منذ بداية الانتفاضة ، وخصوصا أثناء الاجتياح الصهيونى الأخير ، إيقاع أكبر قدر ممكن من التدمير فى البنى والمرافق الاقتصادية والاجتماعية والصحية والتعليمية فى المناطق المحتلة ، كما يمكن فهم الأسباب الكامنة وراء استهدافه قتل أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين مقاتلين ومدنيين ، فهو لم يكن يسعى الى مجرد كسب نصر عسكرى ، بل ضرب مرتكزات الوجود المادى للشعب الفلسطينى على أرضه ، بالتوازى مع ضرب الروح المعنوية العالية لدى الشعب الفلسطينى ، والتى تعبر عن نفسها بالارتباط الجذرى بأرض الوطن من جهة ، وبروح التحدى والمقاومة الصلبة للاحتلال الصهيونى من جهة اخرى .

لقد رفعت الأوامر والتوجيهات العسكرية الصهيونية أى قيد على استخدام القوة المفرطة ضد المناطق المستهدفة بالحرب الأخيرة ، بل وشجعت على جعل هدف هذه الحرب قتل أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين ، كما صرح بذلك كل من رئيس الوزراء ووزير الحرب ورئيس الأركان الصهاينة ، لقد حددوا جميعا وبتصريحات علنية أن هدف هذه الحرب هو قتل أكبر عدد ممكن من " الارهابيين " الفلسطينيين ، ولعل السؤال المنطقى فى مثل هذه الحالة هو : كيف يمكن لأى جيش نظامى ان يحصر أهدافه بالعسكريين دون المدنيين ، وخاصة وأن القتال يجرى فى مناطق سكنية مدنية من جهة ، وأن المدافعين عن هذه المناطق والذين يستهدفهم الهجوم ليس لهم لباس عسكرى مميز ؟

* * *

كانت المجزرة مبيتة فى صلب الأوامر العسكرية الصهيونية ، وبغض النظر عن النتائج التى

يمكن ان تسفر عنها هذه الحرب ، فان مجرد اصدار أمر لجيش نظامى ان يستخدم أسلحته الثقيلة ضد أهداف سكنية مدنية ، ينطوى فى حد ذاته على قرار ضمنى بقتل المدنيين ، أى أن مسئولية الصهاينة سواء أكانوا قادة سياسيين أم عسكريين عن جريمة استهداف المدنيين بهذه الحرب هى مسئولية مسبقة وكاملة عن كل ما أسفرت عنه هذه الحرب من جرائم ، اذ أن هذه المسئولية متضمنة فى قرار الحرب نفسه .

لقد جرب الصهاينة أسلوب اجتياح المدن والقرى والمخيمات مرات عدة منذ انطلاق انتفاضة الأقصى غير ان هذا الأسلوب لم يؤد الى نتائج ملموسة ، وقد وجد العدو نفسه شيئا فشيئا أمام نوع من توازن القوة أمام شعب شبه أعزل من السلاح ، فلقد جسدت العمليات الاستشهادية قدرة الفلسطينيين الفائقة على اختراق منظومة الأمن الصهيونى ، وإحداث تأثيرات عميقة فى صلب البنية العسكرية والبشرية والمعنوية للكيان الصهيونى ، وازاء هذه الحقيقة ، لم يكن الاجتياح العسكرى للضفة الغربية واعادة احتلال المدن والقرى يشكل حلا عمليا لهذا الواقع الجديد ، كان الصهاينة يرون انه لابد من إحداث أثر معنوى عميق فى الجانب الفلسطينى يكبح اندفاع العمليات الاستشهادية ويعمم روح اليأس والاحباط من امكان الحاق الهزيمة بالمشروع الصهيونى ، ومن هنا كان التخطيط لمجزرة جنين فى صلب التخطيط للحرب الشاملة الأخيرة . لابد للمرء ان يعترف بخبرة الصهاينة العميقة فى مجال ارتكاب المجازر ، فتاريخ الوجود الصهيونى فى فلسطين هو سلسلة مترابطة ومتعاقبة من المجازر المنظمة التى حقق هذا الكيان من خلالها معظم منجزاته على الأرض (انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب الخاص بمجازر العدو الصهيونى فى الـ ٦٥ عاما الماضية) لدرجة ان مناحم بيجن اعترف فى مذكراته بأن الكيان الصهيونى مدين بوجوده لمجزرة دير ياسين وما تبعها من مجازر ضد الشعب الفلسطينى ، ولعل اختيار مخيم جنين ليكون هدف المجزرة له ما يبرره من وجهة النظر الصهيونية ، فلقد انطلق من هذا المخيم العشرات من الاستشهاديين الفلسطينيين الذين منحوا هذا المخيم الصغير لقب (ينبوع الاستشهاديين) كما ان الموقف المعلن للأبطال المدافعين عن المخيم بالقتال حتى الاستشهاد والذى أعلنه قائد الدفاع عن المخيم الشهيد محمود طوالبة ، كان يشكل سببا اضافيا لاستهداف هذا المخيم بالجريمة الصهيونية المبيتة .

عندما بدأ الهجوم على المخيم ، أعلن قائد اللواء الصهيونى المدرع أن سقوط المخيم هو مسألة ساعات ، فقد كانت مئة وعشرون دبابة تطوق المخيم وتطلق قذائفها على أحيائه بصورة عشوائية بينما كانت طائرات العدو تقصف أهدافا محددة ، وتمشط شوارع المخيم وأبنيته بالرشاشات الثقيلة على مدار الساعة ، وكانت مكبرات الصوت تنطلق بين فترة واخرى تطالب سكان المخيم ومقاتليه بالاستسلام لكن جواب المدافعين عن المخيم كان يأتى بزخات الرصاص والاشتباك مع آليات العدو فى كل المواقع على أطراف المخيم الصامد .

* * *

طوال عشرة أيام من الصمود والمقاومة ، كانت المعارك فى مخيم جنين تجرى بمعزل عن عيون وسائل الاعلام ورقابة الجهات الدولية ، لقد أتاح هذا الواقع للصهاينة ان يخفوا جرائمهم وخسائرهم معا ، لكن ما تسرب من أنباء عن هذه الحرب – المجزرة ، كشف جوانب لابد من تسجيلها اعترافا ببطولة المدافعين عن هذا المخيم البطل .

أول هذه الحقائق ان الصهاينة غيروا قائد الهجوم عن هذا المخيم ثلاث مرات خلال عشرة أيام ، وهى سابقة لم تحدث فى تاريخ الحروب الصهيونية كلها ، فبعد ان فشل قائد الهجوم طوال يومين عن تحقيق أى تقدم فى المخيم ، تولى نائب رئيس أركان الجيش الصهيونى قيادة هذا الهجوم مطالبا تعزيز الهجوم بطائرات " اف ١٦ " لقصف مناطق محددة بهدف فتح طرق واسعة فى المخيم ، وأمام اخفاق الجيش الصهيونى فى الاختراق واستمرار التصدى البطولى لثلاثة أيام اخرى ، وبعد اجتماعات مديدة لادارة العمليات الصهيونية ووضع العديد من الخطط ، تم تقسيم المخيم الى أربعة أقسام ، وتولى رئيس الأركان الصهيونى شاؤول موفاز بنفسه الهجوم بعد تكثيف القصف فى وسط المخيم واستخدام عشرات الجرافات لردم المخيم بكامله على رؤوس سكانه .

وفى واقع الحال ، فإن ما قام به الجيش الصهيونى طوال عشرة أيام من الحرب ضد هذا المخيم الذى لا تزيد مساحته على ١ كم مربع ، لم يكن أكثر من عملية تدمير بالقصف وبالجرافات خاصة بعد ان تكبد العدو خسائر فادحة فى الأرواح أثناء محاولاته القليلة لاقتحام بعض جوانب المخيم بالمشاة الصهاينة الذين يطلق عليهم الجيش النظامى لقب قوات النخبة .

* * *

ما حدث كان فضيحة بكل المقاييس بالنسبة للجيش الصهيونى ، لقد وقف عاجزا بكل تفوقه النوعى على بوابات مخيم صغير ، يدافع عنه بضع عشرات من المجاهدين الفلسطينيين ، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فقاتلوا حتى آخر رصاصة ومرغوا هيبة الجيش الصهيونى فى أوحال مخيم جنين .

ان قصة الصمود البطولى لمخيم جنين سوف تظل ماثلة لأذهان الجميع،بمن فيهم العدو الصهيونى،وقصة هزيمة جيش الاحتلال أكبر بكثير من أن ينكرها الصهاينة،ولايزال جنود الاحتلال وضباطه يدلون باعترافاتهم حول بطولة المجاهدين الفلسطينيين وأن جنود الاحتلال ظلوا محاصرين بدباباتهم طوال فترة الحرب ضد مخيم جنين وأن الحرب فى مخيم جنين كانت أقسى اختبار لهذا الجيش منذ تأسيسه .. أما حجم المجزرة التى ارتكبها الصهاينة ، فمازال معظمها متواريا تحت أنقاض البيوت فى مخيم جنين ، وما هو أهم من ذلك كله ، فهو أن أهداف العدو من هذه المجزرة الجديدة لم تتحقق ، بل ان مخيم جنين بقتاله حتى الاستشهاد يقدم اليوم أمثولة للبطولة والصمود يستلهمها شعبنا وأمتنا فى صراعهم الطويل المستمر ضد هذا الوجود العنصرى المجرم فى بلادنا .

ان مدنا وعواصم عديدة فى منطقتنا وفى العالم كله ، تغبط اليوم مخيم جنين على بطولته ومقاومته

حتى الاستشهاد ، انها تتمنى ان تضم الى تاريخها ولو صفحة واحدة من سفر الصمود والبطولة فى مخيم جنين ٠

واليوم ، فإن أنقاض مخيم جنين صارت هويتنا وهوية أعدائنا معا . انها شهادة صمود شعبنا وإصراره على الجهاد حتى النصر ، وهى فى الوقت نفسه شهادة على همجية وجبن العدو الذى نحاربه . انه توازن رعب جديد مع العدو الصهيونى ، يتطلب منا ان نجعل من كل مخيم فلسطينى آخر مخيم جنين ٠

شهادات مترجمة

اذا كان الصحفيون والمبعوثون الدوليون قد وصفوا ما رأوه فى مخيم جنين من تدمير ووحشية بأنه يفوق التصور ، فإن عشرات من الروايات ومشاهدات العيان تحدثت عن بطولات فاقت الكثير مما عرف عبر التاريخ الانسانى من وقائع الشجاعة والصمود والاستماتة فى المواجهة حتى الرمق الأخير والشهادة ٠

لقد قاتل أبطال مخيم جنين فتجاوزوا الأسطورة وارتفعت هاماتهم الى سقف المعجزة ، فسقط الصهاينة فى ذهول لم يعهدوه ، وقال جنرالاتهم انهم لم يواجهوا مقاتلين من هذا الطراز منذ قيام الكيان الصهيونى ، ولا عرفوا قتالا بهذه الصورة ، اما جنودهم فقد تملكهم الذعر من السقوط فى الأشراك المتفجرة فلم يغادروا مصفحاتهم ودباباتهم حتى أتمت صواريخ الطائرات وقذائف المدفعية والدبابات تدمير المخيم بالكامل ٠

والصحفى الذى يلتقى أحد أولئك المجاهدين الفلسطينيين فى هذه المقابلة السريعة ، يبدو ، وهو يصغى الى محدثه ، غير قادر على فهم تلك الارادة والروح التى جعلت عددا من المجاهدين والمقاتلين الفلسطينيين يواجهون جيشا جرارا ببنادق فردية وقليل من المتفجرات ، ويوقعون فيه الخسائر والرعب مرابطين فى مكانهم حتى الرصاصة الأخيرة والرمق الأخير ٠٠ حتى الشهادة ٠

ثلاثة نماذج للمقاومين فى جنين

ترجمة : ماهر عبد الرحمن

(عن الأهرام ويكلى بتاريخ ٤/١٨)

١ - المهندس

أحد مهندسى المعركة الأكثر ضراوة التى خاضها الفلسطينيون خلال الغزو الاسرائيلى للضفة الغربية ، تحدث الى جوناثان كوك حول أيام الصمود فى جنين .

فى المخبأ جلس عمر على كرسيه متأهبا ، انه مهندس من مخيم جنين للاجئين ، وأحد أفضل صانعى المتفجرات فى مدينة المفجرين (الاستشهاديين) ، أما بالنسبة للاسرائيليين فإن عمر هو " الارهابى " الأخطر والمطلوب رقم واحد ، وبعبارة اخرى هو سم رأس أفعى الكوبرا .

قابلته فى وقت متأخر من يوم الثلاثاء الماضى (١٦ / ٤) وبعد ساعات من نجاته من المخيم حيث أحكم الجنود الاسرائيليون سيطرتهم على المنطقة ، وقد كنا فى مكان قريب من جنين بحيث كان بمقدورنا رؤية الدخان المتصاعد من القنابل المضيئة التى كان الجيش الاسرائيلى يطلقها فى ذلك الوقت لاثارة تحركات جنوده الليلية فى مدينة جنين التى نشرف عليها .

لكن عمر لن يبقى هنا طويلا ، فهو بصدد الانتقال للاختفاء فى الضفة الغربية فى انتظار ان يجتمع مجددا برفاقه من جنين ، على ان هؤلاء قد لا يكونون كثيرين ، فقد قالت مصادر الجيش الاسرائيلى ان مئة من المقاتلين ، على الأقل ، قتلوا فيما جرح واعتقل المئات منهم خلال الأيام الثمانية من القتال الضارى .

لم يخبرنى عمر باسمه أو عمره ، انه شاب نحيل فى حوالى الخامسة والعشرين من العمر ، بلحية قصيرة ، وهو أحد أعضاء حركة الجهاد الاسلامى ، الا انه يقول ان ولاء جميع الفصائل فى جنين كان يستند الى قضية واحدة : التحرير أو الشهادة .

ولمحت ، تحت سترة المفجر الزرقاء التى يرتديها ، نهاية ذراعه اليمنى والتى هى مبتورة اليد ، وقد بدت معصوبة وملفوفة بإحكام ، فيما راح يفركها على نحو لا ارادى بين حين وآخر .

كيف فقد يده ؟ .. كان ذلك خلال الغزو الاسرائيلى السابق لجنين (قبل عدة أسابيع من الغزو الأخير) ، وقد قال لى انها أصيبت بشظية من قذيفة بينما كان يختفى ويمد ذراعه ليلقى " كوعا " - ماسورة متفجرة من صنع محلى - على دبابة اسرائيلية ، لكنه قد يكون فقدها فى ظروف أقل مجدا ، وربما فى احدى محاولات تحضير المتفجرات التى يحترف المخاطرة فيها بوصفه واحدا من أبرز معدى التفجيرات فى المقاومة الفلسطينية .

ويقر عمر بأنه واحد من بضع عشرات من المقاتلين الذين نجوا من الموت أو الاعتقال فى المعركة الضارية التى خاضها الفلسطينيون خلال اجتياح الجيش الاسرائيلى للضفة الغربية ، اذ

لم يبق من مجموعته التى كانت تضم ثلاثين مقاتلا سوى أربعة انسحبوا من المخيم يوم الأربعاء (٤/١٧) بعد ان نفدت الذخيرة ، فى حين استشهد الآخرون ، ويقول : لقد كنا الأفضل استعدادا بين جميع المقاتلين الفلسطينيين فى الضفة الغربية ، لقد بدأنا اعداد خطتنا منذ لحظة انسحاب الدبابات الاسرائيلية من جنين الشهر الماضى ، وكان الهدف استدراج الجنود المهاجمين الى الفخاخ ونسفهم .

أعد عمر ، مع مهندسين آخرين المئات من الأشراك المتفجرة ، واختارو أماكنها بدراية ، وقد أضاف قائلا : فخخنا أكثر من خمسين منزلا حول المخيم ، وقد اخترنا مبانى قديمة وخالية اضافة الى منازل الشباب المطلوبين من قبل اسرائيل ، لأننا كنا نعلم أن الجنود سوف يبحثون عنهم فى تلك المنازل ، كذلك قمنا بقص قطع طويلة من مواسير المياه الرئيسية وحشوناها بالمسامير والمتفجرات ، ثم وضعناها بحيث تفصل الواحدة عن الاخرى مسافة أربعة أمتار ، ومددنا بعضها عبر المنازل ، وأخفينا بعضها الآخر فى المخازن ، والمغاسل ، وأغطية الصرف الصحى ، وتحت الأرائك والأسرة .

وأمل المقاتلون ان يمنعوا تقدم الدبابات الاسرائيلية بقنابل ومتفجرات أشد قوة أخفوها فى حاويات القمامة فى الشوارع ، وكانت هناك متفجرات أكبر وأقوى مخفية فى سيارات أهم الرجال الذين تطاردهم اسرائيل ، وقد وصلوا كل تلك القنابل والمتفجرات بأسلاك بحيث يجرى تفجيرها عن بعد بتيار من بطاريات السيارات .

ويؤكد عمر ان كل أبناء المخيم ، بمن فيهم الأطفال ، كانوا يعرفون مواضع الفخاخ والمتفجرات ، ولذلك لم يكن ثمة خطر على أى من المدنيين ، لكن ذلك كان أيضا نقطة الضعف فى الخطة فقد خاننا عدد من الجواسيس فى المخيم ، وقام جنود يرافقهم المتعاونون بقطع الأسلاك الموصلة الى ما يزيد على ثلث الأشراك الملغمة ، ولولا الجواسيس فإنه ما كان بوسع الجنود أن يدخلوا المخيم أبدا ، فحالما توغلوا فى المخيم بات الدفاع عنه أشد صعوبة .

وردا على سؤال حول الكمين المتفجر يوم الثلاثاء (٢٠٠٢/٤/٩) والذى قتل فيه ثلاثة عشر جنديا اسرائيليا ، قال عمر : لقد استدرجناهم الى هناك ، فقد توقفنا عن اطلاق النار ، وخرجت النساء ، فأخبرن الجنود ان ذخيرتنا قد نفذت وأننا قد انسحبنا ، وحين تقدم الجنود الاسرائيليون ووصلوا الى المنطقة المشركة ، قامت النسوة بتنبيه المقاتلين فتم نسفهم .

عندما أدرك كبار الضباط الاسرائيليين ما حدث ، بدأوا يصرخون عبر مكبرات الصوت بأنهم يطلبون وقفا فوريا لاطلاق النار ، وقد تركناهم يتقدموا ليسحبوا جنودهم ثم فتحنا عليهم النار . واعترت بعض الجنود الاسرائيليين صدمة كبيرة وكانوا فى رعب شديد حتى انهم فقدوا القدرة على تحديد اتجاهات هروبهم فركضوا نحونا .

ويتابع عمر : يوم الأربعاء ٤/١٠ وبعد ان نفدت الذخيرة من المقاتلين ، أخذت المصفحات تجوب الشوارع وتنادى باللغة العربية : لقد انتهيتم ، ولن تستطيعوا التغلب علينا ، فنحن أكثر قوة منكم ، استسلموا ، ويقول انه رأى مقاتلا واحدا ينزل الى الشارع رافعا يديه فأطلق عليه قناص اسرائيلى النار وقتله ، أما هو (عمر) فقد اختار الانسحاب من المخيم ، ولم يقل كيف فعل ذلك .

لقد كان عمر يستخدم يده اليسرى السليمة ليطلق النار من بندقية خفيفة خلال المعركة ، وفى نهاية اللقاء ، بدت على وجهه علامات التجهم ، ومال الى الأمام قليلا ليطرح على السؤال التالى: هل تعتقد ان الأطباء سيكونون قادرين على منحى ذراعا صناعية قوية ولها أصابع تستطيع ان تتحرك ؟ أجبت : لا أدرى ولكن لماذا ؟

قال : لأننى أريد ان اكون قادرا من جديد على حمل بندقية ثقيلة ، وبذلك سأتمكن من قتل المزيد من الجنود الاسرائيليين ، والا فسأختار ان اكون استشهاديا .

* * *

٣ - ثابت مرداوى أحد قيادات الجهاد الاسلامى مسئول عن قتل وجرح المئات من الاسرائيليين : " أنا فخور بما قمت به وقدمت واجبى تجاه شعبى "

بكلمة مختصرة ثابت مرداوى ليس متأسفا على شىء ، وهو الشخص المسئول عن قتل عشرات الاسرائيليين بين ٣٠ الى ٤٠ وجرح مئات آخرين ، ويقول لقد قدمت واجبى من أجل الصراع الفلسطينى .

التقيناه امس فى ساعات الظهيرة داخل معتقل كيشون القريب من مفرق ياجور ، ومرداوى محتجز هناك لدى محققى الشاباك منذ اعتقاله قبل ١٢ يوما داخل مخيم جنين ، وقبل ذلك كان واحدا من قيادات المسلحين الذين تحصنوا فى المخيم وقادوا القتال العنيف الدامى ضد قوات جيش الدفاع الاسرائيلى التى قتلت ٢٣ جنديا وعشرات الفلسطينيين وأحدثت دمارا كبيرا فى المخيم نفسه . مرداوى هو أحد الأهداف المركزية للحملة على المخيم ، ومنذ بداية الأحداث فى المناطق قبل عام ونصف كان هو أحد القادة للجهاد الاسلامى فى شمال الضفة الغربية الى جانب على صفورى ومحمود النورسى طوالبة .

مرداوى كان متورطا فى شكل خاص بعمليات المنتحرين ، واعداد عبوات وتخطيط عمليات وفى ذمته مسجل عدد كبير من تلك العمليات االقاسية منها العملية الانتحارية فى مفرق مصمص ووادى عارة قرب معسكر ٨٠ ، وفى محطة الوقوف بنيامينا وعدد آخر .

وقد وضعته مشاركته فى تلك العمليات على رأس قائمة المطلوبين ولذلك كان متوقعا هو ان يتم اغتياله ، وكان دائما يغير هواتفه النقالة والسيارات التى يتحرك بها ، وبعد اعتقاله سأل محققى الشاباك كم مرة حاولوا فيها اغتياله وكان جوابهم : كثيرا .

كان مرداوى يطلق لحيته وكان شعره خشنا لكنه كان يتحدث بهدوء تام مفضلا اجراء المقابلة باللغة العربية ، دون ان يخلو من حديثه من بعض الكلمات العبرية ، وهو مع ذلك لم يكن متطرفا فى افكاره الدينية ، كما ان نظرة القتل لم تكن فى عينيه .

لكن مرداوى كان صانع الموت وكان فخورا بذلك ، وعندما سألناه ان كان قد اعترف بسهولة عن عملياته ، أجاب بشكل طبيعى كنت نشيطا مكشوفا وكان الجميع يعرف بطريقة أو بأخرى عن تلك الأنشطة ، ولم يكن بالامكان نفى تلك الامور ، لكننا بعد ثانية من التفكير يضيف قائلا : حتى التحقيق نفسه كان قاسيا وكنت وقتها مرهقا وجائعا .

وسألناه : ان كان تعرض للتعذيب من قبل المحققين ؟ فأجاب : لا لكنه سألنا لماذا نقوم نحن بالعمليات فأجاب : لأن هناك أصحابا لى قتلوا وابناء شعبى يقتلون يوميا ، ونحن نريد الحرية والحقوق وهى تنتزع بالقتال .

<u>وسئل مرداوى : ولكنكم لا تقاتلون الجيش ، والقتلى هم من المدنيين الأبرياء ؟</u> قال : قتل مدنيون فلسطينيون وردا علي ذلك قتل مدنيون اسرائيليون ، وقبل ان ننفذ الهجوم الأول قتل أكثر من ٣٥٠ فلسطينيا بالانتفاضة حسب الاعلام الفلسطينى ، الاسرائيليون ونحن نقتل هذه هى الحرب لا يوجد فيها قوانين ، وهم أنفسهم لا يلتزمون بمعايير الحرب ، فقد حضروا الى المخيم بالدبابات والطائرات والجرافات ونحن لم نكن نملك سوى بنادق آلية وقاذفات آر بى جى وألغاما ، ولم يكن هناك توازن فى القوة بين الطرفين ، وما فعلوه هو مجزرة فى المخيم .

<u>وفى ردكم هل هو منطقى قتل الأطفال والنساء والشيوخ ؟</u> لم أقتل أطفالا ، وأنا ضد قتلهم حتى وان كانوا اسرائيليين ، والأطفال لا يصعدون الحافلات .

<u>وسئل أيضا : كيف تختارون المنتحر ؟</u>

من أراد ان يكون شهيدا فإنه يأتى بنفسه ، ولم نكن نبحث عنهم .

يقول مرداوى : ان الانتحاريين كانوا يتوجهون الى (النورسى) وكان لديهم دافع قوى وقناعة كاملة بالاستشهاد ، ولم يكونوا بحاجة الى اقناع ، فقد كانوا يعرفون ان هناك حور تنتظرهم فى الجنة ، وكان مرداوى وأصدقاؤه بحاجة الى يوم أو يومين أو أسبوع احيانا لاعداد الهجوم ووضع الحزام على جسد المنتحر وارساله ، ومن بين تسعة انتحاريين كان مرداوى يعرف ثمانية منهم بشكل شخصى ، وفى شكل يناقض الاعتقاد السائد مسبقا ، لم يكن المرسلون يحددون هدفا للانتحارى وكما يقول مرداوى : ان الاستشهادى يستطيع ان يختار الهدف المناسب ولكن بشرط واحد ان يفجر نفسه فى مكان مزدحم بالناس .

بعد ارسال المنتحر كان المجهزون له ينتظرون النتيجة ، ويشير مرداوى الى ان الشخص الذى توجه لتنفيذ هجوم قرب معسكر ٨٠ كان يحمل هاتفا نقالا . وكان النورسى يتصل عليه

للاطمئنان لكن الهاتف كان مغلقا ، وقد حاول أكثر من مرة حتى سمعنا فى الراديو عن انفجار قرب المعسكر .

ويقول مرداوى انهم لم يحتفلوا بعد أى هجوم ، فانا لا احب ان ارى أحدا يقتل ، حتى لو كان يهوديا ، لكن هذا هو ما أوجبه اليهود علينا ان نؤديه وكان مرداوى يطبع بيانات تحمل توقيع الجهاد الاسلامى يتحملون فيه مسئولية العمليات ويرسلونها الى وسائل الاعلام ، قال : أرسلت الى وكالة رويتر .

ويضيف مرداوى : كنت مقتنعا بأن قوات الجيش ستدخل مخيم جنين بعد دخولها رام الله وقد أدركنا ذلك بعد قرارات الحكومة حول خطتهم التى يسمونها الدرع الواقى وهى ليست كذلك بالنسبة لنا لذلك استعددنا وأخذنا الاحتياطات اللازمة .

ماذا فعلتم ؟

أعد الخبراء بالمتفجرات اعد ما امكنهم ، وانتشر المسلحون انتشروا فى مجموعات داخل المخيم ، وقد أعددنا عبوات مختلفة ، منها ما هو ضد الافراد وضد الدبابات ، وكل هذه العبوات انتجت محليا عبر استخدام مواد أولية وموجودة فى أى مكان ، وبعد ذلك تم توزيعها فى الشوارع والأزقة ، وانتشرنا فى مجموعات وكنت أنا مسئولا عن مجموعة تزيد على عشرة مسلحين معظمهم أصدقائى فى الحى الذى أتواجد به ، وقد قاتلنا خلال القتال من بيت الى بيت ولم نكن نحذر الا من الطائرات .

كان مرداوى متسلحا ببندقية من نوع ام ١٦ قصيرة وقد اطلق النار على الجنود فى حالات كثيرة، يقول : فى احدى المرات كنت أبعد مترا من ثلاثة جنود وأطلقت عليهم النار ، ثم سمعت قائدهم يستخدم جهاز اتصال يبلغ ان لديه ثلاثة مصابين ، ولكنى متأكد اننى قتلت اثنين منهم .

القتال استمر تسعة أيام ومرداوى يقول انه أراد القتال حتى الموت ولكنه لم يستطع مجابهة الجرافات الضخمة التى أدخلها الجيش الى المخيم اعتقدنا ان الجيش سيستخدم الطائرات والدبابات والمشاة ، ولم نكن نتوقع انهم سيدخلون جرافات ضخمة ، أطلقنا عليها قذائف آر بى جى ولم يؤثر ذلك فيها ، وفى النهاية كانت معركة بينى وبين الجرافة ؟ ماذا يمكن العمل معها ، كان معى مصابان ، كما كنت انا مصابا بعد ان اصبت برصاصتين فى يدى ، ولم يكن باستطاعتى حمل السلاح ، لذلك سلمت نفسى .

ويقول مرداوى : فى يوم تسليم نفسه سمع من شخص كان يملك جهاز اتصال من نوع ميرس لاسلى عن خبر فى قناة الجزيرة حول عرض قدمه حزب الله لمبادلة عقيد اسرائيلى بالمحاصرين فى المخيم .

ويضيف مرداوى : أخذت هاتفا نقالا واتصلت بقيادة الجهاد الاسلامى فى سوريا وتحدثت مع

الدكتور رمضان شلح فقد كنا نتحدث فى السابق ، ولكننا لم نتقابل ، فمعرفتنا كانت من خلال التليفزيون وطلبت من شلح ان يسرع فى موضوع عرض حزب الله ، وبعد عدم وصول رد من القيادة فى اليوم الثانى استسلمت للأمر .

وبعد وصوله فقط للتحقيق سمع عن مقتل ١٣ جنديا اسرائيليا فى كمين داخل المخيم ، فكيف كان شعور مرداوى تجاه ذلك ؟ يقول : كيف كان شعوركم انتم بعد سماعكم ان النورسى قد قتل ؟ لقد قتل انه قتل بعد ان قامت جرافة بهدم المنزل الذى كان متحصنا فيه وبعد فترة تم العثور على جثته ، لقد قيل ذلك لان الوضع الذى كان فى المخيم ان يوحى بلا شك بأن مصير من فيه الموت أو السجن فمن المستحيل الخروج من هناك فى غير هذين الحالتين .

* * *

زوجتى ليست غاضبة

هو فى الخامسة والعشرين من عمره طالب فى الاقتصاد ، وهو فى السنة الثالثة فى جامعة القدس المفتوحة بجنين ، ولو لم يكن هذا حاله لكان قد تقدم لنيل درجة الدكتوراه ، فقد انضم قبل سبع سنوات للجهاد الاسلامى عندما كان معتقلا فى اسرائيل بسبب نشاطه داخل فتح ، بعد خروجه مارس نشاطا سياسيا ثم نشاطا عسكريا فى منظمة " الجهاد الاسلامى " .

قبل عدة أشهر تزوج من نداء ١٨عاما وكانت تعرف عن نشاطاته ؛ لم تكن غاضبة على " والآن هى حامل فى الشهر الثالث ، لكن ماذا يطلب مرداوى منها؟ يقول : " لتسامحنى وتحافظ على نفسها ، ولكن هل من السهل عليه عدم رؤيته للطفل المنتظر ، بالتأكيد لا فإن لكل شخص احساس .

هل انت فخور بما فعلت ؟

نعم ، أفخر بما فعلت ولكن ليس بمعنى الفرح ، وفخرى ينبع من اداء واجبى تجاه شعبى ، ويعتقد مرداوى ان الحل الأفضل هو استمرار تلك العمليات والانتفاضة ، وحسب اعتقاده فإن تنظيم الانتفاضة وفعالياتها يمكنه ان يحقق ضغطا تقوم خلاله اسرائيل بالانسحاب الى حدود الرابع من يونيو عام ١٩٦٧ .

كما ينتقد مرداوى بشدة القيادة والسلطة الفلسطينية ويعتبرها طرفا يساوم على حقوق الفلسطينيين ، ويؤكد ان نداء عرفات بوقف العمليات وادانته لها لم تدفع به الى الالتزام بذلك ومع ان مرداوى كان معتقلا لدى السلطة عدة أشهر ، الا انه لا يتوقع ان تقوم السلطة بطلب الافراج عنه فى حال وجود اتفاق سياسى مستقبلى بين الجانبين ، ولكن كم يتوقع ان يمكث مرداوى فى السجن ؟ " شهر " هكذا أجاب مرداوى مازحا ، ويضيف ان خطف البعض جنودا سأكون مسرورا .

لماذا وافقت على اجراء اللقاء ؟ ليس لدى مشكلة فى توضيح موقفى أمام الصحفيين .

(القدس المحتلة : ٢٠٠٢/٤/٢٣ - صحيفة معاريف العبرية)

٢ - قصة مجاهد آخر من خيرة المجاهدين فى المخيم : استشهاد القائد المجاهد الشيخ رياض بدير

تنعى حركة الجهاد الاسلامى فى فلسطين ، الى جماهير شعبنا الفلسطينى البطل ، وأمتنا العربية والاسلامية المجيدة استشهاد شيخ المجاهدين ٠٠الشيخ القائد رياض بدير (٥٦ عاما) من طولكرم٠

ان الشيخ المجاهد الذى طالما وقف خطيبا فى الجماهير داعيا الى الجهاد والاستشهاد ما ان سمع باجتياح قوات العدو لمخيم جنين حتى خرج شاهرا سلاحه ملتحفا بإخوانه المجاهدين المدافعين عن المخيم ٠

وان حركة الجهاد الاسلامى التى تابعت مع مجاهديها فى الميدان بشكل دائم أخبار المعركة ، التى بقى فيها الشيخ رياض صامدا مقاوما ضد جنود الاحتلال حتى نفاد ذخيرته ، لتؤكد ان المجاهدين ذكروا عبر اتصالاتهم ان آخر جيوب المقاومة كان مؤلفا من سبعة وعشرين مجاهدا على رأسهم الشيخ المجاهد رياض بدير ، الذى ظل صامدا حتى الحادى عشر من ابريل ، رافضا الاستسلام برغم الجوع والعطش ونفاد ذخيرته ٠

وأكد المجاهدون أن الشيخ المجاهد بقى مقاوما صامدا فى أحد البيوت حتى حاصرته قوات العدو طالبة منه الاستسلام ، فرفض الخروج مستسلما ، فقامت قوات العدو الارهابية بهدم البيت عليه وقد وجد الأهالى جثته الطاهرة تحت الأنقاض محتضنا سلاحه وقرآنه ٠

اننا فى حركة الجهاد الاسلامى نعتبر ان الكيان الصهيونى قد سجل جريمة جديدة من جرائمه المتواصلة ضد شعبنا الفلسطينى ، وان دم الشيخ المجاهد رياض بدير سيصنع منه درب من دروب المقاومة والحرية حتى يندحر الاحتلال عن كامل ترابه الفلسطينى ٠

المجد للشهداء والنصر لشعبنا وأمتنا (حركة الجهاد الاسلامى فى فلسطين ٢٠٠٢/٤/٢٣)

من هو الشيخ رياض بدير ؟

طلب الشهادة واختارها فى جنين

الاسم : رياض محمد على بدير

العمر : ٥٦ عاما

السكن : مدينة طولكرم

والشيخ الشهيد مسئول حركة الجهاد الاسلامى فى منطقة طولكرم ، ومن أبرز المطلوبين لجيش الاحتلال الصهيونى ، وسبق أن اعتقلته أجهزة أمن السلطة ، وخرج بعد ان ضربت الطائرات الحربية الصهيونية من طراز (F 16) مقر المقاطعة التى يوجد فيها السجن ، وقد تمكن عدد من المجاهدين الفلسطينيين من اقتحام مقر السجن بعد الصاروخ الأول وإخراج المعتقلين وانقاذ حياتهم وكان الشهيد المجاهد قد اعتقل عدة مرات لتعبيره عن موقف حركة الجهاد الاسلامى ، الداعى الى استمرار الجهاد والمقاومة ضد العدو الصهيونى ، وأصيب الشيخ المجاهد قبل شهور عدة بجروح فى ساقيه أثناء التصدى لقوات الاحتلال اثناء محاولتها اقتحام مخيم نور شمس ٠

وقد أبى الشيخ المجاهد الذى طالما دعا الى الجهاد والاستشهاد الا ان يخرج شـــاهرا ســـلاحه ملتحقا بإخوانه المجاهدين المدافعين عن مخيم جنين البطولة ، وظل صامدا مقاوما ضد جنـــود العدو حتى نفاذ ذخيرته ، وأبى الاستسلام برغم الجوع والعطش ونفاد الذخيرة .

وقالت حركة الجهاد الاسلامى فى بيان نعيها للشهيد القائد ان المجـــاهدين أكـــدوا ان الشـــيخ المجاهد بقى صامدا فى أحد البيوت حتى حاصرته قوات الاحتلال طالبة منه الاستسلام ، فرفض الخروج مستسلما ، فقامت قوات العدو الارهابية بهدم البيت عليه ، ووجد الأهالى جثته الطاهرة تحت الأنقاض محتضنا سلاحه وقرآنه .

وكان أحد المجاهدين المحاصرين فى مخيم جنين قد أعلن عبر اتصالاتهم مع قيادة حركة الجهاد الاسلامى بأن آخر جيوب المقاومة كان مؤلفا من سبعة وعشرين مجاهدا على رأسهم الشـــيخ المجاهد رياض بدير الذى ظل صامدا حتى الحادى عشر من نيسان رافضا الاستسلام حتى لقـــى الله شهيدا مقبلا غير مدبر .

نعم انه الشيخ المجاهد الشهيد : أبو عبد الفتاح الذى باع بيته وسيارته ليشترى سلاحا يجـــاهد به وكان معه السلاح الذى ما فارقه الا بعد انتشال جثمانه من تحت الأنقاض حتى انهم ســـحبوا أصبع السبابة من خلف الزناد أى انه أطلق الرصاص حتى آخر لحظة .

لك الجنة يا شيخنا المعلم كنت أستاذا فى عملك وفى جهادك وفى مماتك لك الرحمـــة ولذويـــك الصبر والسلوان .

هذا وقد شيع آلاف الفلسطينيين فى مدينة طولكرم جثمان الشهيد الطاهر الذى لبى نداء الواجب عندما سمع بمحاصرة مخيم جنين وصمد مع اخوانه المجاهدين وقاوم معهم حتى آخر رصاصة كانت بحوزته ليقوم جيش العدو بقصف المنزل الذى كان الشيخ متمرسا فيـــه أثنـــاء جـــهاده للعدو . . رحم الله شهيدنا القائد وأسكنه فسيح الجنان مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا .

(حركة الجهاد الاسلامى فى فلسطين ٢٠٠٢/٤/٢٤)

ماذا تقول الصحافة الدولية عن ملحمة جنين :

فى كتابه التوثيقى المعنون بـ (مخيم جنين ٠٠ الصمود والمجزرة) والصادر عن مركز جنين للدراسات الاستراتيجية أبريل ٢٠٠٢ - عمان - الأردن يذكر توفيق أبو بكر ان التاريخ الشفوى يشكل فى عالم اليوم أحد أهم أشكال التوثيق لما يجرى على أرض الواقع من حقائق ، وقد قاموا به فى تاريخهم لما أسموه : البطولة والكارثة (ياد فاشيم بالعبرية).حيث يحتفلون كل عام، وفى كل مكان من العالم يتواجدون فيه لإبقاء الهولوكوست (المحرقة) حية فى الأذهان من أجل الاستمرار فى استدرار عطف العالم ، آن الآوان ان نعكس سير التاريخ وأن نقوم نحن الفلسطينيون هكذا يقول توفيق بكر بتسجيل التاريخ الحى لما تعرضنا ونتعرض له من مذابح على أيدى ضحايا الأمس الذين يقلدون الجلاد كأسوأ ما يكون التقليد ، لم نتمكن من تسجيل شهادات حية لمن تعرضوا للمذبحة فى دير ياسين عام ١٩٤٨ ، وفى قبية ونحالين - على أيدى ضابط القوات الخاصة ارئيل شارون ، وهناك مذابح انطمرت مع هدم التراب على ضحاياها ومنذ فترة بسيطة فقط قام باحث اسرائيلى يحضر دراسة للماجستير بكشف النقاب عن مذبحة الطنطورة ٠٠ البلدة الساحلية قرب حيفا ، والمؤرخون الجدد فى اسرائيل بكل ما لهم وما عليهم كشفوا النقاب عن مجازر قامت بها عصاباتهم محددة لتسجيل الشهادات بعد مذبحة صبرا وشاتيلا وأقامت جامعة بيرزيت مركزا للأبحاث يعنى بمثل هذه الشهادات ونشط البروفيسور الفلسطينى د٠ هشام شرابى فى العمل من اجل احياء التاريخ الشفوى للشعب الفلسطينى وتحرك العديد من المؤسسات وانطلق العديد من المبادرات لتسجيل شهادات من تبقوا أحياء من أبناء فلسطين الذين غادروا مدنهم وقراهم عام ١٩٤٨ ، قبل ان يرحلوا ويتواروا عن الأنظار ويأخذوا شهاداتهم معهم نحو القبور ، ولاتزال كل تلك المبادرات قاصرة عن أداء الواجب ، وبدلا من أن يبنى الفلسطينيون عشرات المؤسسات ومراكز الدراسات ، انهار مركز الأبحاث الذى شكل الحارس الأمين على التراث والتاريخ الفلسطينى وتوجه الغزاة الذين اقتحموا بيروت عام ١٩٨٢ أول ما توجهوا نحو ذلك المركز فى منطقة الحمراء ونهبوا ملفاته وأرشيفه لمحو ذاكرة الشعب الفلسطينى ، ومن يفقد الذاكرة لا يعود قادرا على بناء المستقبل المتصل بالماضى والمتواصل معه ، وبعد أوسلو وبدء بناء الكيان الوطنى الفلسطينى تنبهوا للكثير من مستلزمات البناء ولكنهم أهملوا اعادة بناء مركز الأبحاث الفلسطينى الذى كان شامخا فى السبعينيات ومطالع الثمانينيات وتوجهت الطرود الاسرائيلية الناسفة لرئيسه د٠أنيس الصايغ الذى فقد السمع وهو اليوم فاقد البصر من تأثير ذلك الطرد الناسف الذى انفجر فى وجهه ، وحين دخلوا مركز الأبحاث عام ١٩٨٢ فى بيروت قتلوا زوجة رئيس المركز السيد صبرى جريس الذى عاد للوطن بعد أوسلو ولكن دون زوجته السيدة حنة ، لقد بادرت مؤسسة

التعاون الفلسطينية فى الذكرى الخمسين لنكبة فلسطين ، الى تبنى فكرة انشاء متحف للذاكرة الفلسطينية ليكون صرحا شامخا للتاريخ الشفوى فيه حيز واسع يسير بناؤه بثبات وترسخت فكرة اقامته التى قطعت شوطا كبيرا وليكون له مجلس أمناء من شخصيات عالمية ويتم بناؤه على أحدث طراز ويستفيد من أحدث التكنولوجيا فى العالم ، واذا كان لرواية مجزرة دير ياسين مكان فى المتحف فان رواية مجزرة مخيم جنين يجب ان يكون لها مكان كبير فى هذا المتحف.

يقول توفيق أبو بكر اننى اتصل يوميا بجنين وآمل ان يستكملوا تسجيل كل الشهادات الحية دون استثناء أحد من الذين عاصروا الصمود ورأوا المجزرة عن قرب وعايشوا التفاصيل الصغيرة ذات الأهمية الكبيرة فى استكشاف معالم الصورة ، لرواية ما حدث للأجيال والعالم ، وفى عالم اليوم فإن أمامنا روايات عديدة لصحف عالمية ووسائل اعلام واسعة وأمامنا شهادات لعدد من كبار العاملين فى المؤسسات الدولية وفى مؤسسات الأمم المتحدة وفى المقدمة رواية تيرى لارسن الذى قال ان ما شاهده كان دمارا هائلا .

وفيما يلى نماذج مما تحدثت عنه الصحافة العالمية عن مجازر جنين :

(١) تذكر الواشنطن بوست من خلال مراسلها الذى توجه الى جنين ان الفلسطينية تمام رجا بقيت تحت بطانيتها وهى ترتعد عندما كانت تسمع صرخات الاستنجاد من جيرانها الذين انهار المنزل عليهم اثر اطلاق طائرات الهليوكوبتر الاسرائيلية صواريخها على مجموعة من المنازل وقالت تمام (٤٤عاما) للواشنطن بوست ان الاسرائيليين أطلقوا النار بشكل عشوائى على نوافذ المنازل فى المخيم واستخدموا المدنيين دروعا بشرية للانتقال من منزل الى منزل وقطعوا رؤوس الكنارى التى يملكها شخص من سكان المخيم يعمل فى مجال تربية الطيور ، ليت هذا الرجل يظهر على شاشات التلفزة العالمية ويتحدث عما فعلوه بطيوره ليعرف العالم من هم أعداء الطيور والعصافير فى هذا العالم ، تقول تمام انهم أصابوا من خلال رصاص القناصة زوج ابنتها فى الطابق العلوى من المنزل ولم يتمكن أحد من نجدته ثم انهالت الصواريخ لتحيل المنزل الى رماد ويتوقف الشاب عن الاستغاثة ، يقول محمد على للصحيفة انه تجرأ ونظر من نافذة المنزل ليرى خمس جثث تحت ركام مبنى مجاور بينهم طفل صغير وفى موقع آخر من المخيم حسب رواية الممرض أسعد حشاش فقد قتلوا رجلا فى السبعين من عمره أطلق عليه قناص الرصاص وقتلوا راعيا للأغنام ولم يسمحوا كما هو معروف لسيارات الاسعاف بالتحرك لنقل المصابين الذين نزفوا حتى الموت ، لقد نشرت الواشنطن بوست احتراما لمهنتها العديد من الشهادات الحية التى حملها مراسلوها ومندوبوها الذين سارعوا للتوجه للمخيم ونجحوا أحيانا فى دخوله اثناء القتال المحتدم ثم دخلوه بعد ذلك حين توقف القتال ، لقد تعرضت الصحيفة لحملة واسعة من الغاء الاشتراكات ووقف الاعلانات قام بها يهود متعصبون ، اذ يوجد فى الولايات المتحدة نفسها يهود ليبراليون يشعرون بالعار لما تفعله الدولة اليهودية التى نصبت نفسها ناطقة باسم يهود العالم ، وردا على ذلك قامت

البوست وشبكة A B C باستطلاع للرأى العام فى أوساط شريحة من الامريكيين اتضح من خلاله انحسار التأييد الشعبى الأمريكى لاسرائيل اذ قال ٦٠% من الذين جرى استطلاع رأيهم انه على اسرائيل التفاوض مع ياسر عرفات (الذى يقول عنه شارون انه معزول وغير ذى صلة ويقول عنه بن اليعازر انه أدى دوره التاريخى وانتهى) وقال ٥٤% انهم يخشون من ان الدعم الامريكى يشكل لاسرائيل خطرا على مصالح الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط وعلى حملتها ضد الارهاب وقال أكثر من نصف المستطلعين انه يجب وقف المساعدات الامريكية لاسرائيل (والتى يدفعها دافع الضرائب الامريكى) اذا لم تستجب للمطالب الامريكية فى الانسحاب السريع من مناطق السلطة الفلسطينية .

(٢) الصحف البريطانية الرئيسية : فى الاندبندنت والجارديان والتايمز تغطية واسعة لما حدث من مجازر فى المخيم فاقت فظائع البوسنة وكوسوفو والشيشان وكذلك فضح لمحاولات اسرائيل اخفاء الحقائق وطمر الجثث تحت الأنقاض ، تكتب الاندبندنت من خلال مراسلها فيل ريفيز حول ما شاهده بأم عينيه من دمار فى هذا المخيم الصغير والمكتظ بالبشر ، يقول المراسل انه شاهد بنفسه جثة فتاة ملقاة على الأرض يتكاثر حولها الذباب وفى مبنى آخر شاهد جثة أشرف أبو حجر بين أنقاض غرفة منهارة غطاها السواد وفى منزل ثالث كانت هناك خمس جثث ملقاة مغطاة بالبطانيات وقد مر عليها زمن وينقل المراسل عن ابن المخيم كمال أنيس الذى شاهد بعينيه الجنود الاسرائيليين يكدسون (٣٠ جثة) تحت أنقاض وقد تكررت هذه الرواية على لسان عديدين من المراسلين وأبناء المخيم الناجين الذين تحدثوا عن دفن الجثث فى ساحة المخيم وتحت الأنقاض . الجارديان البريطانية تؤكد الروايات حول المذابح التى زادت حدتها بعد مقتل ثلاثة عشر جنديا اسرائيليا أغلبهم من جنود الاحتياط ، اذ تنقل الصحيفة عن ابنة المخيم عائشة صلاح ان الجنود كانوا يحملون خرائط توضح بدقة المنازل التى يريدون تجريفها ، مراسل صحيفة التايمز البريطانية الذى دخل المخيم كان عنيفا فى مقاله فى الصحيفة اذ أكد المراسل جانيتى دى جيوفانى ان الفلسطينيين الذين التقاهم لم يبالغوا حسب الادعاء الاسرائيلى ، بل ربما هونوا من الأمر وتحدثوا عن المنطقة التى يعيشون فيها فقط ، يقول المراسل انه رأى جثة بشير وقد تفحمت تحت الأنقاض ، وكان الرأس متجها صوب الباب كما لو كان يطلب النجدة ، وعسران أبو هديل الذى كان محترقا بين كتل الأسمنت ويداه ممدودتان كما لو كان لحظة احتضاره يحاول النجاة من بين الأنقاض والكاتب يؤكد انه على مدار عقد من الزمان قام بتغطية حروب ومجازر البوسنة والشيشان وكوسوفو وسيراليون ولكنه لم ير مثل هذا التدمير المتعمد ومثل هذه الاستهانة بحياة البشر كما رأى فى جنين ، تأتى هذه الشهادة القاسية جدا من صحيفة متزنة ليست معروفة بأنها مؤيدة للفلسطينيين والعرب ولكن الحقيقة كانت ساطعة

والمذبحة هائلة لا يستطيع أى صحافى منصف بدرجة أو بأخرى ، ان يتجاهل مناظرها المروعة ، وربما ساهمت هذه الشهادات التى قرأها ملايين القراء فى تحريك المظاهرات فى كل أنحاء أوروبا ، هذا الأمر كان بعيدا عن تصور شارون وحكومته .

(٣) فى الصنداى تايمز الأسبوعية كتب حامى ترابيه بأن نقل المصابين للمستشفى عملية صعبة وبطيئة اذ تحيط بالمستشفى ١٢ سيارة عسكرية اسرائيلية ويقوم الجنود بتفتيش دقيق لسيارات الاسعاف مما يعنى امكان وفاة المصابين او استحالة علاجهم ، يقول مراسل الصحيفة ان معرفة عدد الذين سقطوا فى المخيم لايزال متعذرا ، ففى ثلاثة أيام قضاها فى المخيم شاهد تسع جثث وهناك جثث تحت الأنقاض واناس قلقون لا يعرفون شيئا عن أهلهم ، العمل بحرية كان صعبا جدا داخل المخيم ، حسب روايته ، اذ فى كل مرة شاهده الجنود قاموا باعتقاله واخراجه خارج المخيم.

(٤) فى المانيفستو الايطالية يكتب ميكيلى جورجو مقالا مؤثرا بعد ان قام بتغطية الأحداث داخل المخيم ، يقول الكاتب : لقد استوعبنا الأسباب التى أدت الى منع الصحافة لأيام كثيرة من دخول المخيم ،لقد أحالوه الى ركام وكأنه تعرض الى زلزال عنيف بلغت قوته أعلى درجات سلم ريختر . لقد شاهدت ، يقول المراسل : خمس جثث متفحمة مكدسة فى غرفة والبيت ليس مدمرا ، مما يوحى انهم قتلوا عبر انفجار او وسيلة اخرى ، فى بيت آخر شاهد زميلى جثة مقطوعة الرأس فى حارة الحواشين التى دمرت تماما كانت هناك جثث عديدة ولاتزال الجثث تحت أطنان الركام . صرخ محمد رايدة فى وجوهنا : ماذا فعل العالم لنا ، أنتم كذابون ، لقد شعرت بالعجز فعلا أمام هذه الصرخة ولكن أى صامت على هذه الجريمة لأية أسباب هو شريك فى جريمة الحرب هذه . الشعب الفلسطينى يتعرض للاضطهاد والقتل والتدمير لأنه يطالب بسلام عادل ويرفض املاءات القوى لسلام مفروض ، ما حدث فى جنين انما يمثل جريمة حرب بكافة المقاييس ، سيتم فى يوم ما تقديم المسئولين عنها للمحاكمة .

(٥) الصحافة الفرنسية قامت هى الاخرى بتغطية واسعة وأمينة لما حدث فى مخيم جنين ، صحيفة لوماتينيه الناطقة باسم الحزب الشيوعى الفرنسى كانت الأكثر تغطية للمجازر ، كتب بيار باربانسى ان الجيش الاسرائيلى حول وسط مخيم جنين الى ما يشبه ما حدث فى برلين عام ١٩٤٥ بعد استسلام ألمانيا واعلان نهاية الحرب العالمية الثانية ، ويكتب فى الصحيفة انه شم رائحة الجثث وشاهد أكواما من النفايات وظروفا صحية مريعة وأطفالا ونساء يصرخن وهن يحملن أطفالهن لأنهن لم يعدن قادرات على تنظيفهم بسبب النقص فى المياه ، لقد رأيت جثة فى اليوم الأول وسط المخيم ورأيت جثتين آخريين تحت الركام ، وبحسب الشهادات التى أكدها صحفيون آخرون فان الجيش كان يرمى الجثث فى حفرة كبيرة فى وسط ساحة الحواشين ثم تطمر بعد ذلك ويقوم الجيش بوضع ركام البيوت المهدمة فوق تلك الحفرة .

لقد وصل مراسلو وكالات الأنباء العالمية تباعا لمخيم جنين ، يقول مراسلو وكالة فرانس برس نقلا عن تمام زهدى التى لم تفتح الباب الا عندما سمعت صوت الصحفيين يتحدثون اللغة العربية ان الاسرائيليين أخذوا زوجها وجمعوا سبعة وعشرين شخصا فى غرفة واحدة لمدة خمسة أيام ، وتركو الأسر دون حليب أطفال ودون طعام ، وتشجعت زهرية محمود خضر وهى فى الثالثة والستين من عمرها للحديث مع المراسلين حين اطمأنت وهم يتحدثون العربية وقالت لهم : هذه شظايا القذيفة التى قتلت ابنى ، أما زوجى فهو فى المستشفى بين الحياة والموت ، عبد الله صالح (٥٤سنة) قال لهم انهم احتجزونا وكنا خمسة وخمسين شخصا فى غرفة واحدة ، كنا ننام مع كلابهم ، أحمد محمد خليل فى السبعين من عمره أبلغ صحفيى الوكالة الفرنسية ان شقيقته يسرى وقد جاوزت السبعين من العمر لقيت حتفها فى المنزل وقد بقيت جثتها فى البيت ، لا أحد يستطيع اخراجها ودفنها ، فريال حسين مضامن قالت لهم ان قذيفة سقطت على بيت صديقتى عفاف الدسوقى التى هربت الى الشارع ولكن قذيفة اسرائيلية قتلتها فى الشارع ، وتوالت الروايات حول المحاولات الاسرائيلية لاخفاء معالم الجريمة بدفن الجثث فى الأغوار أو فى الجولان وفى رواية ثالثة قال مراسل وكالة الانباء الفرنسية ان فتاة عربية من قرية أبو كف البدوية داخل اسرائيل أكدت انها شاهدت عمليات دفن فى قرية بناطين الغربية وقالت وهى ترتجف خوفا انها شاهدتهم وهم يسحبون جثثا من شاحنتين ويضعونها فى حفر ثم يدفنونها بالجرافات ، كان الجنود الذين قاموا بذلك يرتدون قفازات ويغطون أقدامهم بالبلاستيك ، وفى روايات اخرى نقلتها وكالات الانباء العالمية قال احد الناجين الذين انتقلوا للقرى المجاورة ، كفردان او رمانة ، رأيت الجثث على قارعة الطريق وقد قمنا بدفن عدد منها فى الشارع نفسه تحت الوحل ، وقال أبو محمد لمراسل فرانس برس : لقد تم تقييدى وعصبوا عينى قبل اقتيادى ، مع حوالى تسعين شخصا الى معسكر سالم قرب جنين حيث جمعوا هناك المئات من أبناء المخيم ، أجبروا الجميع على نزع الثياب وعرضوهم للضرب المبرح دون سؤال عن أى موضوع ودون توجيه أية تهمة ، قال أبو محمد : لقد بقيت كما بقى غيرى راكعين لساعات طويلة مقيدى اليدين والرأس منحنين الى الأرض ، لن ننسى ذلك أبدا .

(٦) الصحف الألمانية اشتركت بنشاط فى فضح هذه الجريمة وكتبت دير شبيجل - الصحيفة الأكثر انتشارا - حول مخيم جنين وقالت بعد جولة لمندوبيها ومراسيها انه لم يبق فى المخيم سوى رائحة الموت والدمار والجوع والألم والحرمان ، ان هناك صعوبة بالغة فى معرفة عدد القتلى للتعتيم الذى فرضته قوات الاحتلال ،تقارير المؤسسات الدولية تتحدث عن مصرع المئات تحت الأنقاض ، الناطق الرسمى باسم وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين قال ان حجم الأضرار داخل المخيم كبير جدا لدرجة أعتقد فيها المرء للوهلة الأولى بأن المنطقة ضربها

زلزال مدمر،الاسرائيليون تحدثوا فى البداية عن قتل المئات فى مخيم جنيـــن لكنـــهم عـــادوا وسحبوا ذلك التصريح وشمعون بيريز قال ان ما حدث سيعتبره الفلسطينيون مجزرة ثم ســحب ما نسبوه اليه. الناطقون باسم الهيئات الدولية أكدوا حسب دير شبيجل ، ان القوات الاسرائيلية اقترفت مذبحة جماعية بأوامر من قادة الجيش ، والاثروا (وكالة غـــوث وتشـــغيل اللاجئيـــن الفلسطينيين) تمتلك احصاءات بأسماء سكان المخيم وستحاول معرفة من تبقى ومـــن لايـــزال مفقودا ، لكن المشكلة انه قد تجمع فى المخيم مقاتلون من عدد كبير مـــن القـــرى المجـــاورة لخوض هذه المعركة الفاصلة واسماؤهم غير معروفة لوكالة الغوث فقد كان من بينهم القـــائد ثابت المرداوى القادم من بلدة عرابة ، أحد أبرز قادة سرايا القدس الجناح العســكرى لحركـــة الجهاد الاسلامى فى فلسطين وهناك آخرون تجمعوا من قرى عديدة وبعضهم وجد فى المخيـــم فرصة للقتال وجاء من مناطق بعيدة ، ان الأمر سيحتاج الى فترة أطول لمعرفة كل الحقائق .

(٧) وتنقل كريستيان ميللر (لوس انجلوس تايمز) انها تحدثت الى أشخاص عديدين قالوا انهم رأوا الجنود الاسرائيليين يطلقون النار على مدنيين غير مسلحين ويمنعون الجرحـى والمصابين من البحث عن علاج طبى ، الممرضة لوفيا طعيمة من أحد المراكز الطبية التابعـــة للأمم المتحدة فى المخيم قلت فى شهادتها التى نشرتها الصحيفة انها شاهدت من خلال فتحـــة فى شباك رجلا يمشى فى الشارع ممسكا ببطنه وهو يصرخ : أريد طبيبا لا سلاح معى ، أريـــد الذهاب الى المستشفى فما كان من الجنود الا ان أطلقوا عليه النار وأردوه قتيلا ، الممرضـــة وشاهد آخر هو بهاء عواد أكدوا ان الجيش لم يسمح لعائلة بإخراج ابنها المعاق ذهنيا بعـد ان طلبوا منهم الخروج من المنزل على الفور وبدأوا هدم المنزل بالجرافات ، بقى المعاق ذهنيا فى المنزل رغم صراخ الأهل واستغاثتهم وردموا المنزل عليه وبقى تحت الأنقاض ، هكذا كـــانت نهاية الشاب جمال (٣٨ سنة) المصاب بشلل تام منذ أن أصيب فى حادث فى طفولته ، قال والد هذا الشاب الذى جاوز السبعين من عمره لوكالة أنباء رويتر : اننى ميت وهذا قبرى ، مشـــيرا الى ركام منزله الرابض أمام عينيه حيث تحول المنزل الأنيق ذو الطوابق الثلاثة فى ثوان الـــى انقاض رقد تحته ابنه المعاق حيث أعطوهم دقيقة واحدة للخروج من المنزل ، قـــالت أم رائـــد القريمى لمراسلى وكالات الأنباء وهى تجهش بالبكاء : لقد لاحقتنا جرافاتهم من بيت الى بيـــت ثم وصل الجنود واقتادوا زوجى وولدى ، لقد قتلوا جارنا رجا أبو السباع (٧٠ عاما) بدم بـــارد وقتلوا زوجته وابنة جارنا عيسى الوشاحى ، قال الفتى انطوان جمال : انهم أمروا الشباب من سن ١٥ – ٤٥ بالخروج فخرجت والتقيت فى طريقى المواطن جمال الصباغ المصاب بمـــرض السكرى حيث طلبوا من الجميع خلع الملابس وحين حاول جمال تناول الدواء الخاص به أطلقوا عليه النار وأردوه قتيلا .

تلك نماذج من هذه الشهادات الحية التى نقلتها صحف أوروبا والعالم والتى تكشف عن الوجه الاجرامى فى ألة العداون الصهيونى وما قامت به من مذابح فى مخيم جنين الذى صمد أهله ٩ أيام فى وجه العدوان الصهيونى النازى بدون عون أو مساعدة عربية أو دولية .

(٨) ماذا يقول الاسرائيليون عن المجزرة : يخشى الاسرائيليون من تعبير " المجزرة " لوصف ما حدث فى مخيم جنين وهم قلقون جدا من هذا التعبير ومن وسائل الاعلام العالمية التى تنقل صور الموت والدمار فى المخيم ولهذا هم كانوا قلقين من لجنة تقصى الحقائق التى تم رفضها فيما بعد ، وكما قال وزير الخارجية كولن باول لشمعون بيريز الذى حاول ان يتصدر محاولات تقييد اللجنة حتى يتخلص من التعبير الذى انطلق منه فى لحظة صفاء ضمير : ما فعلناه سيعتبرونه مجزرة ، قال له : اذا لم يكن لديكم ما تخفونه واذا كان ما حدث هو قتال دام فلماذا تخشون عمل اللجنة ؟ والاعلام الصهيونى الذى انطلق فى حملة دفاعية ضعيفة يتبنى منطق ان ما حدث هو قتال دام وسط مناطق سكنية ولهذا وقع الدمار وأن الحرص المزعوم على عدم قتل المدنيين ، وهو حرص تنفيه عشرات الجثث التى شاهدها صحفيو العالم ، هو الذى أدى لاطالة أمد القتال وسقوط ثلاثة وعشرين جنديا اسرائيليا وكان يمكن إبادة المخيم بطلعات اف ١٦ وينتهى الأمر دون قتلى ، هذا المنطق هو منطق سخيف اذ كيف يمكن عندئذ تبرير هدف الحملة العسكرية المعلن وهو اعتقال مطلوبين وجمع أسلحة ،وتدمير معامل صنع المتفجرات .

ان الاجماع فى الكيان الصهيونى ومن خلال متابعة الصحف الاسرائيلية يتركز على نفى تعبير المجزرة لما حدث فقط هناك بعض الأصوات الخافتة التى تسمى بقوى اليسار او السلام تنتقد ما تم ولكن بلغة باردة دفاعية لا انسانية بها ولا صدق .

فى صحيفة (يديعوت أحرونوت) ينقلون عن أحد جنود الاحتياط الذين عملوا فى مدينة جنين قوله : قيل لنا بوضوح حطموهم ، وأطلقوا النار على كل شىء فى المنطقة التى تطلق عليكم النار منها ، فى احدى الليالى كنت حارسا وسمعت طفلة تبكى خلف جدار ، لقد تُعرضنا لنيران كثيفة .. هذا صحيح لكننا أبدنا مدينة ، ربما تكون شهادة هذا الجندى وغيره من الجنود التى دفعت بالحكومة الاسرائيلية الى ان تطلب من لجنة تقصى الحقائق ان تكتفى بسؤال الجنود والضباط الذين تحددهم قيادة الجيش فقط ، لا ان تملك صلاحية مساءلة أى جندى ، وذلك لانهم يعرفون ان هناك جنودا وضباطا قد يكونون على استعداد لقول الحقيقة او جزء منها ولهذا أصروا على هذا المطلب ، لو لم يكن لديهم ما يخشون البوح به لماذا يصرون على هذا الأمر ، ولماذا يصرون ان هذه الشهادات يجب ألا تعرض أحدا لمساءلة قانونية أمام لجان تحقيق محاكم دولية .

بالمقابل وهذا هو وجه الملحمة الذى لا ينبغى ان ينكر أو يتجاهله عربيا يكتب ناحوم بارنياع فى يديعوت (٤/١٥) ان أحد دروس معارك جنين ان الدخول ليس نزهة ، فقد تلقى الجيش الاسرائيلى ضربة قوية وأدخل بعدها الأسلحة الفتاكة للحرب كالجرافات الجبارة لسلاح الهندسة

، وبدلا من أن يسير الجنود من بيت الى بيت سارت الجرافات من بيت الى بيت ، الجنود دفعوا الثمن والعالم لايسلم بخطوات اسرائيل العسكرية ، أمريكا تضغط ، أوروبا تقاطع والزمن قصير ، ما جمعناه فى جنين وما اعتقلناه من مطلوبين مؤقت ولهذا تحدث شارون فى الكنيست عن أسوار واقية متناسيا ان العالم لن يسمح بذلك مرة ثانية ، سيحاول الفلسطينيون جمع الجثث وعرضها أمام عدسات الكاميرات لاثبات جريمة الحرب ، لذلك فإن اسرائيل ملزمة بنقل الجثث الى الأراضى الاسرائيلية ،اذا لم تجد اسرائيل السبيل الى دفنهم دفنا محترما فانهم سيدفنونها ، البروفيسورة تانيا واينهرت فى جامعة تل أبيب تكتب قائلة : انه حسب شهادات جنود وضباط الاحتياط الذين عملوا فى مخيم جنين كانت الأوامر واضحة : اطلاق النار على كل نافذة وتطويق كل بيت سواء أكانوا يطلقون النار منه أم لا ، سيمر وقت قبل ان نستوعب ما فعلناه فى جنين وما فعلناه بأنفسنا ، صديق عزيز لقى حتفه قبل أيام فى سيناء : انه رسام ومفكر من دائرة الرافضين ، قاتله كان مصريا ، لقد بحث القاتل عن ثأر من قتلة الشعب الفلسطينى ، هكذا نقيم ضدنا كل العالم الإسلامى . وأيضا يكتب زئيف شيف - وهو أبرز معلق استراتيجى اسرائيلى فى هاآرتس - ويقول ان الفلسطينيين سيبذلون مجهودات لتخليد الانتصار البطولى الفلسطينى فى معركة جنين بعد الصمود فى مواجهة القوة العسكرية الهائلة للجيش الاسرائيلى سيتباهى الفلسطينيون بمقاتليهم الذين لم ينسحبوا ولم يستسلموا وقاتلوا حتى الموت ، سيتردد الفلسطينيون بين روايتين فى عرض الأسطورة : معركة بطولة ، ومجزرة قام بها الجنود الاسرائيليون فى أوساط مدنيين ، مثلما حدث فى صبرا وشاتيلا . زئيف وهو المطلع وثيق الصلة بالأجهزة والسياسيين وهو مراسل عسكرى فى الأساس يقدر عدد القتلى الفلسطينيين فى جنين بحوالى مائتين ، الا ان عدد الشهداء يزيد عن ذلك أضعافا مضاعفة .

ميرون بنفستى وهو كاتب صهيونى (يسارى) يرى ان مخيم جنين سيكون مشابها فى التأثير الجماعى على الذاكرة الفلسطينية لما حدث فى دير ياسين عام ١٩٤٨ ، التى ارتكبت فيها رجالات العصابات الصهيونية مجزرة ضد المدنيين ، ولايزال الفلسطينيون يحيون ذكراها فى كل عام وقد صدرت حولها عشرات الكتب والمؤلفات آخرها الكتاب الذى حرره د. وليد الخالدى . يقول بنفستى : أربعة وخمسون عاما مرت منذ مذبحة دير ياسين وها هى مذبحة جنين تضاف الى الرزمانة الفلسطينية المثقلة بالمآسى وهناك دلائل عديدة تشير الى ان جنين ستنضم الى دير ياسين كأسطورة وطنية

الفصل الرابع
شهادات عن المجزرة

أيها الموت انتظرني خارج الأرض
انتظرني في بلادك ، ريثما أنهي
حديثا عابرا مع ما تبقى من حياتي

محمود درويش
في جداريته

نتناول فى ها الفصل اللحظات الأخيرة فى الملحمة ، ملحمة جنين القسام ، تلك الملحمة التى كان بطلها شعب جنين وفارسها محمود الطوالبة قائد سرايا القدس وابن حركة الجهاد الاسلامى ، ترى ماذا تقول تلك اللحظات وماذا يقول قادة الجهاد عنها ؟ هذا ما سنحاول تقديمه عبر عدة شهادات منها شهادة الأمين العام لحركة الجهاد الاسلامى فى فلسطين عن هذه اللحظات من خلال حوار له منشور فى (الحياة) اللندنية .

١ - شهادة الأمين العام لحركة الجهاد الاسلامى فى فلسطين عن ملحمة مخيم جنين

روى الدكتور رمضان عبد الله شلح فى حوار هاتفى من دمشق (مع صحيفة الحياة) كيف كان على اتصال دائم مع قيادات وعناصر "الجهاد" فى مخيم جنين وتفاصيل الكمين الذى نصبه المقاتلون الفلسطينيون بقيادة الشهيد محمود طوالبة ، وكيف ان امرأة من المخيم أعطت اشارة التفجير لدى دخول الجنود الاسرائيليين المنطقة المفخخة .

وأوضح شلح انه كان على اتصال بقيادة " حزب الله " فى لبنان بشأن المبادرة التى أطلقها أمينه العام السيد حسن نصر الله لانقاذ المقاتلين الفلسطينيين المحاصرين ورفضتها اسرائيل خوفا من تأكيد الربط بين لبنان وفلسطين ، وفيما يلى نص الحديث :

** اسرائيل رفضت استقبال لجنة تقصى الحقائق في مجزرة جنين والسلطة قبلت بوضع المتهمين بقتل زئيفى تحت حراسة أمريكية وبريطانية ، ما هو موقفكم من ذلك ؟

- اذا اعتقد احد ان اسرائيل ستقبل بتشكيل لجنة دولية تتبع آثار الجرائم الصهيونية فى جنين وغيرها فهذا يفترض ان اسرائيل ارتكبت هذه المجازر بطريقة قانونية أو حضارية تجتاز اختبارات الفحوص الأجنبية ، وهذا مستحيل ، فهى بعد انتهاء المعركة فى جنين ولمدة خمسة أيام لم ينسحب فيها الجيش من المخيم ومحيطه عملت بكل الوسائل على اخفاء معالم الجريمة من نقلٍ للجثث ودفنها فى غور الأردن الى وضع ألغام ومتفجرات بين الركام لتوحى أن الدمار كان من الفلسطينيين وليس من العدوان الاسرائيلى .. أما عن موقف السلطة من قضية مقتل زئيفى فالمحاكمة المهزلة التى حدثت من قبل السلطة كانت سابقة خطيرة والقبول بالحراسة الامريكية والبريطانية أخطر وأشد .

** فى أى مستوى ؟

- فى مستويات كثيرة أهمها الاذعان للمطالب الاسرائيلية والامريكية وإحداث شرخ فى الصف الفلسطينى وكسر حالة الالتفاف التى تشكلت من كل القوى حول موقف عرفات فى حصاره ، والتخبط الذى يعانى منه موقف السلطة من الادارة الامريكية عجيب ، السلطة الآن تقبل ان تكون امريكا رسميا فى دور السجان للشعب الفلسطينى وهو دور الشريك فى الحرب التى تشن على الشعب الفلسطينى ، فكيف تقبل به السلطة رسميا ؟

** قلت ان اسرائيل بعد معركة جنين زرعت عبوات فى البنايات المهدومة ، لكن معروف ان المقاومين الفلسطينيين كانوا يملكون كميات كبيرة من المتفجرات بعضها استخدم وبعضها لم يستخدم ، ما هى معلوماتكم عن ذلك وما حقيقة ما جرى فى مخيم جنين ؟

- المعروف ان مخيم جنين تعرض للعدوان والاجتياح الاسرائيلى مرتين ، الأولى كانت فى الأول من آذار (مارس) الماضى وكانت عبارة عن " بروفة " أو تمرين استفاد فيه المجاهدون الكثير من الدروس التى ساعدت على الاستعداد جدياً للمعركة الثانية .. لقد أعد المجاهدون أنفسهم وجهزوا كميات كبيرة فعلاً من المتفجرات حتى ان محمود طوالبه بمفرده ، وهو مهندس متفجرات جهز عشية المعركة أكثر من ألف كيلو جرام من المواد الناسفة .. وكانت العبوات الناسفة هى السلاح الوحيد الذى عول عليه المجاهدون .. فقاموا بزرع العبوات فى أماكن عدة فى الشوارع مثل حاويات القمامة والسيارات .. وبالذات سيارات المقاومين المطلوبة لأجهزة الأمن الاسرائيلية وكذلك بيوتهم ، فالشباب كانوا يتوقعون ان يداهم الجيش الاسرائيلى بيوت هؤلاء المجاهدين فتم اخلاؤها من السكان وتفخيخها سواء فى الأبواب أو داخل المنزل او حتى فى الأثاث مثل الدواليب والكتب وغيرها من الأشياء التى أخبرنا بها بعض المجاهدين .. وعندما حدثت المعركة تم تفجير بعض هذه البيوت مثل بيت الشهيد طوالبة الذى قُتل فيه جنديان وجرح خمسة آخرون باعتراف العدو ، وبالاضافة الى العبوات كانت هناك الأسلحة الخفيفة من البنادق والرشاشات وعدد قليل من قاذفات الآر بى جى .

** لماذا لم يستخدم الآر بى جى ضد الدبابات ؟

- كما علمنا من المجاهدين انه استخدم ولكن بشكل محدود لأنه لم يؤثر فى الدبابات والبلدوزرات المصفحة .. البلدوزر الاسرائيلى الذى استخدم فى جنين كان عبارة عن دبابة تحمل شفرة فى مقدمتها لا يمكن للمقذوفات الصغيرة ان تؤثر بها .

** وماذا عن الكمين الذى قُتل فيه ثلاثة عشر جندياً اسرائيلياً ، هل لديكم معلومات عنه ؟

- المعلومات التى وصلتنا من بعض المجاهدين الناجين من مجزرة جنين تقول ان ما حدث كان كميناً مدبراً بإحكام من قبل المجاهدين ، فعندما بدأ الجيش الاسرائيلى يحقق اختراقات داخل المخيم ويقترب من احدى النقاط التى يتواجد فيها المجاهدون بقيادة الشهيد محمود طوالبة قرر الشباب التوقف عن اطلاق النار وطلبوا من النساء ان تخرج من البيوت وتقول للجيش الاسرائيلى : ان الشباب قد غادروا المكان بعد نفاد ذخيرتهم ، وكان هناك اتفاق مع احدى النساء ان تعطى اشارة للشباب اذا وصل الجيش للمكان المفخخ الذى زرعت العبوات فيه ، وفعلاً عندما وصل الجيش الى مكان المصيدة أعطت المرأة اشارة الى الشباب فقاموا بتفجير العبوات فقتل على الفور ٨ جنود اسرائيليين . وعندما تقدم جنود آخرون فتح الشباب نيران

أسلحتهم الرشاشة عليهم فقتل خمسة آخرون وكانت الحصيلة ١٣ جندياً واصابة بضع عشرات آخرين وارتفع عدد القتلى فى اليوم التالى الى ١٥ .. يقول احد المجاهدين الناجين من المعركة ان الجنود الصهاينة أصيبوا بحالة هستيرية من الرعب والفزع لدرجة ان بعضهم بدأ يصرخ ويولول ويعدو فى كل اتجاه لا يعرف أين يذهب لدرجة ان بعضهم جاء يجرى نحونا .. وسمعنا قائدهم - كما يقول الأخ - ينادى بمكبر الصوت ويطالب بوقف لاطلاق النار .

** قلت ان هذه رواية أحد الناجين من المعركة ، كم عدد الذين استطاعوا الخروج من المخيم من المقاتلين وكم عدد الشهداء منكم ؟

- الذى روى قصة الكمين هو أحد مقاتلى " سرايا القدس " الجناح العسكرى للجهاد الاسلامى ، خرج يوم الأربعاء عندما نفدت الذخيرة وكانوا أربعة من بين ثلاثين كانوا على محور واحد مع محمود طوالبة يقول الأخ: ان معظم الباقين استشهدوا ولم نستطع حتى هذه اللحظة معرفة عدد الشهداء أو المعتقلين من المقاتلين بدقة ، حتى فى حالة الشهيد محمود طوالبة انتظرنا أكثر من عشرة أيام قبل ان نعلن استشهاده حتى اتصلنا مع اخواننا وأهله .. لأن الجيران وشهود العيان يقولون ان الاسرائيليين بعد كمين الثلاثاء (٢٠٠٢/٤/٩) صبوا جام غضبهم وجحيم نيرانهم على المكان الذى يوجد فيه طوالبة .. ويقول أحد الجيران : كنت أذهب الى البناية التى تواجد فيها المقاتلون بين فترة واخرى اطمئن عليهم ، لكن مساء الثلاثاء تحولت المنطقة الى جحيم ، وفى اليوم التالى ذهبت الى البناية فوجدتها مدمرة بعد ان قصفها اليهود بأكثر من عشرين صاروخاً .. وهو اليوم نفسه الذى أعلن فيه أن طوالبة من بين الشهداء .. لم يتم العثور على جثة محمود بعينها ، وجدث جثث متفحمة عرف منها جثة الشهيد أشرف محمود أبو الهيجا وعبد الرحمن احمد فرج وهما من سرايا القدس ، ومن مساعدى طوالبة ، ووجدت أشلاء ممزقة لم تستطع زوجة ووالدة الشهيد طوالبة التعرف من خلالها على جثته ، لكن بعد ذلك تم الاشتباه فى بعض الأشلاء بأنها لمحمود ، ومع تأكيد الجيران وشهود العيان ان محمود كان داخل البناية لم يكن أمام أهله الا التسليم بأنه قد حقق أمنيته ونال الشهادة ، خصوصاً انه قبل الاجتياح بيومين اتصل بنا وعندما قلنا له يا محمود هذه معركة طويلة والحرب كر وفر ، ابنوا حساباتكم على انها ليست آخر جولة بيننا وبينهم ، قال لنا بالحرف (هذه معركة كر وليس فيها فر) وأنا اتصلت مودعاً لأقول لكم ان شاء الله نلتقى بكم فى الجنة .

** اسرائيل تزعم ان عدد من قتلوا فى جنين لا يتجاوز الخمسين فما مدى صدق ذلك برأيكم ؟

- بالتأكيد هذا غير صحيح وروايات الاسرائيليين أنفسهم تكذبهم ، فوزير الدفاع الاسرائيلى بنيامين بن اليعازر قال لقد تم تشخيص ٤٨ لمقاتلين فلسطينيين لمخيم جنين ، وقال متبجحاً ان من بينهم ٤٥ كانوا بزى الجهاد الاسلامى ، فاذا كان المقاتلون ثمانية وأربعين فهل يعقل ان يكون الشهداء فى المدينة ثلاثة فقط ؟ ان كثافة النيران التى صبتها الطائرات والدبابات وحجم

الدمار الذى خلفته المعركة يدلل على ان قطاعاً كبيراً من المدنيين كان فى مرمى النار الاسرائيلية ، فمن بين حوالى ١٢٠٠ بيت فى المخيم تم تدمير ٤٠٠ بالكامل وهناك حوالى ١٠٠ بيت حصل فيها تدمير جزئى بنسبة أكثر من ٥٠% ، اضافة الى اكثر من ٢٠٠ بيت اصابات متوسطة وخفيفة ، فالدمار والخراب أصاب أكثر من ٧٠% من بيوت المخيم وهذا يؤكد ان هناك أعداداً كبيرة من المدنيين استشهد .. وشهود العيان أكدوا ان الجيش الاسرائيلى نقل جثث بعضهم الى غور الأردن ودفنهم هناك ليخفف من آثار الجريمة ، لذلك لايزال هناك الكثيرون مفقودين ، لم يُعثر عليهم بين الشهداء ، ولم يُعلن عن اعتقالهم ؟

** لكن اسرائيل أعلنت بعد سقوط المخيم انها اعتقلت عشرات المطلوبين والمحاصرين من قيادات الجهاد الاسلامى وحركة فتح بعدما رفضت عرض حزب الله بفك الحصار عنهم مقابل الافراج عن الضابط الاسرائيلى الحنان تننياوم الموجود فى يد حزب الله ، هل كان هناك تنسيق بينكم وبين حزب الله وماذا حدث بالضبط ؟

- المعروف ان المقاتلين صمدوا وقاتلوا لمدة عشرة أيام وكانوا منتشرين فى بضع نقاط ومحاور فى المخيم ، فى يوم الأربعاء العاشر من نيسان (أبريل) حاصر الجيش الاسرائيلى آخر جيب من جيوب المقاومة بعدما نفدت ذخيرتهم وأعلن مساء ان عشرات المقاتلين المحاصرين فى المخيم يوجهون نداء استغاثة للعالم وللأمة لانقاذهم من مذبحة اسرائيلية ستحدث لهم .. على اثر ذلك أعلن حزب الله مبادرته وكانت بيان باسم الأمين العام للحزب السيد حسن نصر الله .. عندما سمع الاخوة المحاصرون بمبادرة حزب الله اتصلوا بنا بعدما استطاعوا تأمين هاتف محمول وكان الاتصال قد انقطع مع المخيم منذ حوالى ستة أيام من هذا التاريخ ، وبالمناسبة كل الذين كانوا يتحدثون على الفضائيات ويُقال انهم من جنين كانوا فى المدينة ، ولم يكونوا فى المخيم .. تحدث معى شخصياً الأخ ثابت مرداوى مُن قادة سرايا القدس (الجهاد الاسلامى) ، وعندما سألته عن عددهم قال انهم ٢٧ شخصاً بينهم فعلاً عدد من الكوادر القيادية مثل الحاج على الصفورى القائد فى سرايا القدس وجمال حويل قائد كتائب شهداء الأقصى وهؤلاء من كبار المطلوبين لاسرائيل ولكن العدد الباقى ليس من المطلوبين ، بعضهم شباب فرضت عليه المعركة ووقف للدفاع عن أهله ومخيمه فى وجه العدوان الصهيونى ، وكانوا فى وضع صعب جداً منذ أيام فقد نفد كل شىء .. الماء والطعام والذخيرة ، حتى العبوات والأحزمة الناسفة حيل بينهم وبينها لأنهم غادروا مواقعهم والبنايات التى كانوا يتمركزون فيها مرات عدة ، وهم فى مطاردة من بيت الى بيت ومن شارع الى شارع والاسرائيليون يحولون المخيم الى كتلة من الدمار بقصف الطائرات والدبابات والبلدوزرات تتقدم باتجاه النقطة التى حشر فيها المجاهدون .. حيث قسم العدو المخيم الى مربعات وفتح

شوارع كبيرة دخلتها الدبابات والمدرعات .. وعندما سألت الأخ ثابت هل هنـــاك أى امكـــان للافلات من هذا الحصار قال : نحن مطوقون من كل الجهات بأكثر من ثلاثين دبابة وبلـــدوزر ومصفحة ، وكان الأخ ثابت مصاباً فى يديه ورجليه ورقبته منذ أيام وليس هناك علاج أو دواء ، واخوة آخرون كانوا مصابين أيضاً ، وكانوا قد اتصلوا يريدون معرفة فحوى مبادرة حزب الله ، وهل يمكن ان تفلح فى فك حصارهم أم لا ؟ بعد ذلك اتصلت بالسيد حسن نصـــر الله الأميـــن العام لحزب الله وأطلعته على أوضاع الشباب وأن عددهم ٢٧ ، وكان الأخ قد أملى أســـماءهم على الهاتف ، وبالمناسبة دهشت عندما علمت ان من بينهم أحد اخواننا من طولكـــرم وهـــو الشيخ رياض بدير ، وهو ليس عسكرياً بل هو رجل سياسى يبلغ من العمر ٥٦ عاماً ، عندمـــا زحفت الدبابات نحو جنين تمكن من الافلات من حصار طولكرم وتوجه الى جنين للقتال ونيـــل الشهادة ، كما قال لأهله واخوانه ، وهو الوحيد الذى استشهد من بين الـ ٢٧ الذين حوصروا حيث كان بمفرده فى بيت مجاور للبيت الذى فيه بقية الشباب ، ويبدو ان الاسرائيليين نـــادوا عليه ليخرج فرفض فهدموا البيت عليه ، ولم نعلم بذلك ليلة اتصال الاخوة وعلى ما يبـــدو ان القصة حصلت لحظة محاولة اعتقاله صباحاً .

** ماذا كان موقف حزب الله عندما علم بعدد المحاصرين ؟

كما قلت ، تحدثت مع السيد حسن نصر الله مرتين بعد منتصف الليل ، كـــان آخرهـــا حوالـــى الساعة الثالثة فجراً ، السيد حسن كان موقفه قوياً وثابتاً ، وقال : نحن نستطيع تبديـــل هـــذا الضابط بمئات السجناء ، لكن حتى لو كان العدد ٢٧ فلن نتراجع عن المبادرة ، المهم تـــأمين سلامة الشباب بالتفاوض حول طريقة نقلهم الى غزة مثلاً عبر وسيط نتفق عليه ، ولكنه قـــال لو كان الوسيط امريكياً لن نتقبله ، ولو كان عربياً أيضاً لن نقبله ، فإما أن يكون من الصليـــب الأحمر أو أى طرف آخر نتفق عليه ، أبلغنا هذا الكلام للشـــباب وحاولنـــا طمأنتـــهم ورفـــع معنوياتهم ، واستمرت الاتصالات طوال الليل وكان آخرها الساعة الخامسة والربع بعد صـــلاة الفجر . وعندما كان الأخ ثابت مرداوى يتحدث معى سمعت صوتاً عالياً بالقرب منه ، فظننـــت أنه صوت الشباب من حوله ، فقلت له : لا أسمعك من الضجيج حولك ، أطلب من الشـــباب ان يخفضوا صوتهم فضحك الأخ ثابت وقال هؤلاء ليسوا الشباب ، هؤلاء اليـــهود لقـــد حركـــوا الدبابات والجرافات نحونا وبدأوا ينادون بمكبرات الصوت ، وصمت الأخ ليســـمعنى مكـــبرات الصوت وفعلاً كانوا يطالبونهم بالخروج وتسليم أنفسهم ، عندما سمعت ذلك دعـــوت الاخـــوة للثبات والصبر وأن ينجيهم الله من هؤلاء القتلة لأننا كنا نخشى ان تتم تصفيتهم ، وبالذات من هم القادة والكوادر المطلوبين منهم ، وبعد دقائق انقطع الاتصال ، وفى الصباح سمعنا انه تـــم اعتقالهم وكان التركيز فى الاعلام الاسرائيلى على اعتقال المرداوى والصفورى ولأن الاعـــلام

الاسرائيلى ركز فى حملته أثناء المعركة عليهم وعلى محمود طوالبة حتى ان قائد المنطقة الوسطى فى الجيش الاسرائيلى قال ان أهم أهدافنا فى مخيم جنين هو تصفية محمود طوالبة ، لأنه مسئول عن الكثير من العمليات الاستشهادية ، ويحصى الاسرائيليون حوالى ٢٣ استشهادياً خرجوا من منطقة جنين فقط أثناء انتفاضة الأقصى الحالية ، ١٧ منهم من الجهاد الاسلامى اعتقل العدو منهم أربعة قبل تمكنهم من التنفيذ ، لذلك أطلقوا على جنين عاصمة الانتحاريين ، ونحن نقول عاصمة الاستشهاديين ، وبالطبع الاسرائيليين لم يستجيبوا لمبادرة حزب الله وعندما أعلن الحزب مبادرة جديدة بخصوص المحاصرين فى كنيسة المهد وقتلة زئيفى فى رام الله ، رفض شارون ذلك .

** لماذا برأيك رفض شارون مبادرة حزب الله وضيّع فرصة ذهبية لاطلاق جنوده المحتجزين لدى حزب الله ؟

- السبب واضح ، فأهم منجزات حرب شارون المجنونة انها وحدت الشارع العربى والأمة حول فلسطين ، لو أعطى شارون حزب الله الفرصة ليحرر أياً من المقاتلين الفلسطينيين فى هذه المعركة سواء فى جنين أو غيرها ، فذلك كان سيؤكد الربط بين لبنان وكل الأمة من جهة ، وفلسطين من جهة اخرى ، أو يؤكد كلام حزب الله عندما يعتبر ان المعركة فى فلسطين هى معركته ومعركة كل عربى وكل مسلم .

(نقلاً عن صحيفة الحياة ٢٠٠٢/٤/٣٠م)

٢ - شهادة صحفى فرنسى عن مخيم جنين : رميت الجثث وسط ساحة الحواشين ثم طمرت

روى الصحفى الفرنسى بيار باربانسى ، ما شاهده فى مخيم جنين للاجئين ، بعدما أمضى فيه ٤٨ ساعة ، قال انه شم رائحة جثث فى هذا المخيم الذى يحتله الجيش الاسرائيلى ، وروى الصحفى - الذى يعمل لصحيفة " لو ماتينيه " الناطقة بلسان الحزب الشيوعى الفرنسى - لوكالة فرانس برس عند حاجز جلمة على المدخل الشمالى لجنين انه بحسب العديد من شهادات الفلسطينيين ، فان الجيش الاسرائيلى قام بدفن جثث فى حفرة فى الساحة المركزية للمخيم وردمها بالأسمنت ، وأضاف ان وسط المخيم بات يشبه " برلين عام ١٩٤٥ " نظرا الى حجم التدمير الفظيع .

قال : شممت رائحة جثث وشاهدت أكواما من النفايات وحشرات وظروفا صحية مريعة وأطفالا وسخين ونساء يصرخن وهن يحملن أطفالهن لأنهن لم يعدن قادرات على تنظيفهن بسبب النقص فى المياه ، وقد انقطعت تقريبا الأغذية والحليب للأطفال .

أمضى باربانسى ٤٨ ساعة لدى عائلة فلسطينية فى المخيم ، ورأى هذه الجرائم بنفسه .

٣ - جنين ٠٠ مخيم الحقد والموت والضياع

يقول الصحفى بياتريس لوكومبرى : من بين الحطام الذى يكسو مخيم جنين تظهر عجوز فلسطينية تنتحب ، فتقطع بأنينها الصمت الثقيل المسيطر على المخيم المدمر وكأن زلزالا فظيعا حل به ، ويهم الجندى الاسرائيلى الذى يواكب مجموعة الصحفيين بتصويب سلاحه الى العجوز المنتحبة فتستدير بسرعة وتتوارى خلف تلال الأنقاض ٠

يحيط الجيش بالصحفيين ، حرصا على عدم اقتراب سكان المخيم منهم خلال زيارتهم الى الموقع الذى كان قبل أسبوع فقط مسرحا لمعركة شرسة هى الأعنف التى خاضتها قوات الدولة العبرية، ويسعى الجنود الى الاثبات ان المخيم لم يشهد مجازر كما يؤكد الفلسطينيون بل معركة صعبة خاضها الجيش بدون ارتكاب تجاوزات ، ويقود الجنود الصحفيين فى زيارة مدروسة بين أزقة المخيم المقفرة ، متعرجين بين التلال الهائلة من ركام المنازل المدمرة بالصواريخ والدبابات الاسرائيلية التى تذرع المكان ٠

لا تشاهد جثث فى شوارع المخيم ، لم تعد تدور معارك ، بسط الاسرائيليون على الأرض بقايا قنبلة يدوية يقولون ان الفلسطينيين استخدموها ٠

ويكرر الجنود مرة اخرى ان مخيم جنين كان القاعدة الخلفية لنصف الانتحاريين الذين نفذوا عمليات فى اسرائيل ، وان مئات المقاتلين قاوموا الجيش فيه ، ويؤكدون ان بين القتلى البالغ عددهم حوالى خمسين هناك القليل من المدنيين ، وتم رسم مسار الزيارة بشكل دقيق ، ومدت كابلات بيضاء لرسم الحد الفاصل بين المعابر المأذونة والشوارع المحظورة ، ويحذر الجنود من وجود العديد من الألغام والعبوات المزروعة من الجانب الآخر من الأشرطة البيضاء ٠

تلوح على مسافة بعض الظلال ، لكن ما ان يهم الصحفيون بالقيام ببضع خطوات فى اتجاهها حتى يطلب منهم أحد الجنود بتهذيب ان يعودوا أدراجهم ، تعبر بشكل مفاجىء على مسافة مئتى متر مجموعة من ستة جنود يحملون جثة أخفيت داخل كيس أبيض كبير ٠

يتجاهل العسكريون الذين يحيطون بالصحفيين الأمر وتتواصل الزيارة وكأن شيئا لم يحدث ، وبعد قليل تتوقف المجموعة أمام الموقع حيث قتل ١٣ من الجنود الاسرائيليين الـ ٢٦ الذين سقطوا فى المعارك ، فجأة تظهر مجموعة من النساء اللواتى ينتحبن ، يصرخن بالعربية الى الصحفيين " لا تصورونا نحن ، تعالوا صوروا موتانا " ، ويصوب الجنود رشاشاتهم الى النساء ، لا يريدون ان يتكلم سكان المخيم الى الصحفيين ٠

تدرك إحدى النساء ان الصحفيين لا يتحدثون العربية ، فتتوجه اليهم بالاشارة ، ترفع خمسة أصابع لتفسر لهم ان خمسة من أفراد عائلتها قتلوا ، ثم تغطى أنفها بردائها متظاهرة بالاشمئزاز لتشير الى رائحة الجثث ٠

ثم تصيح فى اتجاه الصحفيين : " لا أحد يعيرنا أى اهتمام ، الآباء يبحثون عن أبنائهم ، الأشقاء يبحثون عن اخوانهم ، لا احد يعرف أين أفراد عائلته ، وتتساءل بمرارة أين الدول العربية ؟ أين كل الذين يمكنهم مساعدتنا ، يفقد الجنود صبرهم تدريجيا امام هذا المنحى غير المتوقع الذى اتخذته الزيارة ، ويعود الصحفيون دون ان يتمكنوا من كشف ما حدث فعلا داخل هذا المخيم خلال حوالى أسبوع .

٤ - لارسن فى مخيم جنين يعتبر الدمار فظاعة تفوق التصور والمفوضية الأوروبية تطالب بفتح تحقيق

بعد ساعات قليلة على الشهادة التى قدمها الموفد الخاص للأمم المتحدة تيرى رود لارسن عن الدمار الذى خلفه الجيش الاسرائيلى فى مخيم جنين وفيها تحدث عن فظاعة تفوق التصور دعت المفوضية الاوروبية الى فتح تحقيق فورى فى ما جرى فى المخيم ، ووجه الصليب الأحمر نداء الى المنظمات الانسانية الدولية لتقديم المساعدة فى المخيم حيث تواجه عملية البحث عن احياء تحت الأنقاض او انتشال الجثث مصاعب جمة فى ظل غياب المعدات اللازمة ، وفى ضوء عدم وجود فرق اغاثة تستطيع ازالة الألغام من منازل يعتقد أنها مفخخة .

وعودة الى التفاصيل جاءت أقوى شهادة على ما ارتكبه الجيش الاسرائيلى فى مخيم جنين على لسان الموفد الخاص للأمم المتحدة تيرى رود لارسن الذى قال لدى زيارته المخيم مع مندوبى الامم المتحدة والصليب الأحمر ان الدمار يشهد على فظاعة تفوق التصور مضيفا : انه دمر كليا ، وكأن زلزالا حل به ، واعتبر ان ما جرى أمر غير مقبول اطلاقا وفظاعة تفوق التصور ، لدينا خبراء اعتادوا الحروب والهزات الأرضية ويؤكدوا انهم لم يشاهدوا حتى الآن شيئا مماثلا ، وأضاف : غير مقبول اطلاقا الا تكون الحكومة الاسرائيلية سمحت منذ ١١ يوما لفرق الانقاذ والبحث عن الناجين بدخول المخيم ، الأمر مقزز على الصعيد الأخلاقى .

وكان شهود فى المخيم أفادوا ان السكان انتشلوا خمسة ناجين من تحت الأنقاض وانهم سمعوا آخرين يطلبوا النجدة ، وقال نعيم عويس وهو من سكان مخيم جنين بعد ساعات من انسحاب الدبابات والقوات الاسرائيلية من المخيم مخلفة وراءها القناصة عن مشارفه : " عثرنا على خمسة نقلوا الى مستشفى جنين فى حال سيئة للغاية " ، وهم صبيان وامرأة ورجلان مصابون بحروق واصابات اخرى ، وأضاف : بينما أخذ السكان يفتشون بأيديهم بين الأنقاض سمعت كثيرين يطلبون العون لكننا لا نستطيع ان نفعل شيئا من أجلهم تعوزنا المعدات .

وعلى رغم ان مدير مستشفى جنين نادر الرشيد نفى انتشال خمسة أحياء من تحت الأنقاض ، وقال انه لم يتم احضار أحد من مخيم جنين اليوم لا حيا أو ميتا ، الا ان الجيش الاسرائيلى يرفض السماح لفرق الاغاثة بدخول المخيم معللا ذلك بوجود عبوات وقنابل تجعل دخوله

مستحيلا . لكن لارسن رفض هذه الحجة ، مشيرا الى انه كان فى وسع اسرائيل السماح لخبراء دوليين بالقدوم للمساعدة على البحث عن ناجين محتملين بين الأنقاض ، وقال : ليس هذا عذرا .. أرى شقيقين يخرجان والدهما من تحت الأنقاض ، الموت يبعث نتانة فظيعة ، كما ينتشلون جثة ولد فى الثانية عشرة متفحمة تماما ، واعتبر ان الأولوية هى لارسال فرق انقاذ والبحث عن الناجين ، علما ان فرق الاغاثة الوحيدة العاملة حاليا شكلها السكان الذين ينقبون بين أنقاض بيوتهم ويواجهون خطر انهيار الكتل الأسمنتية والأحجار ، وأشار لارسن الى ان منظمته ستحاول معرفة ما حصل بالضبط خلال المعارك عندما كان الجيش يطارد الناشطين .

وردا على شهادة لارسن ، نفى الناطق باسم وزارة الخارجية الاسرائيلية جدعون مئير ان يكون الجيش ارتكب مجازر فى المخيم ، وان كان أقر بحصول تدمير واسع فيه ، وقال ان الفلسطينيين يؤكدون حدوث مجازر والأسرة الدولية والصحافة تصدق الأكاذيب ولا يطلبون اثباتات من الفلسطينيين أين هى الأدلة ، هناك تدمير واسع لكن ليست هناك مجازر ، وأضاف : على العكس من معظم ناشطى حقوق الانسان ، يعرف لارسن الوقائع وزار المواقع التى نفذ فيها الارهابيون اعتداءات انتحارية ، انه يعرف لماذا اسرائيل فى جنين ، وزاد : جنين ليس مكانا للنزهة أو الترفيه ، انها عاصمة الارهاب الفلسطينى والاعتداءات الانتحارية .

وفى ضوء شهادة لارسن ، أعلن ناطق باسم المفوضية الأوروبية انه يفترض فتح تحقيق فورى فى شأن مخيم جنين ، وسئل الناطق هل من المناسب اطلاق تحقيق دولى بهذا الشكل السريع ، فقال نعم بالتأكيد ، ينبغى ان يبدأ التحقيق فورا ، وأكد من جهة اخرى ان اوروبا ينبغى ان تشارك فى مؤتمر حول الشرق الأوسط فى حال عقده ، وقال : لا يمكن احلال السلام فى الشرق الأوسط من دون أوروبا ، مذكرا بأن الاتحاد الأوروبى عضو مع الولايات المتحدة وروسيا والأمم المتحدة فى اللجنة الرباعية التى تحاول تهدئة الوضع فى الشرق الأوسط وتابع : فى الوقت الحاضر ، فإن الالتزام السياسى للاتحاد الأوروبى ، يقضى بالعمل مع الأمريكيين والروس والأمين العام للأمم المتحدة كوفى أنان من أجل التوصل الى وقف اطلاق نار وانسحاب القوات (الاسرائيلية) ووقف الهجمات الاستشهادية ، وتجاوبت منظمة الصليب الأحمر النرويجى مع نداءات الاغاثة الصادرة من مخيم جنين ، اذ أعلنت ان النرويج سترسل فريقا لتثبيت الأمن فى مخيم جنين يضم خبراء فى ازالة الألغام ومهندسين تمهيدا لارسال بعثة طبية دولية الى الموقع ، وقالت ناطقة باسم المنظمة ان خبيرين فى المتفجرات من المنظمة الانسانية نورسك فولكيهيلب واثنين من مهندسينا وطبيبا واحدا سيتوجهون الى جنين مهمتهم ستكون التعرف على المبانى المعرضة للانهيار والمواقع الخطيرة وإبطال مفعول عبوات ناسفة ليصبح نقل

المساعدة الانسانية ممكنا فى ظروف أمنية جيدة بعد ذلك ، وأوضحت ان وزارة الخارجية النرويجية ستتولى تمويل البعثة التى خصصت لها مليونى كورون نرويجى (٠,٢٦ مليون يورو) ، وكانت اللجنة الدولية للصليب الأحمر أعربت عن أملها فى الحصول على مساعدة فرق الانقاذ الدولية المتخصصة فى انقاذ الاحياء المدفونين تحت الأنقاض ، وأجرت اتصالات مع النرويج وسويسرا وألمانيا ، وقال الناطق فنسنت لوسير ان هناك حاجة لفرق لنقل جثث القتلى الذين يعرف انهم قابعون أسفل مبان هدمتها الجرافات الاسرائيلية والبحث عن ناجين محتملين بعدما أبلغ بعض سكان المخيم عن سماع صرخات وأضاف : أدركنا ان عمل الانقاذ لا يمكن ان يمضى قدما بسرعة كافية من دون مساعدة مضيفا ان النرويج وسويسرا من بين الدول التى لديها استعداد للمساعدة،وان هذه الفرق عادة يمكن نقلها بسرعة ويمكنها ان تصل خلال يوم واحد أو نحو ذلك .

٥ - شهادة بروفيسور بريطانى مختص فى التشريح

وتعززت الأدلة على وقوع فظاعات فى مخيم جنين بعدما أجرى البروفيسور البريطانى ديريك باوندر المختص بعلم التشريح فى جامعة دندى تشريحا على أحد الضحايا ولاحظ وجود جروح تثير الشبهة بشكل كبير ، وقال باوندر الذى يعمل مع منظمة العفو الدولية بعد زيارته المخيم لصحيفة " ذى اندبندنت " البريطانية : ان القول ان عددا كبيرا من المدنيين قتلوا ومازالوا تحت الأنقاض أمر له مصداقية كبيرة ، لا يمكن تصديق ان عددا قليلا من الأشخاص داخل المبانى المكونة من ثلاث أو أربع طبقات لدى هدمها ، وأضاف ان تشريح جثة فلسطينى يبلغ ٣٨ عاما تكشف انه تعرض لاطلاق نار فى قدمه ثم فى ظهره ، او انه تعرض للرصاص في ظهره اولا حيث اصيب اصابة قاتلة ، ثم أطلق الرصاص ، لسبب ما ، على قدمه بعد وفاته .. مهما كان ترتيب اطلاق النار ، فان الظروف مثيرة للشبهة .

ولم تصدر تقارير رسمية عن حجم الخسائر فى الأرواح بين الفلسطينيين لكن مدير مستشفى جنين محمد أبو غالى قال انه يعرف بمقتل ٣٥ وتوقع ارتفاع حجم الخسائر فى الأرواح ، وأضاف : بوسعى ان أؤكد لك وفاة ٣٥ ، دفن منهم ٢٣ فى أرض المستشفى مشيرا الى ان الباقين دفنوا قرب منازل فى أماكن آخرى من جنين ، واستطرد قائلا : ان العدد النهائى للقتلى لن يتضح قبل شهرين أو ثلاثة بعد الانتهاء من عمليات التفتيش تحت الأنقاض وتوقع ان يتراوح عدد القتلى بين ٢٠٠ و٤٠٠ قتيل ، وأضاف : الناس يعثرون على جثث كل يوم ، مضيفا انهم يفتشون فى الأنقاض بأيديهم ونحتاج مساعدة دولية .

وذكرت مصادر أمن فلسطينية ان القوات الاسرائيلية احتجزت ٤٢ فلسطينيا منهم ناشطون اسلاميون خلال عمليات دهم ليلية على ثلاث قرى قرب طولكرم وجنين .

٦ - ناشطون غربيون أدلوا بشهادات مفزعة عن يوم القيامة فى جنين :

ولأن حكومات الدول الكبرى لم تتحرك .. برغم ما تبثه التليفزيونات العربية وتنشره الصحف عن مجازر شارون فى فلسطين ، وإبادته المنظمة لشعبها الأعزل .. نقدم هنا شهادات حية من مواقع الأحداث داخل جحيم شارون فى فلسطين ، ننقلها عن نشطاء حقوق الانسان من منظمات غير حكومية ، أوروبية وامريكية وكلها تفضح ما يحاول النازى شارون اخفاءه من بشاعات ووحشية يرتكبها فى حق شعب أعزل ، ومذابح لا يصدقها عقل ستظل وصمة عار فى جبين الانسانية على مدى تاريخها .

فمنذ الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧ ، ونشطاء حقوق الانسان يتوافدون على فلسطين للتضامن مع شعبها ، ولفت الأنظار للقضية الفلسطينية ، وفى الأشهر الأخيرة ، زاد تواجد هؤلاء النشطاء كثافة ، فمنذ ٢٧ مارس الماضى وحتى الآن وصل للأراضى الفلسطينية ٦٠٠ ناشطا ، مازال موجودا منهم داخل فلسطين مائة ومنهم ٤٠ ناشطا فى مقر الرئيس عرفات كانوا محاصرين معه ، و٦٠ ناشطا يتوزعون فى المدن والمخيمات ، وأهم ما يقدمه هؤلاء النشطاء للفلسطينيين هو الشهادات التى يدلون بها للاعلام العالمى ويبثونها عبر شبكة الانترنت .

من هؤلاء النشطين خمسة استضافتهم الجامعة الامريكية بالقاهرة يوم الثلاثاء ٢٢ ، ٢٠٠٢/٤/٢٣م فتاة امريكية تدعى (مارى) وانجليزية اسمها (لسلى) وسيدة فرنسية ونقلت صحيفة العربى المصرية شهادتهم يوم ٢٠٠٢/٤/٢٨م .

وقد تحدثوا عن الحياة الصعبة التى يعيشها الفلسطينيون فى المدن المدمرة ، والمستشفيات التى تضرب بالقنابل والمدافع وسيارات الاسعاف التى تحطم بالدبابات ولأن هذه الشهادات كانت تتسم بالعمومية وجدناها غير كافية لكننا استطعنا عبر هؤلاء النشطاء الحصول على أرقام تليفونات العديد من النشطاء الذين مازالوا داخل الأراضى الفلسطينية .

ولأن الوضع شديد الصعوبة بالنسبة لهؤلاء النشطاء فبعضهم تعرض للضرب وآخرون يتم احتجازهم لبعض الوقت وآخرون تم طردهم وكأنهم يسيرون فوق أرض ملغمة مزروعة بالأشواك طلب بعضهم عدم ذكر اسمه حتى لا يقبض عليه ، أثناء خروجه من الأراضى المحتلة ، أو حتى لا يوضع اسمه على قوائم الممنوعين من الدخول الى البلاد بعد ذلك .

فى البداية تقول احدى الناشطات الفرنسيات : دخلنا فلسطين ليس بصفتنا نشطاء حقوق انسان انما بصفتنا سائحين كل منا جاء بطائرة مختلفة من دولته او من دولة اخرى بحجة السياحة ، ثم التقينا معا بعد ذلك فى مكان ما متفق عليه فى أحد المدن الفلسطينية لنقوم بدورنا الذى جئنا من أجله وانتشرنا هنا وهناك لحماية المواطنين الفلسطينيين .

وكان لابد من الحصول على شهادات من النشطاء فى مخيم (جنين) رمز الصمود والبطولة

فقمنا بمساعدتها بالاتصال بمحمول الفرنسى (دافيد) وهو بالمناسبة ليس يهوديا وكـــان فـــى الوقت الذى اتصلنا به مساء الخميس الماضى أمام نقطة تفتيش (جنين) وكنـــا نســـمع حولـــه اطلاق نار ٠

وقال لنا ان ما يراه أمامه دمار فى كل مكان ٠٠ وطلقات رصاص يطلقها الصهاينة هنا وهناك فطلب منا ان نطلبه بعد ساعتين ٠٠ لكننا لم ننجح بعد ذلك فى الاتصال به لأن الارسال كـــان مقطوعا عن هاتفه المحمول ٠

فاتصلنا بالكندى ريتشارد جونس الذى قال لنا : انه لا يصدق حجم الدمار الذى يراه أمامـــه ، وقد أكد لنا ان هناك العديد من القنابل التى لم تنفجر أثناء الغزو تتسبب فى اصابات يومية حتى بلغ عدد المصابين حتى لحظة اتصالنا به ٢٠ مصابا آخرهم سيدة أمريكية أصيبت منذ أربعـــة أيام بالاضافة الى ثلاثة قتلى بينهم طفل عمره عشر سنوات ، وقال ريتشارد قبل اجتياح جنيـــن كان عدد سكان المخيم حسب الاحصاءات ١٣ ألف نسمة ، الآن موجود منهم ٤ آلاف فقـــط ، البعض منهم رحل لمدينة أخرى ، والبعض جرحى والبعض فى السجون الاســـرائيلية اضافـــة لمئات القتلى الذين قتلوا فى إبادة جماعية ، ومع ذلك ليس هناك احصائية لعدد القتلى أو لعـــدد المسجونين وأضاف : شىء مريع ما أراه فى هذا المكان وبرغم علمنا ان شارون جعل الامـــم المتحدة تؤجل لجنة تقصى الحقائق (*) ، بل وعدل من تكوين اللجنة لتضم عســـكريين وهـــذا شىء غريب جدا ٠

عند هذا انقطع الاتصال معه ٠٠ فاتصلت بـــ(هويدا عراف) وهى أمريكية من أصل عربى (أحد الموجودين فى جنين الان) فقالت لنا : أنا الآن أمشى فى وسط اطلال مدينة كانت منذ أيام قليلة مكونة من مئات المنازل ، قبل ان تجرفها الجرافات وتسحقها الدبابات لتسويها بـــالأرض ٠٠ مواسير المياه تخرج من الأرض أعمدة الكهرباء مكسورة ٠٠ الناس هنا لم تصلها أى إغاثـــة من أى مكان فى العالم ٠٠ لهذا أرى أهل المخيم يفتشون بين الأنقاض عن شىء يحميهم مـــن البرد ، لحاف أو بطانية ٠٠ البعض يسكنون فى مدارس قرب المخيم وبعضهم يسكن فى بيتـــه الذى تهدم جزء منه وبقى منه حائط آيل للسقوط أما النساء والأطفال والعجائز فينـــامون فـــى العراء ٠٠ ورائحة الموت تحاصرهم من كل مكان ، فأين ضمير العالم !! قيل ان عدد الشـــهداء هنا يزيد عن ٥٠٠ شهيد ، وأنا أتصور انهم أكثر بكثير جدا ٠٠ فالأرقام تفوق كل توقع ، فهل تتصورين مخيما مساحته ٢ كيلو متر مربع تضربه الدبابات والطائرات أياما متواصلة كم يكون عدد القتلى فكل يوم تكتشف جثة هنا ، واخرى هنا ، وجزء من جثة تحت ركام منزل منهار ٠٠ هناك سيدة عجوز تحفر بأظافرها منذ أيام فى أنقاض منزلها المنهارْ بحثا عن ابنها وهى تؤكد انه مازال حيا وانها تسمع صوته ٠٠ فأين ضمير العالم ؟!

وتركتنا هويدا تستحث ضمير العالم ورحنا نبحث عبر شبكة الانترنت عن أحد المشاهد التى شهدها الاوروبيون فى جنين ووجدنا موقعا يضم مشاهدات الانجليزيين (جوستين هجلر) و(فيل ريفز) حول ما حدث فى جنين .. يقولان : بيوت الصفيح التى كانت تأوى ٨٠٠ أسرة اختفت وتبقى منها أنقاض .. جثث فى كل مكان مدفونة تحت الأنقاض .. الفظاعة فوق التصديق مذبحة ستبقى للأبد وصمة عار فى تاريخ اسرائيل ، ما حدث أدى لدمار آلاف الأبرياء ، ويدعى الاسرائيليون ان معظم الموتى مقاتلون ، ويدعون انهم عملوا المستحيل لحماية المدنيين ، لكن الواقع أكد ان أكثر من نصف الفلسطينيين الذين اكتشفت جثثهم مدنيين من السيدات والأطفال وكبار السن .. وبرغم ان القتال بدأ يوم ٣ أبريل وانتهى يوم ١٠ أبريل الا ان القوات الاسرائيلية منعت الصحفيين ومنعت المساعدات الطبية لمدة خمسة أيام بعد انتهاء القتال وذلك حتى ينظف الجيش المنطقة ، مما فعل بها ، ويستمر (جوستين) فى سرد بعض المآسى التى حدثت كقتل (محمد أبو صباغة) الذى يبلغ من العمر ٦٥ سنة بينما يحذر سائق البلدوزر من هدم منزله الذى يختفى فيه عدد من الأسر من الجيران .

والممرضة التى أصيبت بينما قتلت الآخرى برغم انهما ترتديان ملابس التمريض وشارة الهلال الأحمر .. وكذلك الجرحى الذين تركوا ينزفون حتى الموت ، والموتى الذين ظلوا بين الاحياء وبلا دفن أياما طويلة ، وأبواب المنازل التى كانت تفجر بالألغام فينهار البيت على من فيه .. والبشر الذين استخدموهم كدروع بشرية ومنهم (اسمهان مراد) ورجل عجوز ٧٢ عاما بعد أن ربطت يداه خلف ظهره وكانوا يدفعونه أمامهم وهم يفتشون من بيت لبيت ، وجمال فايد المعاق ذهنيا والمشلول الذين أخبرتهم أمه بذلك وهم يتجهون بالبلدوزر ليهدموا بيته لكنهم استمروا فى الهدم ، وفارس الشاب الصغير وعمره ١٤ سنة الذى قتل برصاصة فى رأسه يوم ١١ أبريل وكان قد خرج مع اخيه الصغير بعد رفع حظر التجوال لشراء بعض الطعام .. ومحمد عمره ١٥ سنة وقتل برصاصة فى وجهه وبعد ذلك مرت فوقه دبابة لتسحق جثته تماما .

ويستشهد الكاتبان جوستين وفيل بكلام (بترو بروكرت) الصحفى بالاندبندنت والمتخصص فى تغطية أماكن الحروب بأنه يصدق وجهة النظر الفلسطينية التى تؤكد ان معظم القتلى مدنيون لأن الفلسطينيين يفخرون بشهدائهم من المقاتلين وقد ذكروا المقاتلين من الجهاد ، وكتائب شهداء الأقصى وحماس وقوات الأمن الفلسطينى .

وينقل الكاتبان شكوك الفلسطينيين بخصوص دفن مئات الجثث فى مقابر جماعية ويشيران الى تضارب تصريحات الجيش الاسرائيلى فى عدد قتلى جنين حين ذكر ان القتلى لا يزيدون عن مائة ثم ذكر ان هناك مئات من القتلى والجرحى ، ثم ذكر ان الرقم يعد بالعشرات .

ويشير الكاتبان الى حجم الدمار الذى خلفه الجيش الاسرائيلى وراءه وانتهاكاته لحقوق الانسان

حينما منع سيارات الاسعاف من دخول جنين لمدة ستة أيام بحجة ان سيارات الاسعاف ستهرب المقاتلين وستعوقهم عن البحث عن مقاتلين مختبئين .. كذلك أشار الكاتبان الى القنابل والألغام التى تركها الجيش الاسرائيلى فى المخيم بعد انتهاء القتال والتى تنفجر كل يوم فى المدنيين .. كما يشيران الى الاعدامات التى تمت للبعض بدون محاكمة ولهذا يختتمان تقريرهما بالمطالبة بالتحقيق فى جنين حول جرائم الحرب التى حدثت هناك .

وتقول سيدة انجليزية من نشطاء حقوق الانسان موجودة الآن فى جنين وطلبت عدم ذكر اسمها معى الآن تقرير من (د. دريك بوندر) أستاذ الطب الشرعى باسكتلندا والذى أجرى فحص الجثث فى اطار تفتيش منظمة العفو الدولية ان معظم الجثث التى قام بفحصها تؤكد إنها لمدنيين من غير المقاتلين .. وقد قمت بارسال هذا التقرير الى عدد من منظمات حقوق الانسان فى العديد من دول العالم لعلهم يستطيعون فعل شىء ، وتؤكد ان هناك العديد من الجثث تحت الأنقاض تدل على كثافة الرائحة ، وفى النهاية تحذر من تفشى الأوبئة فالجثث والقمامة فى كل مكان والمستشفيات بلا أى امكانيات .. ومع ذلك لم تتحرك المنظمات الدولية لإدانة الجرائم .

ومن الشهادات الاخرى عن مذبحة (جنين) مقال تم توزيعه على جميع نشطاء حقوق الانسان الموجودين فى فلسطين وهو مقال كتبه الكاتب الاسرائيلى (أروى أفنيرى) جاء فيه : كان هدف شارون هدم الوطن الفلسطينى بمؤسساته وقياداته مرة وللأبد ، لكن ما حدث كان مختلفا جدا فأمام أكبر ماكينة عسكرية فى المنطقة ، ومع أحدث سلاح فى العالم .. وجدا فى مخيم جنين الصغير مجموعة من المقاتلين من كل المنظمات الفلسطينية صمدوا فى معركة سوف تظل محفورة فى قلوب العرب .. وقد صنعت هذه المعركة صورتين لهذا المخيم صورة صبرا وشاتيلا جديدة وصورة ملحمة مقاومة كما حدث فى (ستلنجراد) الروسية التى صمدت فى مواجهة النازى .. وها هى جنين تصبح ستلنجراد الفلسطينية ، قصة بطولة أبدية ستسيطر على قصة المذبحة ، والنتيجة عشرات القتلى الاسرائيليين ومئات القتلى الفلسطينيين .. وتدمير المدن الفلسطينية والزعم هدم مؤسسات الارهاب المصطلح غير معقول ، ان هذه المعارك ستبقى لدى عشرات الملايين من العرب تحرق قلوبهم غضبا وغيظا ، وكل ما تم هو قتل من يتمنون الاستشهاد والنتيجة زيادة عدد الراغبين فى الاستشهاد والمقاومة ، وكثيرا ما تم اكتشاف المتفجرات التى يمكن شراؤها من المحلات الاسرائيلية وستظهر مئات من المعامل الفلسطينية التى تصنع هذه المتفجرات .

فى معركة جنين عشرات الجرحى تركوا ينزفون حتى الموت لأن الجيش الاسرائيلى يضرب عربات الاسعاف ويدفن سرا مئات الجثث رجالا ونساءا وأطفالا .. والدبابات

تدمر السيارات وتقتحم المنازل وتضرب أعمدة النور ومواسير المياه وتشرد آلاف البشر وتترك الأطفال لا يجدون مياها فيشربون من المستنقعات ، والنتيجة ان كل طفل فلسطيني يرى ذلك سيكون شهيد الغد والنتيجة ان شارون ومن معه هم الذين ينشئون مؤسسات الارهاب .. هم في جنين شردوا ٨٠٠ أسرة وفي نفس الوقت أسسوا الدولة الفلسطينية ، وقد شاهد الفلسطينيون مقاتليهم في جنين أكثر بطولة من الجنود الاسرائيليين المحميين داخل دباباتهم الحصينة .. وشاهدوا زعيمهم في مشهد تليفزيوني تاريخي يتحدث على نور شمعة هو وكل المحاصرين معه في مكتبه مستعدون للموت ، مقارنة بوزراء اسرائيل في مكاتبهم بعيدا عن القتال محاطين بجيوش من الحرس .. والنتيجة ستكون مدمرة ولن تنتج أي سلام أو أمان ولن تحل المشكلة وستعزل اسرائيل ، وستجعل اليهود في خطر في العالم بأسره وأخيرا أذكركم بصورة الماكينة العسكرية العملاقة تهاجم الشعب الفلسطيني الأعزل وقيادته تصمد وهو نصر هائل لدى الفلسطينيين وغيرهم كما صمد قديما (داود) الصغير أمام جالوت العملاق ، هذا ما قاله الكاتب الاسرائيلي أورى افنيرى وهو غنى عن أي تعليق .

٧ - بيرنز يتحدث عن مأساة مروعة في جنين وباول يشير الى يأس الفلسطينيين

قال مساعد وزير الخارجية الامريكي وليام بيرنز لوكالة " رويترز " في الساحة التي سويت بالأرض وسط مخيم جنين : اعتقد ان ما نراه هنا هو مأساة انسانية مروعة ، واضح ان ما حدث هنا في المخيم تسبب في معاناة انسانية هائلة لآلاف المدنيين ، وتعهد ان تفعل الولايات المتحدة كل ما في وسعها للمساعدة في ما يتعلق بمواد الاغاثة والمعدات .

وزيارة بيرنز هي الأولى لمسئول أمريكي رفيع المستوى الى المخيم منذ الاجتياح الاسرائيلي في ٣ أبريل ، وتأتي بعد موافقة مجلس الأمن بالاجماع على ارسال فريق لتقصي الحقائق الى المخيم ، وقال مساعده انه أمضى ثلاث ساعات في المخيم تحدث خلالها مع السكان في المخيم وفي المدينة وكذلك مع فرق الانقاذ الموجودة في المكان ، ومرة بعد مرة ، توقف بيرنز الذي رافقه مسئولون من الأمم المتحدة وحراس مسلحون ليتابع لاجئين وهم ينقبون بين الأنقاض بصورة محمومة بحثا عن ذويهم الذين فقدوهم وعن متعلقاتهم المهمة ، وهطلت أمطار غزيرة على المخيم لتحول طرقاته الترابية الى وحل ، لكنها لم تنجح في تخفيف شدة رائحة الجثث المتعفنة التي لاتزال تحت أكوام من الركام .

ودعا بيرنز الى السماح بوصول منظمات الاغاثة الى المخيم ، قائلا : اعتقد انه مهم للغاية إتاحة الوصول بشكل تام لمنظمات الاغاثة حتى يمكن ان تقوم بعملها وبالتالي يمكنها ان تنقل

المعدات والامدادات الى هنا .. من المهم ان تحاول الأمم المتحدة التى سترسل بعثة لتقصى الحقائق التوصل الى ما حدث بالضبط هنا بتعاون مع كل من الفلسطينيين والاسرائيليين ، ولم يعلق على الاتهامات الفلسطينية للقوات الاسرائيلية بارتكاب مجازر ، الا ان مساعده قال : ليس هنالك من وسيلة للتحقق من الأمر فى الوقت الراهن" .

وأضاف : من الضرورى ان يوفد الأمين العام للامم المتحدة كوفى أنان بعثة الى مخيم جنين ، مضيفا انها مبادرة مهمة جدا .

وكان وزير الخارجية الامريكى كولن باول أشار - بعد محادثات اجراها مع وزير الخارجية الاسرائيلى شيمون بيريز - الى يأس الفلسطينيين المتأثرين بالعنف المستمر منذ أشهر فى الشرق الأوسط وبعد يومين من انتهاء مهمته السلمية فى الشرق الأوسط ، اعتبر باول - فى مؤتمر صحفى مع بيريز - ان اعادة إعمار وتنمية الأراضى الفلسطينية يمكن ان يحول الشباب بعيدا عن التطرف ، موضحا: لقد ركزنا على المسألة الانسانية التى أصبحت تحتل المركز الأول فى نظرنا ، وأضاف ان من المهم مناقشة الطريقة التى ستتبعها المجموعة الدولية لتقديم المساعدة الانسانية وانعاش النشاط الاقتصادى فى الأراضى الفلسطينية .

وفى اشارة الى العملية الاسرائيلية فى الضفة الغربية ، قال باول : نحن حريصون على ان تنتهى العملية الجارية فى الوقت الراهن بطريقة تمكننا من التقدم مجددا فى مناقشات عن الأمن والاسراع فى تطبيق عملية سياسية لنتمكن من احلال الأمل محل اليأس .

فى المقابل ، قال بيريز : ان لا بديل عن السلام مع الفلسطينيين ، مضيفا : من المتعذر التوصل الى السلام من دون القيام بتسويات بما فيها تسوية مؤلمة والوقت الضرورى لذلك ليس طويلا جدا كما يظن الناس .

فى غضون ذلك انتشل فريق من رجال الانقاذ الأجانب والهلال الأحمر الفلسطينى جثة فلسطينى من مخيم جنين حيث أصيب ثلاثة أشخاص فى انفجار عبوة .

وأوضح مسئول جهاز الطوارىء حسام الشرقاوى ان ثلاثة أشخاص أصيبوا فى انفجار عبوة فى المخيم أحدهم اصابته خطيرة دون ان يتسنى له تحديد طبيعة العبوة المتفجرة ، وأضاف ان رجال الانقاذ يواصلون عملهم فى ازالة الأنقاض مستعينين خصوصا بالحفارات ، ومن بين الجرحى الدكتور وائل عمرى من الناصرة الذى وصل الى المخيم مع ١٢٠ طبيبا وممرضا من فلسطينيي الأراضى التى احتلتها اسرائيل عام ١٩٤٨ (العرب فى اسرائيل) يمثلون لجنة الاغاثة الصحية القطرية بهدف اقامة عيادة ميدانية بمحاذاة مستشفى جنين لتقديم العلاج للجرحى والمرضى . واستنادا الى وزير الدفاع الاسرائيلى بنيامين بن اليعازر تم انتشال ٤٨ جثة حتى الآن فى المخيم ، ويتحدث الفلسطينيون عن رقم قريب مع اضافة ١١ جثة جمعها الجيش خلال

المعارك وسلمت الى أسرها ، وقال بن اليعازر فى تصريح بثه التليفزيون الاسرائيلى : حتى الآن ، قتل ٤٨ شخصا منهم ٤٥ يرتدون ثيابا قتالية ، وعثر على خمسة منهم ، اثنان كانا يحملان أحزمة متفجرة ووصف الخلاف على عدد القتلى فى المخيم الذى احتله الجيش فى نهاية معارك طاحنة بأنه مؤسف .

٨ - جمعية طبية أمريكية تطالب بحماية الشهود والأدلة فى مخيم جنين

نشرت جماعة طبية امريكية تقويما مبدئيا للاصابات الفلسطينية فى مخيم جنين ، مستنتجة أنها لا تشير الى وقوع مذبحة ، لكن الوضع يبرز الحاجة الملحة الى اجراء تحقيق ، وحماية الأدلة المتصلة بالطب الشرعى فى موقع الأحداث وجاء فى التقرير ان بعض القتلى قضى سحقا بالدبابات وبعضهم بطلقات فى الرأس .

وأضافت جماعة " أطباء من أجل حقوق الانسان " ومقرها بوسطن فى تقريرها ان عدد القتلى الفلسطينيين بلغ ٤٥ على الأقل وعدد المصابين ٢٠١ وهناك أساس للاعتقاد بأن التأخيرات لحصول الجرحى على علاج طبى كانت شديدة ، واستمد التقرير بياناته من مراجعة سجلات مستشفى قال انه استقبل أكثر من ٩٠% من الاصابات القريبة ، لكنه نبه الى احتمال ان يرتفع عدد القتلى عن الخمسة والأربعين الذين وردت تفاصيل عنهم فى سجلات المستشفى لأن جثتين تقريبا كانتا تستخرجان كل يوم من بين الحطام عندما توقفت اسرائيل عن قصف المخيم .

ودعا التقرير اسرائيل الى السماح بلا تأخير لفريق الأمم المتحدة لتقصى الحقائق بدخول المخيم الذى كان مسرحا لمعارك ضارية .

وقال ليونارد روبنشتاين المدير التنفيذى للجماعة : من الأمور التى تبعث على قلق بالغ فى أى جهد مستقبلى لتقصى الحقائق غياب سيطرة مركزية على الموقع نفسه واستخراج الجثث وجمع الأدلة واسماء الشهود ورواياتهم .

وقالت سوزانا سيركين نائبة مدير الجماعة : ننشر تقريرنا لأننا قلقون جدا من ان لجنة تقصى الحقائق قد لا تستطيع تنفيذ مهمتها ، ويمكن القول اننا لم نر أى أدلة على وقوع مذبحة " .

وأكدت الجماعة أن تقويمها المبدئى آثار مسائل خطيرة مثل اطلاق النار على المدنيين ومنع الجرحى من الحصول على الرعايا الطبية .

وأظهرت السجلات ان ١٥ شخصا قتلوا بالرصاص وأن الغالبية أصيبوا بطلقات فى الرأس وأن هناك خمسة قتلوا سحقا ، و١٩ لأسباب غير معروفة ، و٣ قتلوا بسبب تلقيهم ضربات قوية على الرأس كما قتل فلسطينى سحقا بالدبابة وتوفى آخر نتيجة استنشاق غازات سامة ، وأظهرت السجلات ان ٣٠ قتيلا وقعوا داخل مخيم جنين نفسه فى ما قتل خمسة آخرون فى بلدة قريبة بالاضافة الى عشرة فى قرى قريبة ، ومن بين الجرحى وعددهم ٢٠١ أصيب ٧٠

داخل المخيم ، وأن ٦٩ أصيبوا بالرصاص أو الشظايا و١٣ أصيبوا نتيجة تعرضهم للضرب وستة أصيبوا نتيجة سقوط أنقاض وستة فى انفجارات ، وأربعة أصيبوا بصدمة واثنان خلال انفجار عرضى ، كما أصيب اثنان آخران اصابات غير محددة .

وجاء فى التقويم : كل المرضى تقريبا الذين يتلقون علاجا فى مستشفى جنين تحدثوا عن تأخر فى الوصول الى المستشفى تراوح بين ٣ و٧ أيام ، وقال عدد كبير من المصابين انهم تعرضوا لنيران قناصة قوات الدفاع الاسرائيلية أو جنود قوات الدفاع الاسرائيلية الذين كانوا يطلقون النار من طائرات هليوكوبتر .

وأضاف أن سبعة من المصابين عمرهم عشرة أعوام أو أقل وأن هناك ١٣ زادت أعمارهم عن ٥١ عاما ، وكانت هذه الجماعة قد أرسلت فريق تحقيق مماثلا الى يوغوسلافيا سابقا ورواندا . وذكرت ان امدادات مستشفى جنين بالطاقة والاوكسجين والمياه ونظام الصرف تضررت بشدة بعدما حاصرتها الدبابات والعربات المدرعة الاسرائيلية التى حطمت عربة الاسعاف الوحيدة .

٩ - هيومان رايتس ووتش تدعو الى تحقيق فى جرائم حرب فى مخيم جنين

قالت منظمة " هيومان رايتس ووتش " لحقوق الانسان فى تقرير نشر اليوم ان الأدلة توحى بأن الجيش الاسرائيلى ارتكب جرائم حرب فى عمليته العسكرية فى مخيم جنين للاجئين وانها لم تجد أدلة تدعم الادعاءات بأن الجيش الاسرائيلى ذبح مئات الفلسطينيين فى المخيم .

وقالت منظمة حقوق الانسان التى يوجد مقرها فى نيويورك فى تقرير مكون من ٤٨ صفحة عنوانه " اسرائيل والضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين وأراضى السلطة الفلسطينية : جنين : العمليات العسكرية لجيش الدفاع الاسرائيلى " انها استطاعت معرفة هوية ٥٢ فلسطينيا قتلوا خلال العملية ، كان ٢٢ شخصا منهم مدنيين ، وأضافت ان كثيرا من المدنيين قتلوا عمدا وبطريقة غير قانونية ، وزادت انها وجدت ان جيش الدفاع الاسرائيلى استخدم الفلسطينيين كدروع بشرية واستخدم قوة مفرطة ومن دون تمييز خلال العملية .

وقال كبير الباحثين فى " هيومان رايتس ووتش " بيتر بوكارت ان الانتهاكات التى وثقناها فى جنين خطيرة للغاية ويبدو فى بعض الحالات انها جرائم حرب .

وذكرت " هيومان رايتس ووتش " فى بيان ان ثلاثة محققين ذوى خبرة يعملون لها قضوا سبعة أيام فى جنين وجمعوا روايات مفصلة وقارنوها لتشكيل صورة عن الأحداث التى وقعت فى المخيم فى أبريل ٢٠٠٢ ، وأضافت ان كبير الباحثين بوكيرت الذى رأس التحقيقات فى جرائم حرب نيابة عن " هيومان رايتس ووتش " فى الشيشان وكوسوفو وأفغانستان ، قال ان من الواضح ان أحداث جنين تستحق مزيدا من التحقيق .

وجاء فى البيان أن أربعة من المدنيين الـ ٢٢ وثق التحقيق موتهم قتلوا على النحو التالى :

١ - كمال الصغير (٥٧ عاما) وهو مقعد كرسى للمقعدين أصيب بالرصاص ثم سحقته دبابة للجيش الاسرائيلى فى ١٠ أبريل بينما كان يتحرك بمقعده حاملا علما أبيض على طريق رئيسى فى جنين .

٢ - جمال فايد (٣٧ عاما) رجل مشلول سحق بأنقاض منزله فى ٧ أبريل بعد ان رفض الجيش الاسرائيلى السماح لعائلته بوقت لاخراجه من منزل العائلة قبل ان تدمره الجرافات .

٣ - فارس زيبن (١٤ عاما) برصاص أطلق من عربة مصفحة للجيش بينما كان ذاهبا لشراء خضراوات عندما رفع حظر التجول الذى كان قد فرض فى ١١ أبريل .

٤ - عفاف الدسوقى (٥٢ عاما) قتلت فى ٥ أبريل بعبوة ناسفة وضعها جنود اسرائيليين عند الباب الأمامى لمنزلها عندما ذهبت لفتح الباب للجنود .

ووجدت " هيومان رايتس ووتش " أدلة على استخدام مفرط ومن دون تمييز من جانب الجيش الاسرائيلى لصواريخ مضادة للدبابات وذخائر اخرى أطلقتها طائرات هليوكوبتر أمريكية الصنع فى المخيم ، وقالت ان هذه الطائرات قصفت منازل كثيرة فى مخيم جنين كان يسكنها مدنيون فقط وفى أحيان كثيرة ضربت قذيفة دبابة وصاروخا " تو " مضادان للدبابات منزل كمال طوالبة وهو أب لأربعة عشر طفلا فى ٦ أبريل ولم يكن فى البيت مقاتلون ، وعندما حاول طوالبة وأفراد عائلته مغادرة المنزل المحترق ، أطلق الجنود النار عليهم .

ويذكر التقرير ان القوات الاسرائيلية سببت دمارا واسعا للبنى التحتية فى المخيم ، خصوصا فى حارة الحواشين بعد كمين ٩ أبريل الذى نصب للجنود الاسرائيليين ، ويضيف ان ١٤٠ بناية سويت بالأرض فى المخيم ، وكثير منها يضم بضع عائلات ، بينما لحقت أضرار بالغة بـ ٢٠٠ مبنى آخر ، ما ترك نحو ٤ آلاف شخص بلا مأوى .

وقال بوكارت : وحتى لو سلمنا بصحة الاتهام الاسرائيلى بأن الجماعات الفلسطينية التى تتخذ من مخيم اللاجئين قاعدة لها هى المسئولة عن مهاجمة المدنيين الاسرائيليين ، فإن ذلك لا يبرر انتهاكات الجيش الاسرائيلى الموثقة فى هذا التقرير .

وزاد بوكارت : كما هى الحال فى تحقيقاتنا السابقة فى عمليات الجيش الاسرائيلى ، فقد وجدنا أيضا حالات كثيرة أجبرت فيها القوات الاسرائيلية مدنيين فلسطينيين على المشاركة فى عمليات عسكرية ، وأردف قائلا : لقد أجبر مدنيون فلسطينون ، تحت تهديد السلاح أحيانا على مصاحبة قوات الجيش الاسرائيلى أثناء تفتيشها للمنازل وعلى القيام ببعض المهام الخطيرة أثناء عمليات التفتيش ذلك .

وختم بيان مراقبة حقوق الانسان بالقول : خلال معظم عملية الدرع الواقى منعت قوات الجيش

الاسرائيلى فرق الاسعاف والأطباء من دخول مخيم جنين ، وأطلق الجنود نيرانهم مرارا على طواقم الاسعاف التابعة للهلال الأحمر وفى احدى الحالات قتل الجنود بنيرانهم ممرضة ترتدى الزى الرسمى ، وهى فروة جمال (٢٧ عاما) وكانت جاءت الى المخيم لاسعاف رجل جريح .

١٠ - الاندبندانت البريطانية : أكثر من نصف ضحايا جنين من الأطفال والنساء!!

مهما فعل شارون وجنوده لمحو مذابحهم فى مخيم جنين من ذاكرة التاريخ .. فإن أوراقه وسجلاته ستظل تذكرها ، وستحمله حتما الى محاكمةٌ عادلة يكون فيها القصاص لأرواح الشهداء وستظل قصصهم تحكى عن صمود شعب فلسطين ، هذه القصص أوردها تقرير أعده مراسلا جريدة " الاندبندانت " البريطانية جاستين هوجلر وفيل ريفز حيث كتبا يقولان : ما الذى حدث فى مخيم جنين للاجئين الفلسطينيين ؟ هل كان مكافحة لما تزعم اسرائيل انه ارهاب ؟ أم انه كان حلقة من مسلسل الحرب الممتدة التى يشنها شارون من أجل الوجود الدائم لقوات الاحتلال فى الضفة الغربية وإجبار الفلسطينيين على الاذعان الكامل له ولدولته ؟ لقد زعم شارون ان الهدف مما حدث فى جنين هو تقويض البنية التحتية للجماعات المسلحة الفلسطينية وحماية اسرائيل من عمليات استشهادية يمكن ان يقوم بها سكان المخيم ؟ كما زعم شارون أيضا ان قواته بذلت ما فى وسعها لتجنب اصابة المدنيين وتمادى فى مزاعمه بأن أغلب ضحايا المخيم كانوا مسلحين .

هكذا زعم شارون .. لكن بمجرد ان وطئت أقدامنا - نحن مراسلى جريدة الاندبندانت - المخيم وشاهدنا أكوام الجثث والمنازل المهدمة والتى بلغ عددها ما يقرب من ٨٠٠ منزل لم يبق منها الا الحطام حتى أدركنا الوجه الحقيقى للقصة .. فكل ما أعلنه شارون مجرد مزاعم ، أما الحقيقة فهى ان نصف الضحايا الفلسطينيين الذين استشهدوا من جراء الاجتياح والمجازر الصهيونية بالمخيم من المدنيين نساء وأطفالا وشيوخا .. وكانت قوات الاحتلال تتعمد اصابتهم وقتلهم بدم بارد .. كانت رائحة الموت والمجازر الصهيونية تخيم على المكان واليوم تسعى اسرائيل لاخفاء جريمتها تحت ساتر من الدعاية الاعلامية ، فالمخيم حسب ما أعلنته اسرائيل كان معمل تفريخ الاستشهاديين الفلسطينيين بشتى انتماءاتهم سواء كانوا أعضاء بفتح أو بالجهاد أو بحماس فكلهم تخلوا عن تلك الانتماءات الأسمية من أجل انتفاضة الأقصى .. وبالتالى وضعت اسرائيل المخيم وساكنيه مدنيين وغير مدنيين على رأس قائمة الغضب الصهيونى وراحت الآلة العسكرية الاسرائيلية تتجه صوب المخيم ، كان جيش شارون يتوقع تحقيق انتصار سريع وحشد شارون لذلك ما يزيد على ألف جندى وضابط مسلحين بأحدث الأسلحة ودبابات الميركافا والعربات المجنزرة وطائرات الهليوكوبتر والأسلحة الثقيلة

والصواريخ حديثة الصنع .. هذا كله حشده شارون فى مواجهة قلة قليلة من قوة فلسطينية لا يزيد تسليحها عن بعض البنادق وبعض المتفجرات .

ورغم ضعف العدة والعدد .. الا ان الفلسطينيين داخل المخيم صمدوا لمدة ثمانية أيام.. ولم تنجح قوات شارون فى اقتحام المخيم الا بعد ان دفعت الثمن غاليا حيث لقى ٢٣ جنديا اسرائيليا مصرعهم حتى ان أحد الضباط علق بقوله : " لم نكن نتوقع ان يحاربونا بكل هذا الصمود " .. كان هذا على الجانب الاسرائيلى .. أما على الجانب الفلسطينى فقد راح عدد غير معلوم من سكان المخيم ضحايا لمجازر القوات الاسرائيلية حتى ان اسرائيل تعمدت منع الصحفيين ورجال الاعلام من دخول المخيم لمدة ستة أيام من حدوث المذابح حتى تخفى معالم مجازرها .. وبعد السماح لنا بدخول المخيم بصحبة بيتر بوكارت - أحد كبار الباحثين بمنظمة هيومان رايتس ووتش - التقينا بالعديد ممن كتبت لهم النجاة من سكان المخيم .. وراحوا يحكون لنا قصص المجازر المؤلمة التى تعرض لها المدنيون فى جنين .. كما أخبرونا والفخر يملأ نفوسهم عمن استشهدوا داخل المخيم من أعضاء حماس والجهاد وفتح .

من بين الناجين سامى أبو سبع والذى حكى لنا قصة مقتل والده برصاص القوات الاسرائيلية قائلا : لقد استشهد والدى محمد أبو سبع (٦٥ سنة) برصاص قوات الاحتلال ، وكل ذنبه انه أخبر سائق إحدى الجرافات الاسرائيلية أن منزله يضم عائلات لجأت اليه للاحتماء من رصاص وقنابل جيش الاحتلال وحذره من الاقتراب من المنزل المكتظ بالأطفال والنساء وبالفعل تراجع سائق الجرافة عن هدم المنزل لكن بعد ان ترك والدى ملقى على الأرض شهيدا بطلقات نارية فى صدره .

قصة أخرى كانت بطلتها ممرضة تدعى فدوى كل ذنبها انها خرجت من منزلها لانقاذ شاب فلسطينى يدعى هانى رميلة يبلغ من العمر ١٩ عاما .. قصة فدوى تحكيها زميلتها رفيدة داماج التى كانت شاهدة عيان على ما حدث وأصيبت هى الاخرى برصاصة فى قدمها ، تقول رفيدة : استيقظت أنا وفدوى الساعة الثالثة صباحا على صوت انفجار قوى .. سمعنا صوت رجل يصرخ خارج منزلنا.. وعندما هرعنا أنا وفدوى لانقاذ الشاب أداء لواجبنا فوجئنا بمجموعة من جنود الاحتلال يقفون فى طريقنا .. أخبرتهم بأننى وفدوى ممرضتان وأننا نسعى لانقاذ الشاب الجريح وقبل أن أنهى حديثى أطلق الجنود الصهاينة النار علينا فأصابنى رصاصهم فى قدمى وعندما حاولت فدوى مساعدتى اقترب منها الجنود الصهاينة أكثر وأكثر مطلقين رصاصهم عليها حتى سقطت شهيدة أمام عينى .. كانوا يدركون تماما أننا ممرضتان فقد كنا نرتدى ثياب التمريض البيضاء وعليها علامة الهلال الأحمر .. وكانوا يسمعون ما نقوله بوضوح ورغم هذا كله عاودوا اطلاق الرصاص حتى سقطت فدوى شهيدة .. كما سقط هانى أيضا شهيدا حيث تركوه ينزف حتى الموت .. أما أنا فلولا عناية الله ما كنت حية حتى الآن ؟

وبينما أبناؤها اليتامى يمسكون بتلابيب جلبابها .. تحكى زوجة عطية رميلة قصة سقوط زوجها على يد جنود الاحتلال .. حيث تقول والدموع تنهمر من عينيها وعيون أطفالها ، كان صوت الانفجارات ينطلق حول المنزل ، وكانت الساعة تقترب من الخامسة مساء .. خرجت للاطمئنان على المنزل وعدت لأخبره بأن قنبلتين اخترقا المكان .. ذهبت للأطفال بينما ذهب هو الى البهو وبعد دقيقتين سمعت صوته يناديني أسرعت اليه وخلفى أطفالى .. وجدته واقفا ينظر نحوى ويقول لقد أصبت وبدأ الدم ينزف من فمه وأذنه .. ثم سقط كان المشهد مرعبا ، وراح الأطفال يصرخون نظر الينا واحدا تلو الاخر بينما جسده يرتعش بشدة سألته لكنه لم ينطق بكلمة وعندما شاهدت أثرا لطلقات نارية فى رأسه صرخت بأعلى صوتى طلبا للنجدة لكن أحدا لم يسمعنى ، ولم يكن أمامى سوى أن أربط ابنى محمد البالغ من العمر سبع سنوات فى حبل وأنزله من شباك خلفى بالمنزل كى يحضر عربة الاسعاف ، وعندما أتت رفض الجنود الصهاينة السماح لرجالها بإنقاذ زوجى ، وهددوا باطلاق النيران عليهم اذا رفضوا الانصياع لأوامرهم بالرحيل ليسقط زوجى شهيدا وتظل جثته معنا فى المنزل لمدة سبعة أيام كنت فيها وأطفالى وجثة أبيهم محاصرين من قوات الاحتلال .

وعلى بعد عدة أمتار من منزل عطية رميلة تحكى عائشة دسوقى قصة مقتل شقيقتها عفاف البالغة من العمر ٥٢ سنة والتى لقيت حتفها عندما استخدم جنود الاحتلال لغما لتفجير باب بيتها .. مازالت آثار اللغم موجودة شاهدة عيان على المأساة .. وهناك أيضا قصة جمال فايد ٣٧ عاما والذى لقى مصرعه على يد قوات الاحتلال رغم انه كان معاقا ذهنيا وجسديا ولا يستطيع السير حتى ان أسرته كانت تحمله من منزل الى منزل حتى تجنبه نيران جنود الاحتلال ولم يكن أحد من أسرته يعلم ان مصيره الموت حيا تحت أنقاض المنزل الذى يحتمى به والذى دهسه بلدوزر جنود الاحتلال ، عمه صائب فايد حكى لنا كيف أنه أسرع لقائد البلدوزر عندما رآه يقترب من المنزل الموجود به جمال قال له ان داخل المنزل شخصا معاقا ، وطلب منه ان ينتظر لثوان قليلة حتى يحضره .. لكن السائق أصر على دك المنزل ، أما راجح طواف فيحكى كيف ان جنود الاحتلال كانوا يتخذون من المدنيين دروعا بشرية وكان هو واحدا منهم رغم ان عمره يتجاوز ٧٢ عاما ، فقد قيدوا يديه وجعلوه يسير أمامهم بينما كانوا يفتشون منازل المخيم ، حاول راجح أن يرفض فهددوه بالقتل مثلما فعلوا أمام عينيه مع أحمد حمدونى البالغ من العمر ٨٠ عاما . وحتى الأطفال لم ينجوا من المذبحة الاسرائيلية فالطفل فارس زبين – ١٤ عاما – أطلق جنود الاحتلال نيرانهم على جسده النحيل وتركوه ينزف ، كان فارس قد خرج مع شقيقه عبد الرحمن ٨ سنوات لشراء بعض الاحتياجات عقب اجتياح جنود الاحتلال للمخيم لكنه لم يعد . القصة يسردها لنا الطفل عبد الرحمن والذى يحكى لنا لحظة استشهاد شقيقه قائلا : كنت أسير الى جوار شقيقى وكان معنا طفل آخر يسير بصحبة بعض النساء اللاتى لا أعرفهن .. نهرنى أخى للعودة للمنزل خوفا على لكننى رفضت .. كنا نسير أمام دبابة ،

وفجأة شاهدنا فوهة الدبابة تتحرك نحونا موجهة نيرانها ضدنا ٠٠ وفجأ سقط شقيقى ويضيف عبد الرحمن : لن أهنأ حتى أثأر له ٠ أما محمد حواشين - ١٥ عاما - فسقط شهيدا بينما كان يصحب والدته لالقاء نظرة الوداع على جثمان شقيقه زياد والذى كان أحد أفراد كتائب الأقصى ٠٠ تقول أم زياد لم أكن أعلم ان نظرة الوداع الأخيرة على جثمان زياد ستأخذ منى ابنى الآخر محمد ، لقد كان يسير الى جوارى وفجأة سمعته يصرخ بعد أن وجهُ الصهاينة نيرانهم علينا ، لم أستطع مساعدته ولن أنسى صورته لحظة استشهاده ٠٠ وحسبى انه وشقيقه من الشهداء٠ ويحكى المواطن الفلسطينى درار حسن قصة استشهاد صديقه كمال زهير والذى لقى حتفه على يد جنود الاحتلال ٠٠ لم يكن كمال يستطيع الحركة بصورة طبيعية بعد ان فقد إحدى رجليه فى الانتفاضة الأولى لكن عجزه هذا لم يمنع الصهاينة من توجيه نيرانهم ضده مما أدى لشطر وجهه نصفين أما القدم الأخرى فعثر عليها بين الركام ٠

الحكايات المأساوية لا تنتهى ٠٠ والأحاديث عن المجازر تحتاج لكتب تسردها ٠٠ جرائم جماعية وانتهاكات مورست من قبل قوات الاحتلال ٠٠ نساء وأطفال وكبار سن لقوا حتفهم دون تفريق بين من يحمل بندقيته ومن لا يستطيع حمل نفسه ٠

الفصل الخامس :
طوابير : الاسم الحركي
للحمة جنين
ملامح المقاتل الرباني من
واقع شهادات الأهل والرفاق

يقول من لم يجرب ما نكابده
كأن أجملهم بالموت قد فتنوا
ولو حكى الموت بالفصحى لصاح بنا
كفى ازدواجا على كفى واتزنوا

مريد البرغوثي

حين يصبح الدم وحده هو عنوان المرحلة ، يذكر (محمود الطوالبة) ، ذلك الشـــاب الرمـــز ، والمعنى ، الذى يعد وعن حق ، الامتداد الطبيعى للمؤسس الأول للجهاد الاسلامى المعاصر فى فلسطين : الشهيد عز الدين القسام ، ويعد التطبيق الفذ لعبقرية الشهيد القـــائد ، والمؤســـس الثانى للجهاد الاسلامى فى فلسطين : الدكتور فتحى الشقاقى ، ويعد أيضـــا حـــامل الرســـالة الجهادية فى طورها الثالث بعد أن أنعم الله على حركته ، حركة الجهاد الاسلامى فى فلسطين ، بقائد نوعى فى فكره ، وعطائه ، وإخلاصه هو الدكتور / رمضان عبد الله شلح ؛ الذى أثبـــت خطأ تصور الأعداء ان موروث المؤسسين الكبيرين : القسام والشقاقى قد بدأ فى الاندثار بعـــد الاغتيال الغادر للشقاقى .. فإذا بـــ (شلح) ومن قلب الركام والدموع والألم ، يضخ الحياة فـــى أمر راهن الكثير من الأصدقاء قبل الاعداء على استحالة قيامه من جديد من كبوتـــه المؤلمـــة وهو استمرار الجهاد بعد (استشهاد الشقاقى ١٩٩٥) ، الذى عاش شامخا ، قويا ، متحديا بـــل ومثمرا ، كأجمل ما يكون الثمر : بركة وإيناعا وتدفقا .

** جاء " الطوالبة " ، ملخصا ، لهذه الثلاثية الجهادية متصلة الحلقات ، جاء ليعـــبر بقصتـــه وملحمته الخالدة ، عن طبيعة الزرع الذى بذره (القسام والشقاقى وشلح) ؛ جاء فى ملحمتـــه التى آن لها أن تؤصل ، وتوثق (وهو ما نحاوله هنا بإذن الله) لتقدم للأمة كلها مثلا حيا علـــى أن حمزة والحسين لم يمتا ، ولكنهما حيان عند ربهما يرزقان ، حيان فى شهادتهما ، حيان فى ان تتحول قصتهما الى نموذج يحتذيه أمثال (محمود الطوالبة) ليصبح هو الآن مثلهما ، شهيدا ، وشاهدا ، حيا يرزق عند ربه .

* لقد كان (محمود) ، فضلا عن تلخيصه لثلاثية الجهاد فى فلسطين ، مبدعا فذا لمعانى البطولة والشجاعة ، كان قائدا لسرايا القدس فى مخيم جنين تلك السرايا التى أرعبت العدو الصـــهيونى منذ (١٩٩٥ — ٢٠٠٢) منذ تولى الدكتور رمضان شلح أمانة حركة الجـــهاد بعـــد استشـــهاد مؤسسها د. فتحى الشقاقى .

وكان (محمود) محط اجماع كل الفصائل والقوى الفلسطينية التى رأت فيه — جميعها — قـــائدا لها خاصة فى ملحمة المخيم الأخيرة (ملحمة نيسان / أبريل ٢٠٠٢) ، وكان فى قيادته قـــدوة فى المبادرة والتضحية بالنفس والشجاعة فى الصمود ، مما جعله أنشـــودة الأطفـــال وقـــدوة الكبار .

ان قصة محمود طوالبة هى قصة مخيم جنين ، انه الاسم الحركى لهذا المخيم ، فحين نذكـــره ، نذكر صمود القسام ، واخلاص الشقاقى ، وشجاعة شلح ، ونذكر من ثم (جنين) وفلسطين .

* ترى ما هى قصة هذا القائد الشهيد ؟ وما هى أبرز محطات حياته القصـــيرة الثريـــة بكـــل المعايير ؟ وأين ملحمة جنين ، كربلاء العصر فى فلسطين منها ؟ ذلك ما نحاول ان نجيب عنه

عبر هذا الفصل عن سيد شهداء المخيم ، سيف السرايا وعاشق الشهادة ، الشهيد القائد محمود طوالبة ، المريد الفذ المجاهد فى محراب (الجهاد الاسلامى): مدرسة القسام والشقاقى وشلح فى فلسطين ، وسوف نمحور حديثنا فى محورين أساسيين :

المحور الأول : ويتناول ملامح المقاتل الربانى كما صاغتها قصة جهاده وشهادات الأهل والرفاق ، وفى المحور الثانى نقدم نماذج من شهادات الأهل عن هذه الشخصية المجاهدة الفذة (*)

* * *

المحور الأول : ملامح المقاتل الربانى كما صاغتها قصة جهاده وشهادات الأهل والرفاق

عندما يسجل التاريخ وقائع ما جرى فى مخيم جنين ، خلال أبريل / نيسان ٢٠٠٢م ، سيقف بانتباه شديد ، واحترام أشد أمام قادة هذا الصمود الأسطورى الفلسطينى ، الذين صمدوا حتى الاستشهاد ، ومام البشر الذين نسجوا بأجسادهم مع حجارة لمخيم ، ملحمة ، تلخص بأحرف من نور قصة الجهاد والقدرة على التحدى الكامنة فى ضمير هذا الشعب ، والتى هى سر انتصاره الحتمى بعد مائة عام من الحرب ، ومحاولات اقتلاع من وطنه .

* سيقف التاريخ أمام ملحمة جنين ، مشدوها ، كيف استطاع هذا العدد القليل من المجاهدين ، أن يهزموا بثباتهم عشرة أيام أكبر قوة عسكرية فى المنطقة ، فى الوقت الذى هزمت فيه جيوش أربع دول عربية فى ستة أيام (١٩٦٧) ،وعندما يفتش المؤرخون عن قادة هذا الصمود ، سوف يكون (محمود طوالبة) الشاب العشرينى،الذى أسموه شيخا مجاهدا كبيرا فى عمله وفعله متجاوزا سنه الصغير (فهو المولود عام ١٩٧٩)؛سوف يكون فى طليعة من سينحنى التاريخ والمؤرخون أمام جهاده وصموده الأسطورى وطاقته غير المحدودة على التحدى ، ورباطة الجأش ، وفوق هذا وذاك ايمانه الراسخ بالله ، وثقته فى نصره التى لا تتزعزع .

* لقد كان (محمود طوالبة) – وباعتراف الاسرائيليين أنفسهم – هو القائد الفعلى لملحمة جنين ، لم يكن قائدا لسرايا القدس الذراع العسكرى لحركة الجهاد الاسلامى فى المخيم،فحسب بل قائدا لكافة القوى المجاهدة ، كان الأب الروحى لصموده ، كان الباحث بقوة عن الشهادة من خلال الفعل الاستشهادى وليس الاستسلام الفورى لها ، وحين تعترف وزارتى الدفاع والخارجية الاسرائيليتين أن من بين ٢٤ استشهاديا خرجوا قبل الاجتياح الأخير من مخيم جنين كان نصيب الجهاد الاسلامى منهم ١٨ ، فإن هذا يكشف لنا وبوضوح عن الأحجام والأوزان الحقيقية للقوى التى صنعت أسطورة المخيم ، وحولته الى قلعة للاستشهاد اخاف الاسرائيليين لسنوات ودفعتهم الى هذا الاجتياح الدموى له كى يتخلصوا من صداعه التاريخى ، وكانوا واهمين اذ

سرعان ما خرج لهم من قلب هذا المخيم وبعد الاجتياح بساعات أحد أبطاله الكبار من تلامذة محمود طوالبة ليفجر نفسه فيهم (جرادات) ويوقع عشرات القتلى والجرحى ثم تلاه (حمزة سمودى صاحب عملية مجدو ٢٠٠٢/٦/٥م) التى أوقعت ١٨ قتيلا وعشرات الجرحى الاسرائيليين والاثنان من (الجهاد الاسلامى) ٠

* كان محمود طوالبة ، هو القائد الفعلى لهؤلاء ، ولغيرهم ، كان قائدا لهم حتى بعد استشهاده ، بل ان استشهاده الأسطورى جعل منه قائدا تاريخيا ، ورمزا ثابتا لكل من يريد أن يسلك طريق ذات الشوكة ، فى الدين والحياة ، فى فلسطين ، وخارجها !!

ترى ما هى ملامح هذا القائد الذى أحب الله ، فأحبه ، وأكرمه وقربه منه وقلده ما أحب ، وهو (وسلم الاستشهاد) ، ما هى صفاته التى عاش ولاقى وجه ربه فرحا بها ؛ ان ما لدينا من روايات وحقائق عن هذا الشاب المؤمن المجاهد ، والتى سننشر بعضها فى المحور الثانى من هذا الفصل تقول أننا أمام (مجاهد ربانى) كان يسعى وبإخلاص ، ووعى ناحية الله ، ناحية الجنة ، وكانت فلسطين هى سبيله ومقاتلة العدو الصهيونى هى أداته للوصول الى ربه ، مع الصديقين والشهداء ٠

وبإجمال يمكننا ان نسجل ان أبرز ملامح هذا المجاهد الربانى ، تلميذ عز الدين القسام وفتحى الشقاقى ورمضان شلح وكل قادة الصف الكبير الشريف من المجاهدين ، تتلخص فى الآتى :

١ – <u>الايمان الصادق بالله</u> : تقول زوجة الشهيد محمود طوالبة : (من يتعرف على محمود ويسمع حديثه لا يمكن الا أن يأسر قلبه وعقله ويحبه ويقدره كثيرا فهو خلوق متواضع بسيط خجول معطاء كريم طويل النفس صبور حليم متزن ,عندما خطبني كان يعمل في القصارة في فلسطين المحتله عام ١٩٤٨ وزياراته لنا محدودة بسبب ظروف عمله الصعب والقاسي ولكن وجدت فيه مثالا للشاب المؤمن المخلص الواعي النادر في هذه الايام والزمان الصعب ، فعندما كنا نجلس اونخرج لنتمشى لزيارة احد او شراء شيء سواء خلال الخطوبة او الزواج ، لا يتحدث إلا عن الاسلام والدين والجهاد والاخرة فيقول لي (يا سماح انظري ما احلى الدنيا ولكن الآخرة احلى واجمل) .

وفى نفس المعنى الايمانى يقول والده عنه فى شهادته : (عرف محمود الطريق الى الله فى سن مبكرة فكان لا يصلى الا فى المسجد ويحب قراءة وحفظ القرآن) ٠

وهو من شدة ايمانه وحبه لله ولطريق الجهاد حول أمه ذاتها وحول مشاعرها ناحية هذا الطريق ، ولنتأمل الأم فى شهادتها وحوارها مع ابنها محاولة ابعاده عن طريق الجهاد متصورة فى البداية أن فى ذلك حماية له فإذا به هو الذى يقنعها بطريقة هو ٠ تقول أم محمود : (وكل مرة اناقشه او اجادله محاولة اقناعه بتغير حياته ووضعه وترك خيار الجهاد كان يقنعني بالآيات القرانية والاحاديث النبوية والقصص الاسلاميه انه يسير في الطريق الصحيح وانني

اخطأ كثيرا عندما اطلب منه ذلك فاحزن ولكنه كان يقول لي (لا تحزني) فهو قلب الام الذي وضع الله فيه كل اشكال المحبة ، ومن يوم ليوم تغير حديثي وحياتي وامنت بكل كلمة يقولها فباركت له الشهادة منذ فترة طويلة وشعرت انه ليس ابن عيشة او حياة ، بل سيرحل قريبا ونفقده في كل لحظة وفي الفترة الاخيرة عندما يطلب مني الدعاء له بالشهادة لا اتردد بذلك بل اقول بفخر وايمان (اللهم اكرمه بالشهادة) .

في احيان كثيرة كان محمود يبكي عندما يتذكر رفاقه الاستشهاديين ويتحدث عن كراماتهم ومنزلتهم ويدعو طويلا ان يرزقه اياها وفي احدى المرات — وفقا لشهادة والدته - قلت له أليس صعبا على الشخص ان يفجر نفسه ، فهل الله يجبر الشهيد على الانفجار فكان يضحك ويقول لي (هنئيا له الجنه فطريقه معبدة بالنور والنوار لانه حبيب الله وسيقابله وعندما يفجر زر الحزام الناسف لا يتردد او يشعر بالالم لأنه ساعتها لا يرى الا الجنه ولا يشاهد سوى الملائكه تستقبله وتحتفي به) .

بدأت اشجع محمود على القتال والجهاد وانتهى أي شعور بالخوف أو الرعب أوالرهبة خاصة بعدما سمعت القصص التي تتحدث عن بطولاته ومقاومته الشجاعه والباسلة ولم اطلب منه تسليم نفسه او الاستسلام رغم خوفي الشديد عليه فقد اسلمته لله) .

وتتوالى الشهادات لتؤكد جميعها ان محمود طوالبة كان ينطلق فى فعله ، وحياته كلها من ايمان صادق ، بالله ، ومن ثقة كبيرة فى نصره ، وفى أنه القادر على كل شئ ، هذا الايمان — كما نعلم — هو سر كل المجاهدين الكبار فى تاريخ الاسلام ، سر الانتصار على الأعداء وسر القوة التى تتملكهم حين يواجهونهم ، وهل كان مجاهدو صدر الاسلام الا صدى لهذا الايمان والروحية العقائدية المخلصة ؟

لقد تربى محمود طوالبة ، على حب الله ، وحب الشهادة ، كان دائم الحديث عن الاستشهاديين والجنة التى تنتظرهم ، كان يبكى حين يغادر أحدهم الدنيا ، متوجها الى الآخرة ، والتى كان يستعجلها فى كل ما يفعل ، وكان ايمانه بالله ، هو الذى جعله انسانا محبوبا من كل من عرفه ، من أهل المخيم ، وفى كافة بقاع فلسطين ، وهو الذى جعله مثالا فى التواضع والتفانى والاخلاص فى عمله لا يرغب جاها أو مالا أو منصبا ، لقد أحب الله ، فأحبه الله وقربه منه واختاره شهيدا ، وما أجله اختيار .

٢ — محبة الناس والعطف عليهم .. فى هذا المعنى يقول شقيقه الأكبر محمد والمرفقة شهادته (فى المحور الثانى من هذا الفصل) : [لقد تأثر محمود بالاوضاع والدراسة للدين واصبح داعية اسلامي يركز على الشباب الذين لا يصلون ويزورهم في بيوتهم ويهديهم الى الاسلام بالوعي والكلمة والاشرطة واذا سمع أي حديث سيء عن شاب يتوجه له فورا ويخاطبه

ويهديه ، لم يكن يستهزأ باحد او يقلل من قدر انسان وتمكن من هداية عدد كبير من الشباب واعادتهم لطريق الاسلام والخير والصلاح حتى اصبحت كل امرأة تواجه مشكله مع ابنها بسبب جهله وطيشه تتوجه للشيخ محمود الذي يساعدها ويحل مشكلتها بعد جلسه واحدة مع الشاب المقصود الذي يخرج اكثر وعيا وايمانا والتزاما بالدين والاسلام] .

اقام محمود طوالبة – والقول لشقيقه محمد - علاقات مميزة مع عدد كبير من الشباب المناضلين االمجاهدين الذين استشهد بعضهم خلال المقاومة ومن اصدقاءه من الشهداء اسلمة تركمان واياد المصري وعبد الرحيم فرج واشرف ابو الهيجاء وشادي نوباني ومهند ابو شادوف وطه زبيدي واسامة ابو الهيجاء] .

وحول نفس المعنى تقول زوجته فى شهادتها (المرفقة كاملة فى المحور الثانى من هذا الفصل): [ومحمود كان يحزن كثيرا اذا شاهد انسانا مهموما او محتاجا فلا يغمض له جفن حتى يساعده او يفك حاجته ,حتى انه تبرع بسرير ابنتنا دعاء لاحد الاطفال الايتام فقد كنت اجلس مع اخته ظريفة التي كفلت طفلا وتحدثني انها تفكر بشراء سرير لطفل ولا تقدر بسبب وضع زوجها المالي ، وبدون سؤالي او مشاورتي او تردد توجه محمود للغرفة ونقل (دعاء) من السرير لانها كانت تنام عليه واهداه للطفل ، وفي حادثة اخرى وبعد ولادتي لدعاء قدمت لي احد النساء حرام صوف هدية فشاهده محمود وسألني كم حراما لدينا فقلت ثلاثه فقال واحد يكفي وزعي الاثنين على الفقراء ، فقلت له يا محمود كيف ذلك فقال فرجي على الناس ليفوج الله عنا يوم الحشروالقيامة ، وفي مرة أخرى فوجئت بمحمود يحل اسطوانة الغاز ويخرج بها ولما سألته الى أين أنت ذاهب قال لي التقيت بجارنا وشكى لي عدم قدرته على شراء غاز وسأتبرع له بغازنا فقلت له ولكن لا يوجد لدينا غيره فقال بإمكاننا أن نعيش دون غاز وسلمه للرجل وهو سعيد ، وفي مرة اخرى اشتريت ثلاجة ولم اكد افرح بها حتى قدمها لوالدته وامضيت عامين دون ثلاجة واذا اردت وضع شيء في ثلاجة اضعه لدى الجيران] .

وتقول شقيقته ميسون فى شهادتها : [محمود كان داعية كبير للاسلام والصلاة وقد افتتح مكتبة في مسجد المخيم واشترى جميع كتبها الدينية ثم شارك مع رجال الدعوة وشيوخ مسلمين في التنقل لعدة مدن وقرى وترك عمله من أجل نشر دعوة الاسلام ، وتتذكر ميسون ان محمود قبل تركه العمل داخل فلسطين المغتصبة عام ٤٨ بقي له مبلغ من المال على صاحب العمل وعندما اتصل به لطلب حقه لاستكمال اجراءات زواجه ابلغه صاحب العمل أنه يعاني من مشاكل مالية وطلب منه تأجيل الموعد فسامحه محمود بالمبلغ رغم حاجته الماسة له] .

وفى موضع آخر تقول ميسون : [كان متدينا جدا وملتزما بتعاليم الاسلام وشخصيته المحببة التي حرص على الاقتداء بها كان الرسول عليه السلام فلا يأكل او ينام الا وفق السنة النبوية

الشريفه ، فعاش زاهدا يبذل الغالي والرخيص في سبيل شعبه وبلده ولا يتردد فى القيام بعمل الخير حتى لو كان على حساب حياته فلا يهدأ له بال اذا علم بوجود مشكلة اوقضية لدى أي شخص حتى يحلها وتدخل عدة مرات في حل مشاكل عائلية كبيرة ونجح في اصلاح ذات البين بينها في مشاكل عجز عنها من هو أكبر منه سنا وهذا ما أكسبه حب واحترام وتقدير الجميع].

٣ – فلسطين والجهاد كانا كل حياته : تؤكد الروايات والشهادات المتوفرة عن محمود طوالبة أن كل همه كان يتلخص فى (فلسطين)،وأن كل الحب الذى ملك عليه قلبه هو حب الجهاد وأن (سرايا القدس) ووصايا الشهيد الدكتور فتحى الشقاقى ، وتعاليم خلفه الدكتور رمضان عبد الله شلح ، هى وسائله لتحرير فلسطين،وللجهاد فى سبيل الله،فى هذا المعنى يقول والده فى شهادته :[لقد برز مدى حب محمود لشعبه وايمانه بقضيته وبالجهاد عندما ارسل شقيقه مراد لتنفيذ عملية استشهادية داخل فلسطين المحتله عام ١٩٤٨ وعندما سألته كيف ترسل اخاك خاطبني قائلا اخي مثل كل فلسطيني يطلب الشهادة والجنة فلم اكن املك حرمانه منها لذلك انطلق بعد ان ودعني ولكن مشيئة الله كانت ان يكتشف امره ويعتقل في حيفا .

شارك محمود في جميع معارك المخيم وقاتل ببسالة ويقول والده شاهدته دوما يحمل سلاحه ويقاتل ويطلب الشهاده وفي الاجتياح الاخير مر بالقرب من منزل اقمنا فيه بعد تعرض منزلنا للعدوان والقصف فاسرعت نحوه وعانقته وقبلته كان ذلك في اليوم الثاني للمعركة وطلبت من الحذر فشدى يداي وقال لي (ان الله معنا فارضى علي يا والدي وادعوا لي بالنصر او الشهادة) فضممته لصدري وقلت له الله يرضى عليك ويحميك فانطلق سعيدا كالريح وشاهدته يتجول من موقع لاخر يتفقد المقاتلين ويوفر مستلزماتهم من سلاح وذخيرة وتموين .

وابغنا رفاق محمود انه خلال المعركة كان يكبر بشكل دائم ويقول للمقاتلين (الجهاد الجهاد يا اخوتي فمفاتيح الجنة معكم)] .

وتأكيدا لذات المعنى تقول شقيقته (ميسون) : [في المرة الأخيرة التى شاهدته فيها في المعركة الاخيرة كان يوم الخميس وبعد اصابته برصاص العدو الصهيوني فطلبت منه وكذلك طلب رفاقه مرافقتي للمنزل لاسعافه والاستراحة لبعض الوقت فرفض وقال لي توكلي على الله وسيكون كل شيء بخير ، حتى ان ابنته كانت معي فلم يتمكن من عناقها بل نظر الينا بحب وحنان ، وانطلق مسرعا نحو المعركة التي كانت الحلم الذي انتظره طويلا فخلال الفترة الماضية لم يتوقف لسانه عن الحديث عن المعركة ومواجهة العدو وحب الجهاد والشهادة وفي احدى المرات حضر للعشاء لدينا بعد منتصف الليل فامضى ربع ساعة تحدث فيها فقط عن معاني الشهادة والجنة وعندما نطلب منه الحذر يردد (روحي ليست بيد شارون روحي بيد الله ولن اختبيء) وخلال الاجتياحات السبعة التي تعرض لها المخيم لم يخرج منه او يرتاح بل دوما في مقدمة الصفوف .

عندما بلغني نبأ استشهاده تمالكت اعصابي لاني تذكرت محمود وهو يطلب منى الدعوة له بنيل الشهادة ووصيته لي بعدم البكاء والحزن عليه وقلت " الحمد الله رب العالمين فقد طلبت الشهادة ورزقك الله اياها فمبروك عليك الشهادة يا محمود " .

بعد استشهاد محمود أصبحت صورته لا تفارقني وحلمت قبل ايام بمحمود يأتي الى بيتي ثم عانقني وقال لي هل شاهدت ما حدث في المخيم، دمره الصهاينة واخذ يبكي ويقول المخيم راح فقلت له لا تحزن ياخي فمادام المخيم يملك مقاتلين ومخلصين مثلك ان شاء الله سيعود مثل الأول وأحسن . واستيقظت لاكتشف انه حلم ولكن الحقيقة ان محمود يبقى معنا في كل لحظة].

وفى شهادتها حول حبه لفلسطين وللجهاد لنتأمل ما تقوله والدته الصابرة المحتسبة عنه ، وهى الوالدة التى ربت (محمود) على حب الله ، وحب فلسطين فصارت (خنساء) جديدة تقدم فى صبرها وتضحيتها مثالا نتمنى ان تحتذيه الأم المسلمة فى كافة بلادنا المنكوبة بالدعوات المشوهة لتحرير المرأة .. لنتأمل ماذا تقول عنه وعن حبه لفلسطين وللجهاد [بعد انسحاب العدو وانتهاء الاجتياح عاد محمود للمنزل والفرحة تملا قلبه وبارك لزوجته وهنئها بمولودها موصيا اياها بتربيته على السنة والجهاد ثم حلق له رأسه على السنة النبوية الشريفه ,وقد كانت علاقته (بعبد الله) مميزة حتى أطلق عليه لقب " رأس المال " ويعني انه اذا استشهد فان عبد الله سيواصل مشواره ، وقال لزوجته الخطية برقبتك يجب ان تكبري وتنظمي وتحافظي على " رأس مالنا " عبد الله مهما كانت الظروف ليحمل راية الجهاد والمقاومة " .

ايمانه وعظمته جعلتاه لا يتورع لحظة عن التضحية بالغالي والنفيس في سبيل القضية والوطن حتى انه فخخ شقيقه مراد وارسله لتنفيذ عملية استشهادية فاختار يوم خطبة شقيقته وقد أخفى عنا الأمر وبعد الخطبة ابلغنا ان مراد اعتقل وكان حزينا لفشل العملية ولكن عندما سألته كيف تقبل أن تفرط بأخيك ضحك وقال " مثله كمثل جميع شباب فلسطين مجاهد ومناضل يطلب الشهادة التي لا يوجد شيء يوازيها ولكن قضاء الله وقدره " .

عندما اعتقلته السلطة الفلسطينية غضبت وحزنت وبكيت فكيف يعتقل الشيخ المجاهد الذي يقاتل من اجل فلسطين وقد شهدت جنين والمخيم مواجهات ومسيرات حاشدة ضد السلطة احتجاجا على اعتقال طوالبة .

في الاجتياح الاخير حضر محمود لبيتنا في ساعة متأخرة وقبلني وودعني وقرأت في عينيه معاني الوداع الاخير فكتمت خوفي وقلقي واوصيته بنفسه ودعوت الله ان يسدد خطاه ويجنبه كل مكروه فغادر وهو يضحك ويقول [سنلتقي في الجنة] .

* * *

وفى الختام وحول هذه الشخصية الجهادية الفذة ، شخصية محمود الطوالبة ، المجاهد الربانى لنتوقف قليلا عند شهادة وكالات الأنباء الأجنبية عنه وعن شخصيته والتى نقلتها صحيفة السفير اللبنانية بتاريخ ٢٠٠٢/٤/٢٩م .. فماذا تقول [يكاد محمود الطوالبة يتحول الى «اسطورة». فهذا المقاوم، التقي والشعبي، ارتقى سلم النضال تدريجيا واتقن مهارات تصنيع العبوات وحرب العصابات. كان مخلصا في مقاومته للاحتلال الاسرائيلي الى الدرجة التي جعلته يرسل شقيقه مع الاستشهاديين. استشهد الطوالبة، الذي كان ضمن أكثر من تطالب اسرائيل بإغتيالهم، خلال الدفاع البطولي الذي أبداه مخيم جنين ضد القوات الاسرائيلية الغازية والذي حوله الاجتياح الى ركام.

هنا، وسط المنازل الصغيرة المتلاصقة، امضى الطوالبة غالبية حياته القصيرة (٢٣ عاما) . لكنه برغم صغر سنه نسبيا، تحول الى بطل شعبي يرتقي الى حد الاسطورة بالنسبة لأهالي المخيم الذي خرجوا من بين انقاض منازل أحيائهم التي سويت بالارض ما بين الثالث والحادي عشر من نيسان.

وفي لقاءات مع والدته وشقيقه الاكبر وأصدقائه، ترتسم صورة شاب ملتزم وصاحب عزيمة. يقول الفلسطينيون إنه، كأي فلسطيني، كان يمكن ان يحيا حياة «طبيعية» لولا الاحتلال وجرائمه. وبفعل الحصار، سقط الفلسطينيون، ومعهم الطوالبة ورجال المخيم، تحت ما يسمى «خط الفقر». والده بائع خضار يرعى تسعة ابناء.

لقد كان بعد اندلاع الانتفاضة في ايلول / سبتمبر العام ٢٠٠٠ ان بدأ الطوالبة الاتجاه للاهتمام بالعمل السياسي النضالي، وفق ما يقوله شقيقه الاكبر محمد .

انضم الطوالبة الى حركة الجهاد الاسلامي في فلسطين. وخلال بضعة شهور كان هذا الشاب الذي اضطر لترك دراسته في المرحلة المتوسطة، قد اصبح القائد العسكري لحركة الجهاد في جنين. ومن هناك ، بدأت رحلته مع المقاومة بالعمليات الاستشهادية والكمائن والهجمات المسلحة والتي كانت اسرائيل تعتبرها من أعنف ما تواجهه في مختلف المناطق الفلسطينية، وتحمل الطوالبة شخصيا المسؤولية عن مقتل عشرات الاسرائيليين والمستوطنين.

وصار الطوالبة بندا من بنود المحادثات الامنية بين السلطة الفلسطينية واسرائيل التي مارست ضغوطا حتى قامت السلطة باعتقاله في أواخر العام الماضي، ما أثار ثلاثة ايام من التظاهرات الشعبية الفلسطينية الغاضبة امام احد المراكز الامنية بالقرب من جنين حيث كان معتقلا.

ونقل لاحقا الى سجن في نابلس حيث نجح في الفرار بعد ان استهدفت المقاتلات الجوية الاسرائيلية المعتقل بهدف القضاء على من فيه في شباط / فبراير ٢٠٠٢م.

ارسل محمود الطوالبة شقيقه مراد الى حيفا في تموز الماضي لتنفيذ عملية استشهادية لكنه اعتقل قبل وصوله الى هدفه ويواجه عقوبة بالسجن مدى الحياة. وفي مقابلة مع الطوالبة في ١٦ شباط / فبراير ٢٠٠٢م ، قال متحدثا عن شقيقه مراد «نظرت في عينيه، وشعرت بالحزن. لكنني كقائد يجب ان اتخذ قرارات صعبة. لا يمكنني ان اجعل الناس يقولون انني أرسل الناس الى موتهم ولا أرسل شقيقي».

ومات الطوالبة. وكانت المرة الاخيرة التي شاهده فيها شقيقه الاكبر محمد ووالدته تفاحة في السابع من نيسان، أي في اليوم الخامس من معركة صمود المخيم. كان مرتديا زيه القتالي ويعتمر خوذة عسكرية متسلحا ببندقية «أم ٦١»، ويزنر جسمه بحزام من المتفجرات ليفجر نفسه اذا ما وقع في أسر أعدائه.

وبعد انتهاء الاجتياح، تم العثور على جزء نصفي من جثته المشوهة. لكن كثيرين في المخيم يعتقدون انه لم يمت، وأنه ما زال حيا. لكن شقيقه يقول إن محمود الطوالبة مات فعلا: «لقد استشهد، لان هذا ما كان يريده، واعلم انه لا يتراجع».

ترك محمود زوجة وطفلة عمرها ثلاث سنوات سماها دعاء، وطفلا رضيعا، (عبدالله) ولد قبل اقل من شهرين.

* * *

المحور الثاني : نماذج من شهادات الأهل عن الطوالبة

١ – شهادة والد الطوالبة

الاسم :احمد محمد خليل طوالبة ولدت في ٢-١١-١٩٥٠ في مدينة جنين لأسرة فلسطينية فقيرة ولاجئة فوالدي ينحدر من قرية نورس المحاذية لبلدة صندلة والقريبة من مدينة جنين وقد شرد مع آلاف الفلسطينين في نكبة عام ١٩٤٨ عندما اقتحمت العصابات الصهيونية قريتنا وبدات بقتل وطرد الناس فتوجه والدي الى جنين ليقيم مع أسرتنا المكونة من خمسة انفار وفي عام ١٩٥٥ توجه والدي لمخيم جنين ونحن نتمسك بحق العودة لاراضينا المغتصبه والتي لن نتنازل عنها او نفرط فى ذرة من ترابها فمعركتنا مع العدو ستستمر ونتمسك بعهد محمود ودمه ودم كل الشهداء .

تلقيت دراستي في مدرسة وكالة الغوث الدولية في مخيم جنين ولكنني تركت المدرسة في الصف الخامس وبدأت بالعمل لمساعدة والدي في إعالة أسرتنا الكبيرة فظروفنا كانت صعبة وبائسة فقد تفتحت عيناي لاشاهد مناظر البؤس وماساة وحياة اللجوء فقد اقامت اسرتنا ككل اللاجئين الفلسطينيين في بيت

بسيط عبارة عن غرفتين ومطبخ والبيت جداره من الطين ، وسقفه من خشب القصيب بدون ماء او كهرباء او حمامات خاصة ولكن اقيمت حمامات جماعية للرجال واخرى للاطفال وتعجز كلماتي عن وصف واقع حياتنا وسط هذه الظروف ، فالمخيم بائس ويفتقر لكل مقومات الحياة شوارعه تعيسه ، ولا يوجد به مستشفى وتوجد فقط عيادة صحية صغيرة لوكالة الغوث .وبدأت أعمل في كل مهنة شريفة لمساعدة والدي الذي عمل في بيع الخضراوات على عربة متنقلة وبكل صعوبة كان يتمكن من توفير أدنى مستلزماتنا فانضممت اليه وعملت معه .

وسط هذه الظروف الصعبة تزوجت عام ١٩٧١ نفاحة احمد محمد وهي مواطنة من قرية مركة القريبة من جنين وبدأنا رحلة الحياة معا وعندما تزوجت كان عمري ٢٣ عاما وقد تأخر زواجي بسبب ظروف الحياة البائسه في المخيم وبعد زواجي انتقلت للعمل في محل خضراوات في مدينة حيفا براتب بائس -٥٠شيكل شهريا - وقد رزقت بعد عام من زواجي بابنتي البكر زريفه ثم ميسون ومحمد ومحمود ورائد ومراد وعلاء وخليل وعبد الله وقد بدأت حياتي بالسكن في بيت من الطين كبيت أسرتي سقفه خشب قصيب ويتكون من غرفتين ومطبخ ولم استسلم لظروف الحياة الصعبة وتمكنت عن طريق عملي من ادخار مبلغ من المال فاشتريت منزلا صغيرا في حي الحواشين.

ولم يتغير الحال كثيرا بل ان كبر العائلة زاد من التزاماتنا ومشكلاتنا المعيشية ، فسافرت لعمان بحثا عن العمل وعملت في محطة الفوسفات بأجر زهيد مما زاد من ألمي وحزني لان عملي الجديد لم يغير من واقع حياة اسرتي شيئا ، فقرأت في الصحف إعلانا عن وجود فرص عمل بأجور ممتازة في الجماهيرية الليبيبة فسافرت وأقمت هناك ستة شهور وتركت اسرتي في مخيم جنين .وقد واجه والد الشهيد المزيد من الصعوبات في رحلة العمل حيث يضيف قائلا : عملت في عدة مهن ولكن الراتب لم يكن مناسبا فحزمت حقائبي وعدت لأسرتي واقمت معها وعملت في أعمال المعمار .خلال ذلك وفي عام ١٩٧٩ رزقت بالبطل محمود .الا ان الظروف لم تتغير وحياتنا ازدادت شقاء وفي عام ١٩٨١ رحلت مع زوجتي واطفالي للاردن وعملت في محطة الفوسفات الاردنية ، وامضينا عاما كاملا في عمان ولأن وضعنا لم يتحسن عدنا للمخيم فبدأت العمل في عدة ورشات في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ وصممت على ان يحصل ابنائي على التعليم لأعوضهم ما حرمت منه وفرحت كثيرا عندما شاهدت محمد ومحمود يدرسان وكنت اطلب من محمود ان يحافظ على دراسته ليصبح طبيبا او مهندسا فكان يرد علي قائلا اريد ان اكبر لأصبح مقاتلا لتحرير ارضنا وشعبنا ، ومنذ صغره تميز محمود عن أقرانه بأخلاقه العالية وحسن العشرة فحظي بمحبة الصغير والكبير وكل من عرفه.

وعرف محمود الطريق الى الله في سن مبكرة فكان لا يصلي الا في المسجد ويحب قراءة وحفظ القرآن وقد حزنت كثيرا عندما صمم على ترك المدرسة والعمل لاعالة اسرتنا وطلبت منه عدة

مرات التمسك بالتعليم الا أنه تأثر كثيرا بما عايشناه من هموم ومشاكلات وحياة بائسة وأصر على أن يشاركنى وشقيقه محمد المسئولية ، فعمل في عدة مهن وكان يساهم مثلي في تأثيث المنزل وتوفير مستلزمات أشقائه وكان لا يبخل علينا بشيء بل يعمل ويسلم والدته كل قرش ويرفض ان يحتفظ بأي شيء من تعبه ويطلب من والدته الاستجابة لطلبات أشقائه .

وعلاقتي بمحمود كانت مميزة فكان نعم الابن المخلص الحنون الذي لا يشكو أو يتألم بل يقول "أحلم باليوم الذي ترتاح فيه أسرتي وتنتهي معاناتنا" ، وعندما كنت أحدثه عن ارضنا وبيتنا المغتصب ومجازر العدو عام النكبة كان يغضب ويتأثر كثيرا ويقول هذه المجزرة ستتوقف وسنحرر كل ذرة من ترابنا وكان شديد العطف على الفقراء والايتام وأبناء الشهداء فكان يزورهم بشكل دائم ويقتطع جزءا من راتبه ويوزعه عليهم .

وكان محمود من أوائل شباب الدعوة الاسلامية الذين اخذوا على عاتقهم نشر روح الاسلام في اوساط الشباب وعندما اندلعت الانتفاضة الاولى والثانية ، شارك مع شعبه في مسيرة الجهاد وعندما علمت انه مطلوب وطلبت منه الحذر قال " لي كل فلسطيني مطلوب للعدو وعلينا ان نقاتل ونجاهد ونقاوم والله معنا " وعندما لمست لديه روح الاصرار والتحدي تركته ولم اراجعه مرة اخرى وكان قلبي ولساني يدعوان له بالسلامة والتوفيق والنصر .

وكان محمود يتحدث دوما عن الشهادة ويتلو علينا السور القرآنية والأحاديث النبوية التي تحث على الجهاد وتبرز مكرمة الشهيد ومنزلته الكبرى فسمعته عدة مرات يدعو الله ان يرزقه الشهادة .وكان محمود زاهدا في الدنيا ويوزع المواد التموينية على الجميع الا بيته وعندما يحضر رفاقه بعض المساعدات لأسرته يرفضها برغم ان حال أسرته لا يختلف عن حال باقي الاسر وبرغم حاجة أسرته الماسة لتلك المواد فإنه كان يحملها ويوزعها على المحتاجين .

وبرز مدى حب محمود لشعبه وايمانه بقضيته وبالجهاد عندما ارسل شقيقه مراد لتنفيذ عملية استشهادية داخل فلسطين المحتله عام ١٩٤٨ وعندما سألته كيف ترسل أخاك خاطبني قائلا اخي مثل كل فلسطيني يطلب الشهادة والجنه فلم اكن املك حرمانه منها لذلك انطلق بعد ان ودعني ولكن مشيئة الله كانت ان يكتشف أمره ويعتقل في حيفا .

شارك محمود في جميع معارك المخيم وقاتل ببسالة وشاهدته دوما يحمل سلاحه ويقاتل ويطلب الشهاده وفي الاجتياح الاخير مر بالقرب من منزل أقمنا فيه بعد تعرض منزلنا للعدوان والقصف فاسرعت نحوه ، وعانقته وقبلته كان ذلك في اليوم الثاني للمعركة وطلبت من الحذر فشد على يدي وقال لي (ان الله معنا فارضى علي يا والدي وادعو لي بالنصر أو الشهادة) فضممته لصدري وقلت له الله يرضى عليك ويحميك فانطلق سعيدا كالريح وشاهدته يتجول من موقع لآخر يتفقد المقاتلين ويوفر مستلزماتهم من سلاح وذخيرة وتموين .

وأبلغنا رفاق محمود انه خلال المعركة كان يكبر بشكل دائم ويقول للمقاتلين (الجهاد الجهاد يا اخوتي فمفاتيح الجنة معكم) .

وعن تجربة اعتقاله قال والد طوالبة بعد اسبوع من المقاومة داهمت قوات الاحتلال منزل قريبنا محمود حسين الذي اقمنا به فاعتقلوني مع جميع الشبان المتواجدين فيه واقتادوني الى منطقة الساحة وعندما عرفوا شخصيتي بدأ احدهم يصرخ انه (والد طوالبة) فغضب أحدهم ووضع سلاحه في رأسي وهو يقول ستموت كما يقتل إبنك الاسرائيليين الا ان احد الجنود منعه وقال للجندي باللغه العبرية لا تطلق النار فكل الاحترام لهذا الشخص .فقام الجنود بتفتيشي ثم قيدوني واقتادوني الى مركز الادارة المدنية في سالم وهناك نقلت لقسم التحقيق فقابلت عددا من ضباط المخابرات الذين استجوبوني حول محمود بشكل مهين وحرموني النوم والطعام .بعد يومين طلبني ضابط المخابرات وقال لي محمود قتل ، قتله الجيش في المخيم فأدركت انها كذبة ومحاولة لخداعي فتمالكت أعصابي ولم اهتم به ، فغضب وصرخ أليس محمود ابنك فقلت نعم فقال فكيف تخلف واحد مثل محمود فرددت قائلا الله خلقه وليس انا فقال صحيح ولكن أنت ربيته لقتل اليهود ولكن مخمود مات فقلت له ببرود إذا استشهد الله يرحمه فغضب وشتمني وهددني بقتل اسرتي ثم نقلوني للتحقيق في سجن عوفرة وأمضيت ١٩ يوما معتقلا في ظروف صعبة فالحياة في السجن صعبة فقد وضعونا في بركسات زينكو ومنعونا من الاستحمام ومعاملتهم لا تقل سوءا عن وجبات الطعام السيئة التي قدمت لنا والتي كانت نصف زر بندورة وقطعه خبز قديمة لأربعة أشخاص هذا بالاضافه لعزلنا عن العامل الخارجي ومنعنا من مقابلة الصليب والمحامين والاتصال بأسرنا .

وعن شهادة إبنه قال عندما افرج عني من سجون الاحتلال عدت فورا للمخيم فتيقنت من استشهاد محمود فلم أحزن أو أبكي بل عانقت طفليه وقلت هذه أمنيته فاللهم تقبل شهادته فهو رمز للمقاومة والجهاد وانني فخور بهذا القائد البطل الذي لقن الصهاينة دروسا لن ينسوها ونحن نعاهده أننا سنمضي على دربه حتى النصر والتحرير واضاف استقبلت نبأ استشهاد ولدي بالقول " لا حول ولا قوة الا بالله اللهم ارحمه وتقبل شهادته واجعله لنا شفيعا يوم القيامة " .

* * *

٢ - شهادة شقيقته ميسون

ميسون تكبر محمود بخمس سنوات وكانت علاقته معها مميزة ولم ينقطع عن زيارتها وتقديم الهدايا لها وشهادتها من ثم شهادة هامة حيث تقول فيها : منذ صغره كان حنونا وطيبا واحب كل فرد من الاسرة بطريقة لم اعرفها وطفولته كانت هادئة وتصرفه دوما اكبر من سنه وعقله حتى نال محبة وتقدير الجميع ورغم طيب معشره ودماثة خلقه بدأ في الصف الثاني الاعدادي ينقطع عن المدرسة ويتوجه لعمارة قريبة مع أحد رفاقه ويمضون وقتهم في تصنيع المواسير الشبيهه بالبنادق وعندما كنت أساله ما

الهدف من ذلك ؟ يرد نريد مقاومة العدو فكان حريصا على التزود بالمعلومات حول تصنيع الاسلحة التي أصبح أشهر مصنيعها في المخيم .

في احدى المرات تأخر كثيرا في العودة للمنزل وعندما سألته عن السبب عبر سعادته وهو يقول تمكنت من اختراع عبوات ومواسير صغيرة لقتال العدو لقد اقتربت ساعة النصر والجهاد.

واقام محمود علاقة مميزة مع ابن الجيران اسامة أبو الهيجاء –الاستشهادي الأول في مخيم جنين – فكانا يدرسان ويذهبان للمدرسة معا ولا يفارقان بعضهما البعض الاعند النوم ، كما إنهما اشترك في تصنيع المواسيرمعا ولا يتحدثان دوما الا عن مقاومة اليهود .

في إحدى المرات – تتذكر ميسون – وعندما كان محمود في الصف الثاني الاعدادي عثرت على عصفور فاحتفظت به وقام محمود برعايته وعندما مات أصر محمود علىْ دفنه وزينا قبره بالورود ثم حزن محمود كثيرا عليه ، ووزع حلوى عن روحه وهذا يعكس حساسيته فحتى الطير حزن محمود كثيرا على فراقه .

في عام ١٩٩٠ تزوجت – تقول ميسون – فحزن محمود كثيرا على فراقي وأصر على مرافقتي لمنزل زوجي وفي يوم الزفاف حضر لبيتي ونقطني ٢٠ شيكل ثم جلس بجانبي يبكي على فراقي لعدة ساعات وحافظ محمود على صلة اتصال قوية معي وحرص على زيارتي بشكل دائم وكان لدى عودته من العمل داخل فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ يزورنا ويتفقد اطفالي ويحضر لهم الهدايا ويأخذهم للاستوديو ، ويلتقط لهم الصور كما انه لم يبخل يوما علىَ بشيء فكان يقدم لي الفلوس بشكل دائم ,فهو حريص على صلة الرحم يتصرف بتفتخ بصيرة واذا غضب او " ازعله " احد او موقف يسامحه وينام حتى لا يغضب أحد منه .

بعد عدة سنوات بدأنا بالبناء فلم يتأخر محمود عن واجبه ورغم تعبه كان يزور بيتنا ويساعد زوجي بالبناء وقد ساهم في بناء أجزاء من منزلي .

كان متدينا جدا وملتزما بتعاليم الاسلام وشخصيته المحببة التي حرص على الاقتداء بها ، كان الرسول عليه السلام فلا يأكل او ينام الا وفق السنة النبوية الشريفه ، فعاش زاهدا يبذل الغالي والرخيص في سبيل شعبه وبلده ولا يتردد فى القيام بعمل الخير حتى لو كان على حساب حياته فلا يهدأ له بال اذا علم بوجود مشكلة اوقضية لدى أي شخص حتى يحلها وتدخل عدة مرات في حل مشاكل عائلية كبيرة ونجح في اصلاح ذات البين بينها في مشاكل عجز عنها من هو أكبر منه سنا وهذا ما أكسبه حب واحترام وتقدير الجميع ، وفي إحدى المرات وقع خلاف بين سيدة وزوجها في المخيم فتعرضت لاعتداء والضرب وأصيبت بجرح فنقلها محمود رغم انه مطلوب للمستشفى وعالجها ثم حل المشكلة وكلما شاهدت تلك السيدة لا تتوقف عن الثناء والدعاء لمحمود الذي انهى المشاكل التي عايشتها لعدة سنوات.

وحرص محمود على صلة الرحم حتى وهو مطارد كان يعطينا جزءا من وقته وحياته وعلاقته مع شقيقاته مميزة وكذلك مع انسباءه .

في احدى المرات شاهدته جارتنا أم رأفت الصباح ، يتجول في سوق جنين فأوقفته وطلبت منه الحذر فقال لها " كل الامور من قضاء الله وحياتي ليست مهمة أمام حياتكم لا تخافي يا أختي فالله معنا " .

محمود كان داعية كبير للاسلام والصلاة وقد افتتح مكتبة في مسجد المخيم واشترى جميع كتبها الدينية ثم شارك مع رجال الدعوة وشيوخ مسلمين في التنقل لعدة مدن وقرى وترك عمله من أجل نشر دعوة الاسلام ، وتتذكر ميسون ان محمود قبل تركه العمل داخل فلسطين المغتصبة عام ٤٨ بقي له مبلغ من المال على صاحب العمل وعندما اتصل به لطلب حقه لاستكمال اجراءات زواجه ابلغه صاحب العمل انه يعاني من مشاكل مالية وطلب منه تاجيل الموعد فسامحه محمود بالمبلغ رغم حاجته الماسة له .

في المرة الأخيرة مرة شاهدته فيها في المعركة الاخيرة كان يوم الخميس وبعد اصابته برصاص العدو الصهيوني فطلبت منه وكذلك طلب رفاقه مرافقتي للمنزل لاسعافه والاستراحة لبعض الوقت فرفض وقال لي توكلي على الله وسيكون كل شيء بخير حتى ان ابنته كانت معي فلم يتمكن من عناقها بل نظر الينا بحب وحنان وانطلق مسرعا نحو المعركة التي كانت الحلم الذي انتظره طويلا فخلال الفترة الماضية لم يتوقف لسانه عن الحديث عن المعركة ومواجهة العدو وحب الجهاد والشهادة وفي إحدى المرات حضر للعشاء لدينا بعد منتصف الليل فامضى ربع ساعة تحدث فيها فقط عن معاني الشهادة والجنة وعندما نطلب منه الحذر يردد (روحي ليست بيد شارون روحي بيد الله ولن اختبيء) وخلال الاجتياحات السبعة التي تعرض لها المخيم لم يخرج منه او يرتاح بل دوما في مقدمة الصفوف .

عندما بلغني نبأ استشهاده تمالكت اعصابي لأني تذكرت محمود وهو يطلب مني الدعوة له بنيل الشهادة ووصيته لي بعدم البكاء والحزن عليه وقلت الحمد الله رب العالمين فقد طلبت الشهاده ورزقك الله اياها فمبروك عليك الشهادة يا محمود .

بعد إستشهاد محمود أصبحت صورته لا تفارقني وحلمت قبل أيام بمحمود يأتي الى بيتي ثم عانقني وقال لي هل شاهدت ما حدث في المخيم دمره الصهاينة وأخذ يبكي ويقول المخيم راح فقلت له لا تحزن يا أخي فمادام المخيم يملك مقاتلين ومخلصين مثلك ان شاء الله سيعود مثل الأول واحسن واستيقظت لأكتشف أنه حلم ، ولكن الحقيقة ان محمود يبقى معنا في كل لحظة .

٣ - شهادة والدة طوالبة

الاسم :تفاحه احمد محمد طوالبة -العمر : ٥٠ عاما

الاصل :قرية مركة في محافظة جنين

ولدت لاسرة فلاحة بسيطة وفي عام ١٩٧١ تزوجت من ابو محمد وكان عمري ١٩ عاما واقمت معه في مخيم جنين في بيت متواضع وكان يعمل في بيع الخضار والفواكه ثم تنقل من مهنة لأخرى وواجهنا ظروف الشقاء والتعب معا ، حتى رزقنا الله بميسون ثم ظريفة ومحمد ومحمود الذي ولد في ١٩-٣-١٩٧٩ .

فكان ميلاده يوم مميز وطول عمره وجهه سعيد وهني حتى انه كان يساعدني في اعمال البيت وذلك عندما بلغ سن ١٢ عاما .

وتتذكر والدته انه الوحيد من بين اشقاءه الذى كان يبادر لمساعدتها في قضاء الكثير من امور المنزل وتضيف احيانا كنت اخرج للسوق او للحارة وعندما اعود اتفاجأ بمحمود يغسل وينشف الغسيل وينشره ,وقد برع في ذلك اكثر من شقيقاته ولما كنت اطبخ كان يجلس معي ويقلدني ويساعدني حتى انه تعلم فرم الملوخية واصبح يطبخها اكثر مني واستمر في ذلك حتى كبر وعندما كان يعود من العمل لا يرتاح ويساعدني في بعض الاعمال.

وعن دراسته تقول تعلم محمود في مدرسة الوكالة ومنذ الصغر كانت علاماته جيدة وحظي بمحبة معلميه جميعا لانه نشيط ومجتهد وكان من اعز اصدقاءه واقربهم اليه في الصف والحارة الاستشهادي (أسامة درويش أبو الهيجاء) اول استشهادي في محافظة جنين ، وقد تربيا وعاشا معا كما أن الشهيد أسامة تركمان رحمه الله كان ايضا من أعز وأقرب أصدقاءه وقد تأثر كثيرا لاستشهادهما وأقسم على الوفاء لهما والثأر لدمائهما ، ومن أصدقاءه الشهيد عبد الرحيم فرج الذي عاش معه فترة طويلة واستشهد معه في نفس معركة مخيم جنين .

وتضيف - الوالدة - عاش محمود معنا رحلة العذاب والشقاء والالم فاثرت على دراسته وتعليمه وبدأ يدرك حقيقة أبعاد وأسباب المعاناة الكامنة في الاحتلال وما كاد يبلغ من العمر ١٥ عاما حتى بدأ يصنع سلاح المواسير كان ذلك بشكل سري وفوجئت عندما ابلغني رفاقه انذاك بأن محمود لا يذهب للمدرسة بشكل دائم بل أصبح يسعى للمقاومة ومحاربة المحتل ، وفي إحدى المرات حل مواسير البيت وصنع منها سلاحا ، ايضا بدأ محمود يرتاد المسجد وعندما نفتقده وتجده في العمل فقد ترك المدرسة في الصف الثالث الاعدادي أو في العمارة يصنع الأسلحة أو في حلقات الذكر والوعي في المسجد مما جعله يحظى بحب وتقدير وثقه جميع المشايخ والائمة والوعاظ .

خلال ذلك بدأ محمود مسيرة حياته العملية في مدينة حيفا في ورشة قصارة بناء وقد عاد سعيدا بعد اول يوم عمل بحصوله على أول راتب من عرق جبينه وقد أهداني إياه وقال لي أبشري يا أمي فبإذن الله سنساعدك ونخلصك من حالة الضيق والضغط والالم هذه ، وسرعان ما اتقن المهنة واصبح معلما يعمل لديه عددا من الشباب فذاع صيته في جنين والناصرة وحيفا والقدس وأصبح اسمه مشهورا في هذه المهنة .

ولكن عمله وإخلاصه لعائلته لم يكن ليشغله عن تأدية واجبه ورسالته فواصل مسيرة النضال والجهاد مما عرضه للاعتقال مرتين في سجون العدو الصهيوني ولفترات مختلفه في الانتفاضة الأولى فأمضى فترة طويلة في التحقيق وتعرض لظلم واضطهاد الصهاينة مما زاد من قوته وارادته وايماته وعزيمته وتمسكه بالحق كما اعتقل والده عام ١٩٨٩ ، وأمضى عدة شهور في سجون العدو بتهمة أمنية ، واستغل فترة السجن للدراسة والقراءاة والتمسك براية الجهاد والدين والتي اثرت في حياته كثيرا .

وعن علاقته بوالده وأسرته قالت أم محمود رحمه الله تميز بأنه حنون كثيرا فكان يتودد لي دوما وعندما يغيب يوم يحضر في اليوم الثاني ويعتذر ويقبلنا بل انه كان يعمل ويضع فلوسه معي دون حسيب أو رقيب ، وعندما قلت له أريد ان اسجل لك ورقة بما لديك من اموال معي حتى لا يضيع حقك اذا حصل مكروه لي غضب ورفض ، وقال (لا حول ولا قوة الا بالله ما اقدمه لك هو من الله عز وجل وانت حرة فيه واذا قدمتيه لاخوتي جزاك الله عنهم وعني كل خير وانا مسامحك) ،كما كان يقبلني ويدعو لي بطول العمر ، لم يغضبني أو يزعلني ابدا ، وعندما أمرض يلازمني ويساعدني ويقرأ القرآن وينصحني بتلاوة القرآن لأنه فيه شفاء وعلاج لكل الأمراض .

لم افرض عليه زواج ابنة اختي بل اختارها عن طيب خاطر ففرحت كثيرا بزفافه وقد اقام عرسا دينيا تحدث الجميع عن روعته ورفض احضار فرق او دبكه لانها مخالفه للدين وكان الجميع يمدح محمود وحفلة العرس ويقولون له شكرا لك يا شيخ انه عرس ملائكي باذن الله وذلك لشدة النور الذي ارتسم على معالم وجهه في حفل الزفاف علما ان حفلات المجون والرقص كانت سائدة لدى زواجه ومن شدة فرحي بمحمود تعبت ونقلوني للطبيب .

بعد زواج محمود أحببت أن أسكنه وحيدا ولكنه عادللسكن معنا واصر على الحياة المشتركة فزادت محبته في قلبي ولم يبخل علينا بقرش واحد رغم زواجه بل دوما يساعدني في تحمل أعباء الحياة فكان نعم الابن المخلص الهني .

في بداية مطاردته لاجهزة الامن الصهيونية كنت اخاف عليه كثيرا من الاغتيال وعندما اقول له [يا ابني اترك هالطريق مش النا ، احنا فقرا وخلينا نعيش على قد حالنا وبس وليس ولاد الاغنياء ما يقاتلوا ويحرروها] كان يغضب ويقول لي (لا دخل لنا بالاخرين فالله خلق لكل فرد عقلا يمكنه ان يفكر ويتدبر به ونحن نريد الآخرة والشهاده في سبيل الله) وعندما اقول ان قول ابنتك دعاء لك كلمة بابا احسن من كل الدنيا كان يقول (نعم ولكن الله فوق الجميع وهو خلقنا ويعلم حالنا وسواء عشت او استشهدت فهو يتولى دعاء ووالدتها وانت وكل عائلة شهيد) .

وكل مرة اناقشه او اجادله محاولة اقناعه بتغير حياته ووضعه وترك خيار الجهاد كان يقنعني بالآيات القرانية والاحاديث النبوية والقصص الاسلاميه انه يسير في الطريق الصحيح وإنني اخطأ كثيرا عندما اطلب منه ذلك فاحزن ولكنه كان يقول لي (لا تحزني) فهو قلب الأم الذي وضع الله فيه كل اشكال المحبة ، ومن يوم ليوم تغير حديثي وحياتي وأمنت بكل كلمة يقولها فباركت له الشهادة منذ فترة طويلة وشعرت انه ليس ابن عيشة او حياة ، بل سيرحل قريبا ونفقده في كل لحظة وفي الفترة الاخيرة عندما يطلب مني الدعاء له بالشهادة لا اتردد بذلك بل اقول بفخر وايمان (اللهم اكرمه بالشهادة) .

في أحيان كثيرة كان محمود يبكي عندما يتذكر رفاقه الاستشهاديين ويتحدث عن كراماتهم ومنزلتهم ويدعو طويلا ان يرزقه الله الشهادة وفي احدى المرات قلت له أليس صعبا على الشخص ان يفجر نفسه فهل الله يجبر الشهيد على الانفجار فكان يضحك ويقول لي (هنئيا له الجنه فطريقه معبدة بالنور والنوار لانه حبيب الله وسيقابله وعندما يفجر زر الحزام الناسف لا يتردد او يشعر بالالم فلا يرى الا الجنه ولا يشاهد سوى الملائكه تستقبله وتحتفي به) .

بدأت اشجع محمود على القتال والجهاد وأنتهى أي شعور بالخوف او الرعب أوالرهبة خاصة بعدما سمعت القصص التي تتحدث عن بطولاته ومقاومته الشجاعه والباسلة ولم اطلب منه تسليم نفسه او الاستسلام رغم خوفي الشديد عليه فقد اسلمته لله .

خلال مطاردته كان يصنع محمود كواع وعبوات فطلبت منه الحذر والتراجع عن طريقه واستبدالها ببناء جامع ولكنه قال لي (لا يمكن ان يغنى ذلك عن الشهادة ومكرمتها فاقنعني واصبحت اتمنى ان يعلمني تصنيع السلاح لمقاتلة العدو به) .

عندما هاجمت قوات الاحتلال مخيم جنين في ٢٠٠٢/٢/٢٨ كانت زوجة محمود في أيام حملها الثاني الأخيرة وقد داهمتها آلام المخاض في ٣/٤ خلال حظر التجول والاجتياح ولم أتمكن من نقلها للمستشفى فتحدثنا لمحمود بالتليفون وأطمئن عليها ولكنه لم يتحدث سوى للحظات لأنه كان في قلب المعركة ، زوجته تكاد تنجب مولوده الثاني وهو يقاتل في سبيل الله والشهادة ،وبعد طول انتظار وفشل كافة المحاولات لنقلها للمستشفى بسبب العدوان واطلاق النار الصهيوني ، أنجبت زوجته طفلا اسمته (عبد الله) بناء على طلب وتوصية محمود فاتصلت به وأبلغته عبر الهاتف ففرح كثيرا ، واخذ يكبر فاجتمع المقاتلون حوله وعندما علموا بالنبأ فرحوا كثيرا وقدموا له التهنئة واشترى حلوى لهم رغم القتال والمعركة العنيفة ووزعها عليهم احتفاء بالمجاهد الصغير (عبد الله) كما قرر تسميته رافضا الاستجابة لطلب زوجته باطلاق اسم مراد عليه ،وقد مازحه المقاتلون رفاقه قائلين (محمود طوالبة ولد في القصف والمعركة وخرج يقول كواع كواع وليس واءواء كباقي الاطفال) .

وحزنت كثيرا أنا وزوجته عندما لم يتمكن محمود من العودة للمنزل لمشاهدة زوجته وطفله فحملت الولد متحدية كل الظروف وتسللت من حارة لآخرى ومن بيت لبيت رغم القصف والحصار بحثا عن محمود حتى التقيته في حي الدمج فاندفع نحوي سعيدا لمشاهدة عبد الله فقبله وسألني (هل لحستموه تمر وفق السنة النبوية الشريفة) فقلت لا ، فطلب من إحدى نساء الحي حبة تمر وقام بذلك ثم قام بترديد الاذان في اذنه اليمنى واقام الصلاة في اليسرى وهو يدعو الله ان يحمي عبد الله ويمده بالايمان ليواصل مسيرته .

بعد انسحاب العدو وانتهاء الاجتياح عاد محمود للمنزل والفرحة تملا قلبه وبـــارك لزوجتـــه وهنئها بمولودها موصيا إياها بتربيته على السنة والجهاد ثم حلق له رأسه على السنة النبوية الشريفه ، وقد كانت علاقته بعبد الله مميز حتى أطلق عليه لقب (رأس المال) ويعني انـــه اذا استشهد فإن عبد الله سيواصل مشواره وقال لزوجته الخطية برقبتك يجب ان تكبري وتنظمـــي وتحافظي على رأس مالنا عبد الله مهما كانت الظروف ليحمل راية الجهاد والمقاومة .

ايمانه وعظمته جعلاه لا يتورع لحظة عن التضحية بالغالي والنفيس في سبيل القضية والوطن حتى إنه فخخ شقيقه مراد وأرسله لتنفيذ عملية استشهادية فاختار يوم خطبة شقيقته وقد اخفى عنا الأمر وبعد الخطبة ابلغنا ان مراد اعتقل وكان حزينا لفشل العملية ولكن عندما سألته كيف تقبل أن تفرط بأخيك ضحك وقال " مثله كمثل جميع شباب فلسطين مجـــاهد ومنـــاضل يطلـــب الشهاده التي لا يوجد شيء يوازيها ولكن قضاء الله وقدره " .

عندما اعتقلته السلطة الفلسطينيه غضبت وحزنت وبكيت فكيف يعتقل الشيخ المجاهد الـــذي يقاتل من اجل فلسطين وقد شهدت جنين والمخيم مواجهات ومسيرات حاشـــدة ضـــد الســـلطة احتجاجا على اعتقال طوالبة .

في الاجتياح الاخير حضر محمود لبيتنا في ساعة متاخرة وقبلني وودعني وقرأت في عينيـــه معاني الوداع الاخير فكتمت خوفي وقلقي وأوصيته بنفسه ودعوت الله ان يسدد خطاه ويجنبـــه كل مكروه فغادر وهو يضحك ويقول " سنلتقي في الجنة " .

وقاد محمود المعركة البطولية في مخيم جنين واستبسل في المقاومة والتصدي وكانت آخـــر مرة شاهدته فيها يوم الاثنين – اليوم السادس للمعركة – فنعدما اشتد القصف شـــعرت بقلـــق شديد عليه فخرجت لمعرفة أخباره وبعدبحث لعدة ساعات شاهدته في حي جورة الذهب لآخـــر مرة كان يرتدي زيا عسكريا ويعتمر خوذة ووضع على جسده حزاما ناسفا وبيده سلاحه فقبلني وقبل يدي وسألني عن زوجته واطفاله ثم جلس معي خمسة دقائق فقط طلب مني خلالها الدعاء له فكتمت قلقي وخوفي حتى لا أؤثر على معنوياته ودعوت له .

بعد الاجتياح اقامت اسرتي في منزل اقارب لنا في حارة الحواشين ولكن الصهاينـــة لاحقونـــا وقصفوه ثم اقتحموا المنازل واعتقلوا الشبان وشردونا للشوارع وطردونا الى جنين يوم الاثنين فاقمنا في الحارة الشرقيه ثم جمعيه جنين وكانت تلك اصعب لحظات حياتي فـــالاحتلال اعتقـــل زوجي وابني الاخر ومحمود يقاتل ومهدد وبيتنا دمر والقصف يشتد على المخيـــم ، وصـــور محمود وهو يوصينا بزوجته وأطفاله لا تفارقني حتى جاءني نبأ استشهاده فزعلت في البدايـــة ثم وقفت بين يدي الله ادعو لمحمود واقول (اللهم تقبل شهادته التي جاهد في سبيلها وســـعى اليها فقد رفض الاستسلام واراد الشهادة فتقبلها منه وتقبل شفاعته لنا واجمعنا واياه في الجنة

، وتمنيت في تلك اللحظة لو كنت معه او جانبه ولكن سرعان ما غادرت المنزل وصممت على الوصول للمخيم رغم الظروف الصعبه والحصار والحظر والقصف وبالفعل حضـــرت للمخيـــم وعلمت باستشهاده ولكن قلقنا جدا حول مصير جثته التي عثر عليها فيما بعد ممزقه متحللـــة تحت التراب في منزل في جورة الذهب وكنت أقف بجانب طواقم البحث والاغاثه خلال اخـــراج اشلاء فشعرت ان محمود ينظر الي ويحدق بي ، وبصراحه كنت ادعو الله ان يرزقـــه الحيـــاة ليواصل جهاده ولكن الجميع ابلغني انه محمود .

وسألنا والدة الشهيد لماذا لا ترتدي زيا اسودا حدادا على الشهيد فقالت " أعوذ بالله هل تريد ان أزعج وأزعل محمود الذي أوصاني بأن أوزع حلوى يوم شهادته وأن لا البس اسود وانا ابارك لمحمود شهادته وأقول له شعب فلسطين كله يعتز بك وسيمضي على دربـــك ولـــن ييـــأس أو يستسلم .

وتتذكر أم محمود ان الشهيد حرص على اقامة علاقة مميزة مع أسر الشهداء ويوزع عليـــهم المساعدات وفي آخر مرة شاهدته رأيته فى المنام يعود الى شهيدا ومشاعل النور تحف حولـه فمن لحظتها أدركت انه لن يعود فباركت له الشهاده .

ام محمود امراة فلسطينية وقورة ترتدي الزي الريفي الفلسطيني التقليدي البسيط تتحدث بلغـــة ولهجة الام المجاهدة الصابرة التي لا تبخل حتى بأبنائها عن الجهاد لذلك كانت خلال حديثـــها تردد بشكل دائم الادعية المختلفه التي تعبر عن اعتزازها بالشهيد وتتمنـــى الله ان يرزقـــها الشهادة مثله كانت تشعر بمعنويات عاليه وتتحدث بطلاقة وروح مفعمه بالنشـــاط والحيويـــة ويطغى على حديثها سمة الاعجاب والاعتزاز ببطولات إبنها والتقدير الشـــديد لـــه ،لا تفـــارق الابتسامه محياها خاصة عندما تردد اسم محمود ، تتوقف عدة مرات لتتذكر او تروي القصـــة فسجل محمود كما قالت طويل وحافل وما شاهدته اثر عليها وجعلها تنسى الكثير .

ام محمود قررت العيش مع زوجة وأطفال إبنها لتربيتهم وفق النموذج الاسلامي الرائع الـــذي نسجه ابني) كما تقول فلن نخذله أو نتخلى عن وصيته مهما كانت الظروف والصعاب والمشاكل (وسأحتفظ ببارودة محمود حتى يكبر عبد الله ويحمـــلها ويحقق الحلم الذي استشـــهد والـــده دونه).

* * *

٤ - شهادة زوجة الشهيد طوالبة

الاسم :سماح جودت سليم ابو الوفا ٢٤ عاما من قرية الزاوية القريبة من جنيـــن ،ترتبـــط بعلاقة قرابة مع الشهيد فوالدتها حياة شقيقة والدة طوالبة ووالدها يعمل مزارعـــا ، وقـــد خطبت لمحمود في ١٩٩٨/٥/٢٤ .

تقول (من يتعرف على محمود ويسمع حديثه لا يمكن الا أن يأسر قلبه وعقله ويحبه ويقدره كثيرا فهو خلوق متواضع بسيط خجول معطاء كريم طويل النفس صبور حليم متزن ، عندما خطبني كان يعمل في القصارة في فلسطين المحتله عام ١٩٤٨ وزياراته لنا محدودة بسبب ظروف عمله الصعب والقاسي ولكن وجدت فيه مثال للشاب المؤمن المخلص الواعي النادر في هذه الايام والزمان الصعب فعندما كنا نجلس اونخرج لنتمشى أو نذهب لزيارة أحد أو شراء شيء سواء خلال الخطوبة او الزواج لا يتحدث الا عن الاسلام والدين والجهاد والاخرة فيقول لي (يا سماح انظري ما احلى الدنيا ولكن الآخرة أحلى وأجمل) .

خطبت لمحمود سنتين وتأخر زواجنا بسبب ظروف الحياة القاسية وامضيت معه ٤ سنوات زوجة فلم يتأخر يوما عن صلاة أو ذكر الاحاديث حول الاخرة والدنيا .

عندما قرر محمود الزواج طلبت منه اسرته اقامة حفل ليبقى ذكرى.وتشعر بالسعادة خاصة وان الموضه انذاك كانت حفلات فوافق ولكنه اشترط اقامه حفلة وعظ وارشاد ديني وبالفعل احضر (فرقة الشهداء) وكان حفلا مميزا وكبيرا يشهد له الجميع لانه تحول لحفله لذكر الله واعلاء راية الاسلام والجهاد فحتى عرسه كان مناسبة للايمان والارشاد والجهاد.

وكان حلمه ان يرزق بولد يسميه عبد الله ثم الشهاده فقلت له لماذا عبدالله لنسميه مراد فرفض وقال عبد الله فجميعنا عبيد لله واطلق على الابنة الاولى دعاء وقال لي السبب ان كل شيء في الكلام والحديث والصلاة والعبادة يبدأ بالدعاء لله فدعاء هي دعوة مفتوحة لتقربنا لله والجنة والخير والثواب .

وتقول زوجته منذ زواجي اعتاد محمود يوميا على قراءة القرآن واختتام جزء منه واذا لم يتمكن من الختمه يكملها بفتح شريط مسجل لعدة ساعات يمضيها في سماع القرآن والدروس الدينيه وكذلك انا فأكد علي واجب قراءة جزء من القرآن الكريم يوميا والتزمت بذلك وسالتزم بكل وصية منه لأنه لا يرشدنا الا للاسلام وللاصلاح والخير فحتى عند النوم لا يغفى الا على صوت القران الكريم فهو كان يحتفظ بمكتبة دينية كبيرة تضم عدد كبير من الاشرطة والكتب الدينية اما التلفاز فكان لا يتابع الا محطة القرآن الكريم و" إقرا " وتلفزيون المنار وينهاني عن مشاهدة المحطات الاخرى لانها تنشر الفساد وبالفعل شطبنا جميع المحطات ولم نتابع الاخبار والبرامج الدينية الا من المحطات المذكورة .

ورغم عمله الشاق فإنه لم يكن يتأخر لحظة عن مساعدتي فاذا مرضت يصبح طبيبي وممرضي حتى أشفى واذا زعلت يفرج كربي ، ويخفف ألمي واذا كثر الشغل يساعدني في تصريف أمور البيت ، لم يكن يخجل من مساعدتي رغم انتقاد البعض له فكان يجلي ويكنس ويغسل ويطبخ واجلي الصحون انا واياه واحيانا يغسل دعاء وانا ألبسها والعكس ، ويطبخ ايضا وفي إحدى

المرات انتقده صديقا له فقال له " العيب هو العيب اما مساعدة اسرتي فواجب فالرسول عليه السلام كان يساعد زوجاته ايضا " .

واعتاد الشهيد على اختيار اللون الاخضر في لبسه وبيته وحياته وعندما اسأله عن ذلك يقول انه لون الجنة لذلك حاول ان تكون حياتنا خضراء سعيا لجنة الله الأكبر والاجمل كما كان يقول دوما .

بعد زواجنا طلبت منه هدية الزواج شهر عسل جميل فقال لي ما هي الهديه فقلت له قضاء العمرة وبالفعل سافرنا معا للعمرة وبعت ذهبي لأنه لم يكن لديه نقود كافية لذلك .

علاقه الشهيد مع جيرانه كانت ممتازة فيشاركهم افراحهم واتراحهم ولا يتوانى عن مساعدة المحتاج والفقير وتلبية دعاء احد وفي العيد كان يستيقظ باكرا ثم يزور جميع الجيران ويعايدهم فردا فردا حتى اثناء مطاردته لم يتخلى عن هذه العادة بل كان يعايد الشهداء ويزور اضرحتهم وذويهم ، ثم يتابع رحلته المعتادة اما علاقته مع عائلته فكانت ممتازة خاصة مع والدته ، فكان يوصني بأمه خيرا ويؤكد علي محبتها واحترامها ويذكرني أنها ربته بدموع عينيها وتعبت عليه كثيرا حتى اصبح شابا كما انه أحب شقيقه محمد كثيرا واتذكر قوله (محمد ضحى في حياته وترك المدرسة صغيرا لأجلي واشقائي وشقي وتعب وعمل في الخضرة من اجلنا) فمحمود كان مخلصا لا ينسى شيء ويقدر الجميع .

تميزت حياة زوجي بالبساطة فلم يتكبر على احد ولم يتنكر على نعم الله عليه حتى وان كانت بسيطة فبابه مفتوح للجميع وقلبه مفتوح للجميع ولقمته غير مشروطه حتى وان كانت حبة زيتون فيحمد الله عليها كثيرا وكان يوصني بشراء اللحمة وتوزيعها على الفقراء أما هو فيرفض الدجاج أو اللحمة .

مع مرور الايام طلبت منه شراء بيت فغضب وقال لي لا اريد في هذه الدنيا سوى شيء واحدا ان اعيش فقير المال غني الايمان بالله ، لا أريد شراء بيت أو أرض لأنها جميعا فانية كل شيء يذهب ويبقى وجه الله .

ومن صور كرمه رغم ضيق يده أنه تعرف على أحد الاشخاص الذي يعيل أسرة مكونة من خمسة انفار فاشفق عليهم وساعدهم الا ان الرجل توفي فتكفل محمود باحد اطفاله للابد وكان يفكر به ويكسوه قبل أولادي وسأبقى احتضنه واكفله على عهد محمود كما اوصاني رحمه الله.

ومحمود كان يحزن كثيرا اذا شاهد انسانا مهموما او محتاجا فلا يغمض له جفن حتى يساعده او يفك حاجته ،حتى انه تبرع بسرير ابنتنا دعاء لاحد الاطفال الايتام فقد كنت اجلس مع اخته ظريفة التي كفلت طفلا وتحدثني انها تفكر بشراء سرير لطفل ولا تقدر بسبب وضع زوجها المالي وبدون سؤالي او مشاورتي او تردد

توجه محمود للغرفة ونقل دعاء من السرير لانها كانت تنام عليه واهداه للطفل ،وفي حادثة اخرى وبعد ولادتي لدعاء قدمت لي احد النساء حرام صوف هدية فشاهده محمود وسالني كم حراما لدينا فقلت ثلاثه فقال واحد يكفي وزعي الاثنين على الفقراء فقلت له يا محمود كيف ذلك فقال فرجي على الناس ليفرج الله عنا يوم الحشروالقيامة ، وفي مرة اخرى فوجئت بمحمود يحل اسطوانة الغاز ويخرج بها ولما سالته الى اين انت ذاهب قال لي التقيت بجارنا وشكى لي عدم قدرته على شراء غاز وساتبرع له بغازنا فقلت له ولكن لا يوجد لدينا غيرها فقال بامكاننا ان نعيش دون غاز وسلمه للرجل وهو سعيد .

وفي مرة أخرى اشتريت ثلاجة ولم أكد أفرح بها حتى قدمها لوالدته وامضيت عامين دون ثلاجة واذا أردت وضع شيء في ثلاجة اضعه لدى الجيران .

في احد ايام الصيف حضر لبيتنا احد الجيران وطلب ماء ولم يكن عندي سوى قنينة واحدة فاعطاها محمود له فقلت له ماذا سنفعل بدون ماء انها لابنتك دعاء ، فقال ان الله يرزقنا من حيث لا نحتسب ، وبالفعل بعد قليل بكت دعاء تريد ماءا فقلت له ماذا افعل فرد على اصبري وسيسيرها الله فذهبت لجارتي واحضرت بعض الماء واسقيت ابنتي ، وقد اعتدت بعد معرفتي الجيدة به على عدم معارضته بسبب حبي وتقديري الكبير له وقوة اقناعه واقتناعي بان ما يفعله هو الخير والافضل .

* * *

نشاطه السياسي

خلال زواجي به ازدادت حدة القمع الصهيوني لشعبنا وبدأ محمود يتأثر بما يسمعه ويشاهده من هموم ومعاناة شعبنا ومجازر العدو فقرر الانخراط في المعركة والنشاط الجهادي وبعد علم من زواجي التحق بالجهاد الاسلامي ولم ينتم فى حياته لأي فصيل آخر مع تقديري لكل الفصائل والتنظيمات وقد تضايقت ، وزعلت كثيرا عندما قرأت بياناً لأحد التنظيمات يقول إن محمود انتمى اليها قبل التحاقه بالجهاد وهذا غير صحيح فانا اعرف محمود منذ بداية نشاطه الوطني فقد دخل (الجهاد الاسلامي) عن قناعة وايمان وبعد دراسة وكان نشاطه العسكري فى (سرايا القدس) ولم نكن نعلم أنه يصنع أسلحة وكواع ومتفجرات ولكن أول خرطوش صنعه محمود قبل أن يصبح مطارداً كان في بيتنا لم أشاهده وهو يصنعه ولكن عندما عدت من السوق وجدته يعبأه بمادة غريبة سالت على الأرض وخربت الموكيت والسجاد فقلت له ما هذا فقال (خرطوش فبكيت وقلت له حرام خربت الدار فضحك وقال لي اصبري فالله سيعوضك خيرا منها) .

وعلمت من الشباب ان محمود ترك العمل وبدأ يتدرب على السلاح ويصنع الاكواع فقلقت عليه وخفت وبدأت بمجادلته وطلبت منه التوقف عن ذلك فقال لي اقرئي القرآن الكريم جزءا جزء ستكتشفي مدى اهمية وعظمة كلمة الجهاد ، انه فرض ففعلت ، وقرأت القرآن والاحاديث

واستمعت لأحاديثه فبدات نفسيتي تتغير ومعارضتي تقل ولكن في أحد الأيام قلت له يا محمود اذا استشهدت أمك ستموت فلماذا تؤلمها وتؤلمنا فكان يقول (الله سيصبرها ويصبركم لأنني أريد ان أقابل الله بوجه حسن مجاهد) فقلت له ان شاء الله.

سألت سماح : هل تمنيت لمحمود زوجك الشهادة بعد ان طلبها ؟

- أجابت : وهي تبتسم بكلمات قوية وطلاقة - اجل تمنيت له الشهادة من قلبي وباركتها له من كثرة ما شاهدته يطلبها أعرف الكثيرين ممن يمسكون على الحياة بأرواحهم وايديهم ويكرهون ساعة الموت والفراق ، اما محمود فكان مختلفا يبكي في سبيل الشهادة يصلي للقاء ربه يجاهد لنيل المكانة العالية ، محمود كانت حياته الشهادة يقول لي دوما عندما يشن العدو هجومه على المخيم لا اريد الحياة ولا الهرب ساقاوم واجاهد واقاتلهم لانه لا يموت احد ناقص من عمره ساعة " ويستند في ذلك على مجموعة من السور القرآنية والاحاديث النبوية هذا الحب وتلك العظمة التي مثلها زوجي جعلتني ادعوا الله بصدق ان يحقق امنيته وباركته وباركت له بالشهادة .

علاقته مع القائد حردان

تغيرت حياة وتحركات محمود بعد التحاقه بحركة الجهاد الاسلامي فبدأت أسمع اسماء مثل ايلد حردان وغيره ممن اكتشفت أنهم مجاهدون ومقاتلون عظماء وبعد استشهاد إياد ابلغني محمود انه تأثر بمواقف وبطولات اياد كثيرا واستمد منه الكثير من المعرفة وانهما كانا ينسقان للقيلم بأنشطة مختلفة ولاحظت مدى تاثر محمود بعد استشهاد إياد إثر اغتياله من العدو فغضب وزعل وسمعته وهو يصلي تلك الليله يبكي ويقسم على الثأر والانتقام .وتاثر محمود عقب استشهاد محمد الدرة وايمان حجو وسارة ، دوما كان يتحدث عن الطفلة البرئيه سارة ويقسم على الثأر لها وعندما كان يسمع أدعية الجهاد والمقاومة والايمان خاصة في تلفزيون المنار يبكي ويركع ويصلي ويقول " الله اكبر اللهم ارحمنا واشفق علينا وارزقنا الشهاده اننا مقصرون فلا تؤاخذنا واغفر لنا " .

ارسل شقيقه لتنفيذ عملية

وتقول سماح لم افاجأ عندما علمت ان محمود ارسل شقيقه لتنفيذ عملية رغم عدم معرفتي بذلك ولكن محمود كان مقتنعا كثيرا بعظم رسالته ومثلما جهز نفسه للشهادة لم يتأخر في تجنيد شقيقه ، وعندما اعتقل مراد ولم يستشهد بكى محمود بشدة وغضب وزعل وسمعته يقول كنت اتمنى له الشهادة لأن أجر الشهيد ورتبته عند الله كبيرة وعالية ،وعندما سألته يا محمود كيف تتجرأ وترسل شقيقك للاستشهاد قال لي " **انه شاب فلسطيني مُجاهد لا يختلف عني وعن كل ابطال الجهاد في فلسطين ولانه مؤمن بالله ورسالة الجهاد تطوع للاستشهاد ، وتأدية الواجب ، صحيح انه اخي ولكن القضية اكبر واعظم واهم ، مطلوب مني ومنك ومن كل فرد ان يجاهد وعندما طلب مني مراد تفخيخه فرحت**

كثيرا وعانقته وعبرت عن سعادتي واعتزازي به وتعاملت معه ككل استشهادي مع محبة لا توصف لان اخي يسير على دربي لم اتردد او احاول تغيير رأيه فشجعته وتحدثت له عن مكرمة الشهيد فبكى وانطلق لحيفا راجيا لقاء ربه ومعاقبة عدوه والثأر لشهدائنا ولكن ارادة الله هي الاكبر فاعتقلوه واكتشف امره قبل تنفيذ العملية .

نساء يطلبن منه التجنيد

وتواصل زوجة الشهيد شهادتها قائلة : ذاع صيت طوالبة بعد ارسال شقيقه لتنفيذ عمليةٌ استشهادية زاد حب وتقدير الجميع له خاصة وان بعض المتسلقين والاذناب للعدو كانوا يحاولون تشويه صورة المجاهدين الذين يقفون خلف العمليات وبعضهم يقول لماذا لا يرسلون ابنائهم واهلهم للعمليات فجاءت عملية مراد لتخرس كافة الالسن وتؤكد ان العظماء كمحمود لا يعملون الا وفق مصلحة شعبنا فتزايد عدد المتدافعين لتنفيذ اللعمليات والغريب ان فتيات حضرن لمنزلنا وطلبن من محمود تجنيدهن ولكن محمود رفض وقال لهن بعض العلماء ان الجهاد للمرأة في أسرتها ومدرستها وبيتها وأولادها كانت بعض الفتيات يبكين بشدة وتطلبن منه بإلحاح ارسالهن العمليات ولكنهن كن يخرجن من عنده اكثر ايمانا وصبرا واحتسابا ويتغير رأيهن ، لم اكن اعرف ماذا يقول لهن ولم أكن أعرفهن خاصة وانني غريبة ولست من المخيم ثم انهن كن يطلبن مقابلته شخصيا ولكن كل واحدة تقابله تخرج سعيدة تدعو له بطول العمر فهو يهدي كل واحده كاسيت وكتاب دين ويكتب لبعضهن اوراق وتوجيهات دينية .ولم اكن اشعر بالغيرة لذلك لانني اعرفه جيدا وعلى قناعة تامة بكل ما يقوم به من واجب وعمل خير .

كيف اصبح مطاردا

وتواصل الزوجة قائلة : لعدة اشهر خلال الانتفاضة حرص محمود على عدم الظهور العلني وتابع نشاطه السري دون علمي بل لم يكن يشارك بالمسيرات حتى فوجئنا جميعا بالعدو ينشر خبرا ان محمود طوالبة مسؤول الجهاد الاسلامي يجند (منتحرين) لتنفيذ عمليات في اسرائيل ، وذلك بعد اعتقال شاب من قرية الهاشمية خلال محاولته تفجير نفسه قرب العفولة وفي التحقيق معه اعترف ان (طوالبة) جنده (لسرايا القدس) ودربه وسلمه حزام ناسف ، لم يعلق محمود على ذلك ولكن شكله وتحركاته تغيرت خاصه ان وسائل الاعلام بدأت تردد اسمه كثيرا واجهزة الامن الصهيونية وضعت اسمه على رأس قائمة المطلوبين خاصة بعد تنفيذ صديقه (اسامة ابوالهيجاء) ورفيقه (علاء الصباح) اول عملية استشهادية لسرايا القدس خلال الانتفاضة في الخضيرة فاتهمته اسرائيل بالوقوف وراء العملية ، ولكنه لم ينتظر طويلا فأرسل شقيقه ثم علمت انه بعث الاستشهادي محمد نصر الى حيفا ونفذ عملية جديدة .

طبعا كان محمود يتحرك كثيرا وكل يوم اشاهده مع ناس جدد ولان غرفتنا معزوله عن باقي البيت لم يكن من السهل معرفة الاشخاص الذين يأتون اليه ولكن بيته بقي مفتوحا ليل نهار يستقبل ويودع ويقرأ قرآن ويتلو الاحاديث وقصص الجهاد .في بعض المرات كنت اسأله ماذا ستفعل اذا علم أحد الاستشهاديين إنك أرسلته للعملية ؟ فقال لي **(ان الله معنا لذلك لن اخاف ولدي الحجه والقدرة لإقناعهم المهم انني لا ارسل شابا الا اذا اقتنعت باستعداده وقدراته وخشع وبكى واظهر رغبة وحبا في الجهاد والشهادة ، جاءني العشرات وطلبوا التجنيد فرفضت لانهم غير مؤهلين لذلك)** .

ثم سألنا سماح كيف عرفت ان زوجك مطلوب من قبل قوات الاحتلال ؟

ابتسمت وحدقت طويلا في صورة محمود وقالت عندما نشروا اسم محمود وثابت مرداوي في الصحف والتلفزيون – واتذكر تلك اللحظة – كنت اجلس ومحمود ونتابع التلفزيون عندما قال المذيع ان طوالبه ومرداوي اخطر مطلوبي الجهاد الاسلامي لاسرائيل فضحك مطولا فقلت له بغضب بيقولوا عنك مطلوب رقم واحد وبتضحك فقال لي رقم واحد أو رقم الف لن يقصروا عمري يوم وشارون ضعيف ولن يغير في قدري ومصيري شيء فلا يوجد شخص يموت وناقص من عمره ساعة واحدة وردد نحن لا نخشى اليهود . فالله احق ان تخشوه . بعد ذلك تغير نهج حياتي وبدا يمارس دوره الجهادي بشكل علني ورفض الحياة مشردا وهاربا واصر على مواصلة المعركة والحياة مع اسرته فكان ينام في بيتنا ويتحدى الاحتلال وبإذن الله تمكن من افشال ٤ محاولات لإغتياله .

الاولى : يوم اغتيال الشهيد معتصم الصباغ فنجا من الموت بإعجوبة والثانية عندما قصفوا سيارة قرب المقاطعة لأنهم اعتقدوا وجوده داخلها والثالثه بتفجير سيارة كان يقف قربها فاستشهد عكرمة استيتي ومجدي الطيب وكلاهما من كتائب الاقصى والرابعة عندما كان في سجن السلطة في نابلس فقصفوا السجن ونجا من الموت بإعجوبة فوهب حياته للجهاد وأصبح اكثر أستعدادا للتضحيه والعطاء والمقاومة.

في المناسبات كان محمود يهديني كتب دينيه واشرطة اسلامية ويطلب مني توزيعها على الاصدقاء والاهل ، وفي لحظات اجتماع الاهل أو الأصدقاء معه كان حديثه فقط عن الله والايمان والجهاد فكان يقول شارون يقول عن شعبنا إرهابي ولكنا نؤكد للعالم انه هو الارهابي الذي يقتل ويسفك الدماء ونحن لن نرحمه ولن نسامحه وسيدفع الثمن مضاعفاً .

بعد مجزرة الجمعه السوداء في جنين والتي استشهد خلالها خمسة اشخاص في اليوم الاول من رمضان في عام الانتفاضة الاولى تأثر محمود كثيرا بالمجزرة وقال لي انظري كيف ينزف دمنا بدون سبب ، سنجعلهم ينزفون ويدفعون الثمن فقلت له الا تخاف فقال . **لا اخاف من الموت فارادة الله اقوى وسيمنحني القوة التي ساكرسها لمقاتلتهم ما دمت حيا ، اسرائيل كيان الطغاة والاجرام سيدمر ستبيده السريا والله معنا لننتصر .**

* * *

كانت زوجة محمود وهي تتحدث مبتسمة وسعيدة جدا ولا يوجد في صوتها او كلماتها أي روح او معنى للحزن اوالألم وسألها معد هذا الحوار كيف تتحدثين بهذه الروح وزوجك فارقك الى الابد وهل أنت فرحة ؟فابتسمت وقالت نعم أنا سعيدة لانني زوجة شهيد مجاهد مؤمن عندما كنت أساله ماذا سأعمل اذا استشهدت يرد علي قائلا اصبري لأننا سنلتقي فى الجنة فقلت له اذا غبت عني فترة بسيطة ابكي فماذا افعل على فراقك ومن سيمنعني من البكاء ؟ فقال لي : الرسول عليه السلام بكى ولكن احذري النواح والعويل والحداد فاصبري وصابري وتذكري انني ذاهب للقاء وجه ربي ، للجنة ، فلا تحرقيني بدموعك ولا تؤخري لقائي بوجهه الكريم وعندما سألته ولكن سأتعب كثيرا فى حياتي وتربية أطفالي فأشفق علينا قال لي " الله معك ومعهم وسييسر لك امورك " لذلك كله انا سعيده لان زوجي استشهد وهو يجاهد لتحقيق فرض الله الجهاد وأي كرامة اكبر من ذلك ولأن رؤياه تحققت ورغم فقداني له فإن الله يسر أموري ولم أتعب منذ رحيله فى شيء.

الوداع الاخير

في الليله التي سبقت الاجتياح حضر محمود للبيت وودعني وأطفالي وشاهدت معه ثلاثة حزامات ناسفه وضع إحدها حول جسده فضحكت وقلت له والله لايق عليك يا شيخ محمود فقال لي سأفجرهم فيهم ، ثم قبل اطفالي وقال لي حملة اليهود هذه المرة مختلفة أنهم قادمون لأجلنا وعلينا مقاومتهم ولن نستسلم ، تقول سماح : شعرت ان محمود يودعني لآخر مرة وبالفراق الابدي فتمالكت اعصابي وطلبت منه حمل (عبد الله) الذي لم يكن قد بلغ الشهر من عمره بعد وحمله وقبله ثم حمل (دعاء) نظراته اختلفت فقلت له قلبي يقول لي انه لن يعود توكل على الله لك الله فقلت له محمود سامحني فسامحني فقلت له إرضى عني وادعي لي بالصبر لأربي اولادك تربية صالحة وأعلمهم كما تحب (دعاء) طبيبة اطفال و(عبد الله) شريعة اسلامية ,عندما شاهدني كذلك ، بكى وبدأ يدعو لي بأدعية لم أسمعها من قبل ثم قال لي كوني على العهد يا سماح فانت قرأت ما لم أستطع الحديث عنه فالقوات القادمة للمخيم كبيرة وقد ننتصر أو نستشهد ولن نتراجع فلا تحزني وصوني الوصية ثم سار عدة خطوات ورجع فقلت له مع السلامة توكل على الله فذهب وعاد عدة مرات فقالت له (دعاء) بابا قبلني مثلما تقبلني كل مرة فيعانقها ويقبلها فازداد ألمى وقاومت ورأيت وساوس الشيطان تصوره امامي شهيدا فجلس قرب (عبد الله) وقبله عدة مرات ثم خرج وبعد لحظات عاد وودعني ونظرت اليه وهو يضع يده على كبسة الحزام وقلت له دير بالك على حالك فقال لي توكلي على الله وانطلق ولم اشاهده طوال المعركة الا مرة واحدة ومن مسافة بعيدة وقضيت الوقت أدعو الله وله حتى جاءني نبأ

إستشهاده ، في البداية بكيت ورفضت ان أصدق ذلك ولكني تذكرت محمود وكلماته فتغلبت على حزني وألمي ولست نادمة وأنا فخورة بزوجي القائد الذى كان بالنسبة لنا نعم الأب والأم والأخ والزوج والحياة كلها ، لذلك سأتابع حياته ومسيرته في أطفاله فقد قال لي ان الله سيكون معنا ولن يضيعنا وسيسهل طريقنا ولست نادمة على إستشهاده فرحمه الله لأنها أمنيته وأتمنى لو كان لدي ولدين شابين ليحملان رايته وبندقيته وأقول لأم وزوجة كل شهيد لا تبكوا على الابطال فمنزلتهم ومكرمتهم كبيرة وسنلقاهم فى الجنة وعلى كل إمراة فلسطينية أن تكون الخنساء وياليت جميعنا نكون استشهاديين .

* * *

ختاما تقول الحقائق أيضا ان محمود طوالبه كان يتبرع بغالبية راتبه الذي يحصل عليه من الجهاد للفقراء والمحتاجين وزوجته تبرعت بالمبلغ الذي حصلت عليه من العراق وقيمته ٢٥ الف دولار لأسر الفقراء والمحتاجين .

٥ - شهادة كامل محمد طوالبة

عن ابن عمه الشهيد القائد محمود طوالبة

تقول شهادة كامل محمد طوالبة (٤٣ عاما) الرباع السابق ان معاناته بدأت في السادس من الشهر الماضي، وروي " إن الجنود دخلوا منزلي حوالي الساعة ٥،٣٠ صباحا بعدما قصفت دبابة الطابق السفلي من المنزل علي رغم وجود اولادي الـ١٣ فيه، ثم أطلقت مروحية صواريخ عليه " . واضاف بعد ذلك اخذوا يقومون بترهيبي من خلال دفعي الي الاعتقاد بأنهم سيقتلون طفلا كل خمس دقائق بدءا بالاصغر . وتابع انه اقتيد مع ابنه رواد (١٤ سنة) في حال الصدمة الي منزل في الحي يضم ثلاثة طوابق حيث هناك سبعة سجناء آخرين. وقال كامل طوالبة: كان الليل قد هبط وكنت موثوق اليدين وراء ظهري ومعصوب العينين. ووضعونا امام النوافذ واطلقوا النار من فوق اكتافنا ، واستمر ذلك ثلاث ساعات علي الاقل . واضاف اعتقد ان المقاومين الفلسطينيين كان يعرفون بوجودنا، فأوقفوا نيرانهم. ثم تركونا ننام ووجوهنا متجهة نحو الارض وسط حطام الزجاج .

وأفاد كامل،الذي بدت علي يديه آثار الاغلال،إن الاسرائيليين طلبوا منه باللغة العربية في اليوم التالي الدخول قبلهم الي منزل إبن عمه محمود طوالبة،المسؤول المحلي لحركة الجهاد الاسلامي،الذي عثر علي جثته في١٠(ابريل) الماضي بين انقاض المخيم وقال:كانوا في ما يبدو يبحثون عن أدلة تثبت وجود ورشة لتصنيع قنابل، لكنهم لم يتجرأوا ويدخلوا البيت. فرفضت لأنني كنت خائفا من أن استخدم هدفا. فقصفوا اخيرا المنزل،ولم أر ابن عمي منذ ذلك الحين.

* * *

٦ - شهادة ظريفة الشقيقه الكبرى لمحمود

كانت حياتنا صعبه وابي غير قادر على توفير جميع مستلزماتنا فضحى اخي الاكبر محمد بمستقبله وترك المدرسة وبدأ يعمل فلتح بسطة صغيرة ثم محل متواضع أما علاقته بمحمود فكانت متميزة وقوية وعندما أنضم محمود للعمل حافظ على رابطة الاخوة الصادقه مع محمد حتى انهما كان يضعان نقودهما معا ولاتشعر بفرق بين فلوس محمد ومحمود (فجيبتهما واحدة) وكانا يدا واحدة في السراء والضراء أما محمود منذ الصغر تميز بالشجاعة وقوة الشخصية والايثار وحب عمل الخير وساهم في تزويج محمد وفرح كثيرا لزفاف شقيقه الاكبر .

عندما تزوجت كان عمر محمود ١٦ عاما فبكى بشدّة لمغادرتي البيت وأصر علي مرافقتي وجلس قربي على منصة العرس ولم يتمكن من اخفاء حزنه وشعرت بألم شديد وعيناه لا تتوقفان عن النظر لي ووداعي بصمت ولكنه حافظ على علاقته بي وتردد علي دوما وكان يتحفنا بأحاديثه وعظاته التي تركت اثرا كبيرا فينا ، حتى عندما يأتي الينا يتجمع أهل زوجي والاصدقاء للاستماع اليه فقد تميز بنهج محبب وفريد في الدعوة لله وزرع روح الايمان والجهاد في قلب كل فرد فينا وكأنه كان يؤهلنا للحظات استشهاده ووداعه .

محمود كان شهما ونموذجا نادرا للتضحية والايثار ويرفض قبول أي مساعدة وعندما تصل لبيته أية تبرعات يوزعها على المحتاجين والفقراء بل إنه تبنى عدد من الايتام وحرص على دفع راتب شهري لهم ، اضافة لكسوتهم ورعايتهم كل ذلك دون علم أحد حتى والدتي ، وقد سمعنا بذلك بعد إستشهاده عندما حضرت الارامل وبعض نساء المخيم الفقيرات وابلغننا بما قدمه محمود لهن من مآثر ومساعدات فعلمت ان راتبه الشهري كان يوزع نصفه على الفقراء ، ونحن نعاهد محمود ان نصون وصيته ونعتني بكل فقير أو شخص ساعده ولن ننساهم وسنتابع وصية محمود ورعايته لهم .

في كل اجتياح كنت احضر لرؤيته والاطمئنان عليه وعندما أشاهده أبكي فكان يغضب ويطلب مني عدم البكاء ويقول " توكلي على الله وان كنت تحبينني فادعي لي بالشهاده في ساحة المعركة وأنا أقاتلهم وجها لوجه " فكنت أدعو له وأتمنى أن يمنحه الله الحياة حتى يحقق رسالته وحلمه في تحرير فلسطين .

في الاجتياح الاخير اصيب محمود برصاص العدو الغادر فاحضره الشباب قرب منطقة منزلي وعندما شاهدته مصابا ذعرت وخفت ولكنه لم يكن متأثرا بل يضحك ويبتسم وعندما سألته عن حالته وصحته سلم علي وطلب مني الهدوء وعدم الخوف وقال (انها لسعة نحله عالجتها بسرعة رصاصهم لا يقوى علينا فنحن اقوى منهم) ثم صافحني وانطلق مسرعا كالريح وقاتل حتى استشهد ، وابلغتني النساء في حي جورة الذهب ان محمود اعتاد خلال المعركة على تفقد

الاطفال والاهتمام بهم وتوزيع الحلوى عليهم وحثهم على الصمود وعدم الخوف . وخلال القصف قام بمساعدة الاهالي واخلائهم من المناطق الخطيرة وفي بعض الاحيان انفجرت صواريخ قربه فلم يخاف او يرتعد بل كان يرفع من معنويات وقوة الجميع ، كما قلن لي أنه حرص على المشاركة في كل معركة والقتال بعنف وتمكن من قتل عدد من الجنود ، وفي بعض المرات فك الحصار عن مقاتلين وانقذ حياتهم .

قبل الاجتياح الاخير بيوم حضر محمود لبيتي ونام لفترة بسيطة فجلست قربه أتامله وادعو الله ان يحميه وعندما استيقظ طلب كأس بابونج فشربها ، وتوضأ ثم ودعني وقال رددي دوما قوله تعالى (نصر من الله وفتح قريب) ولم يتكلم اكثر من ذلك .

وعن شهادته تقول الله يرضى عليه ومبروك عليه الشهادة والحمد لله على هذه النعمه والمكرمة فقد جاهد في سبيلها ولم يكن ينام أو يهدأ كما كان يقول حتى لا يحرم الشهادة .

* * *

٧ - شهادة علاء شقيق الشهيد

علاء يبلغ من العمر ١٧ عاما وعايش محمود منذ الصغر بعلاقة مميزة ويقول علاقتنا الاخوية رائعه .

محمود اخي حزن كثيرا عندما اعتقل أخي مراد وفشل في تنفيذ العملية الاستشهادية في حيفا وسمعته يقول (لا حول ولا قوة الا بالله ان الشهادة احسن من سجن العدو) ورغم أنه شقيقه أرسله للعملية وكان يقول (جميعنا مشاريع شهاده في سبيل الله والوطن وفلسطين) .منذ صغره ادى واجبه الديني والتزم بالصلاة وكان شيخا ومجاهدا ورجلا بكل معنى الكلمه .

عندما كان يسير أخي محمود في الشارع وهو مطارد من قوات الاحتلال يلاحقه الاطفال في الشوارع ويسمون عليه ، ويهتفون باسمه تعبيرا عن محبتهم له فكان يجلس معهم ويوزع عليهم حلوى او اشرطة دينية ويحدثهم عن الصلاة والجهاد والايمان بالله ، ومقاومة الاحتلال ويحثهم على التمسك بالتعليم والعلم ، فكان يسمع للصغير والكبير ، والجميع يحترمه ويقدره على بساطته وطيبة اخلاقه .حرمه الاحتلال من قضاء العيد بين أسرته لذلك عندما كان يسير في المخيم في العيد يتسابق الجميع لدعوته لزيارته ومعايدته وقضاء بعض الوقت معه .

* في اليوم الثالث من الاجتياح تقدم الجنود بإتجاه حي الشلبي في مخيم جنين فأبلغه الاهالي بتحرك المشاه بشكل واسع وسريع ، فنصب لهم كمينا قرب دار الشلبي وباغتهم بهجوم سريع وقتل واصاب عددا منهم . بعد أسبوع من المعركة شاهدت محمود في حي الحواشين كان قد اطلق لحيته ويحمل سلاحا ناسفا وحقيبة متفجرات ورصاص وسلاح ويرتدي خوذه اقترب مني وسلم علي وطلب مني ابلاغه عن مكان وجود والدتي فذهب اليها وشاهدها وطلب منها ان

ترضى عليه ثم ذهب إلى حارة الدمج فتعرضنا لاطلاق صواريخ في محاولة صهيونية لتوفير دعم لقوات المشاة للاقتحام فواجههم محمود واشتبك معهم لعدة ساعات ثم انسحب الى حارة الحواشين .

* تمكن محمود من تصنيع أشكال مختلفة من العبوات التي يصنعها بنفسه فقد كان يمضي وقتا طويلا في مواقع وعرة وفي الجبال وأحيانا لأيام طويلة في تجهيز العبوات التي أصبحت سلاح المواجهه الرئيسي في المخيم ، فقام بتصنيع عبوة اسماها (اياد ٢) نسبه للاستشهاديين اياد حردان واياد المصري ، ومفعولها قوي واستخدمها في معركة المخيم الأخيرة وتمكن بها من إعطاب عدة دوريات .

* في حارة الحواشين اشتبك محمود وعدد من المقاتلين مع قوات الاحتلال وتمكن من قتل جنديين فأحضر سلكا طويلا وسحب الجنود من الشارع وصادر سلاحهم .

* هذا ويقول علاء لن انسى شقيقي الشهيد القائد محمود طوالبه الذي دافع عن شعبه وجاهد بروحه وماله وحياته في سبيل فلسطين ، وسنمضي على دربه ونقول لشارون محمود حي لن يموت حي في كل ذرة تراب من المخيم بجهاده ومقاومته وإرادته وبطولته محمود يتجدد ويقاوم وسيبقى رمزا للنضال والمقاومة في كل زمان ومكان .

* * *

٨ - شهادة محمد طوالبة (شقيق الشهيد)

محمد طوالبه يبلغ من العمر ٢٨ عاما وهو الشقيق الاكبر لمحمود متزوج ويقيم مع عائلته في مخيم جنين ، وساهم منذ الصغر مع والده في تربية أشقائه ودرس حتى الصف الثاني اعدادي وترك المدرسة ليعيل اسرته ، يقول عشنا حياة بسيطة في المخيم وسط المعاناة عملت مع محمود كعامل عربة في حسبة جنين وكان عمر محمود ١٢ عاما وكنت وقتها أبلغ من العمر ١٦ عاما أما والدنا فكان يعمل تاجر خضار ، الحياة ، في تلك الأيام في المخيم كانت قاسية خاصة وان الظروف المعيشية العامة متدنية وغالبا ما يعاني والدي من خسارة بسبب ركود الحال ، كنا نسكن في حارة الحواشين ومحمود يتميز بتطلعاته وأخلاقه الكبيرة في عمله ولبسه وسلوكه كان يحب الجلوس والتعامل مع من هو أكبر منه سنا ليتعلم ويستفيد منهم في حياته وسلوكه ويضيف لم نكن أخوة فحسب بل أصدقاء نعمل معا ندرس سوية نلعب معا نشتري هدايا لشقيقاتي نتقاسم ثمنها لندخل الفرحة لقلوب الصغار ونعوضهم عما حرمتنا منه الحياة وظروف القهر والتشرد والاحتلال . في المدرسة كان وضعه التعليمي جيدا ولكنه ترك الدراسة في الصف الثالث الاعدادي وبدأ رحلة الشقاء والمعاناة في القصارة في داخل الخط الاخضر .

وتعددت هواياته فمن صيد الطيور والحيوانات البرية الى تصنيع فخاخ الصيد ثم قام بعمل خرطوش لا زلنا نحتفظ به حتى اليوم .أما علاقته الاسرية فكانت قائمة على الود والمحبة وتميزه بأنه حنون كبير القلب ويحب أن يساعد حتى ولو على حساب نفسه ولدى حصوله على راتب فورا يسال عن نواقص ولوازم البيت ويساهم في توفيرها.

خلال عمله في ورشة قصارة في الناصرة والعفولة لدى مقاول فلسطيني حرص من خلال عمله على بث ونشر روح الوعي بالاسلام وإلدين بين رفاقه في العمل ، واخراجهم من واقع الظلمة والضلال للنور والهدايه والدين والاسلام .

عندما اندلعت الانتفاضة الاولى كان عمره ٨ سنوات ومع ذلك شارك في السنوات التالية ككل فلسطيني في المواجهات والمسيرات والفعاليات وتعرض للاعتقال في سن ١٢ خلال مظاهرات طلابية فبينما كان يتصدى لقوات الاحتلال بالحجارة أعتقل وأمضى فترة لا اذكرها في السجن وقد اثرت هذه المرحلة عليه كثيرا وازداد حقده على الصهاينة القتله المجرمين .

هذا وقد تأثر بالاوضاع والدراسة للدين وأصبح داعية اسلامية يركز على الشباب الذين لا يصلون ويزورهم في بيوتهم ويهديهم الى للاسلام بالوعي والكلمة والاشرطة وإذا سمع أي حديث سيء عن شاب يتوجه له فورا ويخاطبه ويهديه ، لم يكن يستهزأ بأحد أو يقلل من قدر انسان ، وتمكن من هداية عدد كبير من الشباب وإعادتهم لطريق الأسلام والخير والصلاح حتى أصبحت كل إمرأة تواجه مشكله مع إبنها بسبب جهله وطيشه تتوجه للشيخ محمود الذي يساعدها ويحل مشكلتها بعد جلسه واحدة مع الشاب المقصود الذي يخرج اكثر وعيا وايمانا والتزاما بالدين والاسلام .

اقام محمود طوالبة علاقات مميزة مع عدد كبير من الشباب المناضلين االمجاهدين الذين استشهد بعضهم خلال المقاومة ومن اصدقاءه من الشهداء أسامة تركمان واياد المصري وعبد الرحيم فرج واشرف أبو الهيجاء وشادي نوباني ومهند أبو شادوف وطه زبيدي وأسامة أبو الهيجاء.

محمود مجاهد صلب من نوع آخر لم يكن يعتقد ويؤمن بأن هناك شيء اسمه المستحيل او اللاممكن ، وشطب من قاموسه كلمات الخوف واسرائيل والجبن والهرب ، وآمن بنهج الله وقوله تعالى (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم)

خلال مطاردته كثر الحديث عن تهديدات العدو باغتياله فكان الشباب والأهالي يخافون عليه كثيرا ولكن عندما كان يتحدث أحدهم عن الموت يغضب ويقول (لا مجال هنا لهذا القول فهو قضاء الله وقدره لا يؤخر او يؤجل او يتأخر سأموت سواء كان ذلك في مغارة أو مطارد أو سيارة فهذا قدر الله) .

كان قدوته الرسول (ص) وشخصيته المفضله رفيق دربه الشهيد إياد الحردان بل و(كل شهيد او استشهادي قدوتي كما كان يقول دوما) .

مع تزايد الهجمه الصهيونية الشرسة على المخيم الصامد لتصفية جذور المقاومة ومحاولات التسلل الصهيونية للمخيم كان طوالبة أول من شكل الحراسات الليلية التي كان يشارك فيها يوميا حيث ان نومه قليل ويقضي ساعاته في العمل والتصنيع والتخطيط والمقاومة .

حلم محمود ببيت صغير حوله حديقة في (نورس) التي كان ينوى الرجوع اليها لو سنحت الفرصة له .

كيف استشهد محمود

" محمود استشهد في اليوم قبل الاخير بعدما اشتدت المعركة مع الشباب وحوصروا في حارة الحواشين كان في الخط الامامي ، وعندما أدرك أنه ليس مفر من التسليم أو الشهادة فاختار الشهادة ورفض الانسحاب ، وقال " أنا موجود هنا وتوكلوا على الله لا خطوة للخلف " وتحصن في منزل أبو جواد القاسم ، واشتبك مع قوات المشاة ومعه عبد الرحيم فرج وشادي نوباني في نفس البيت وبعد فشل المشاة في التقدم وتصفيتهم ، قام الطيران بقصف استمر عدة ساعات على الموقع الذي تحصن فيه علما أنه وضع حزاما ناسفا على جسده ورفض الاستسلام وكان يردد " اذا كان لا بد من الموت فعار ان نموت جبناء " كما لم يبق احد الا وقال له اخرج او استسلم وكان يقول ساموت في هذا المخيم من العار ان أترك من فتحوا لي بيوتهم فى وقت الشدة وكلما مر في طريق كان الجميع يسلم عليه ويصافحه وهذا يطلب منه شرب ولو فنجان قهوة ، فالناس رغم مأساتهم لم يقصروا مع المقاومين وقدموا كل شيء لهم وكان بعضهم عندما اشتد القصف يقولون "فليذهب المخيم وبيوته وليبقى محمود والشباب الابطال على قيد الحياة" .

* * *

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
التقديم	٧
الفصل الأول : قصة الانتفاضة من الأقصى الى جنين	٩
الفصل الثانى : جنين المدينة ٠٠ تاريخ ومقاومة	٣٤
الفصل الثالث : جنين المخيم ٠٠ ملحمة لا مجزرة	٤٦
الفصل الرابع : شهادات عن الملحمة	٩٥
الفصل الخامس : طوالبة : الاسم الحركى لمخيم جنين ٠٠ ملامح المقاتل الربانى من واقع شهادات الأهل والرفاق	١٢٠
صور عن الملحمة وأبطالها	١٥٤

صور عن الملحمة وأبطالها

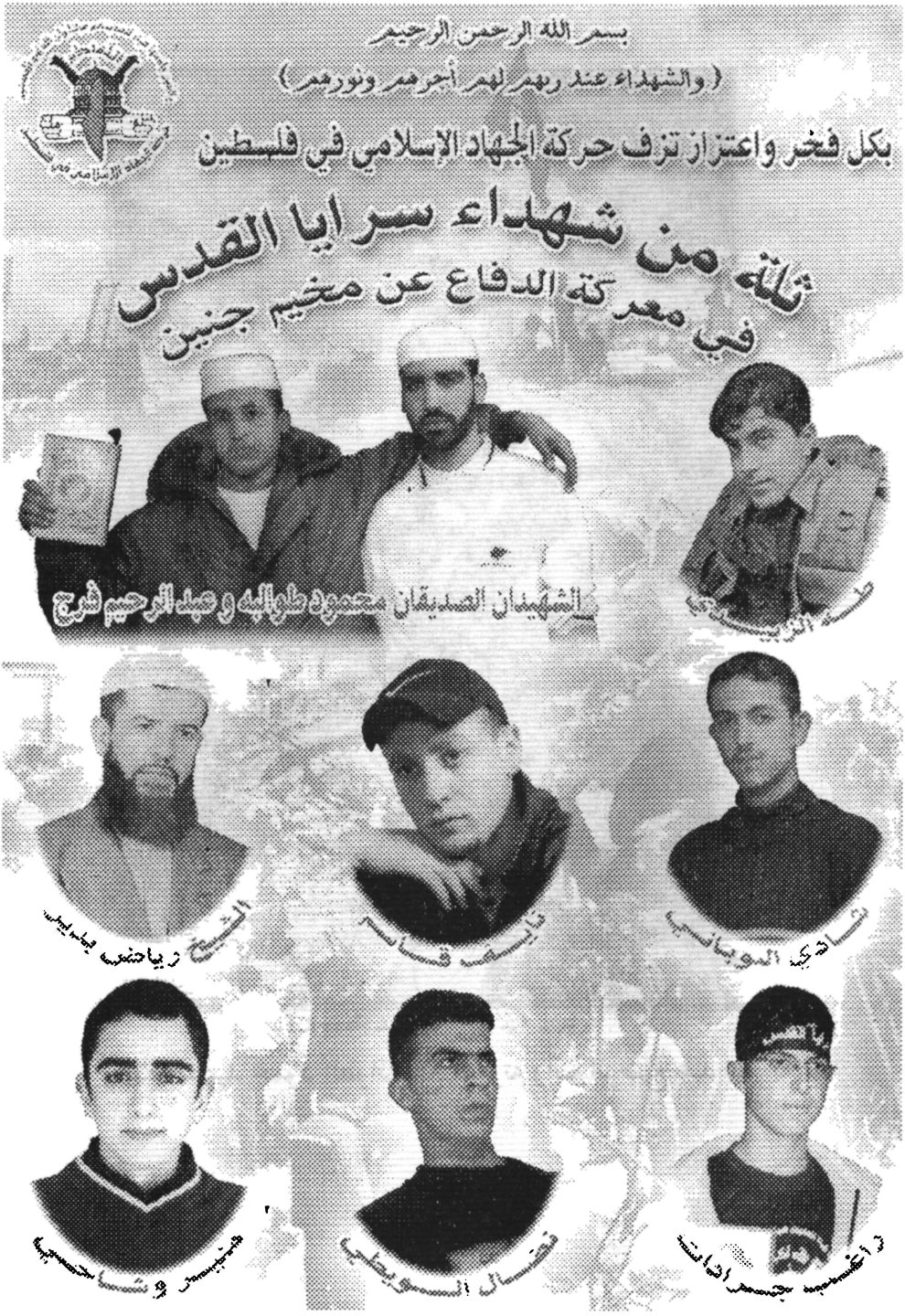
بسم الله الرحمن الرحيم
(والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم)
بكل فخر واعتزاز تزف حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين
ثلة من شهداء سرايا القدس
في معركة الدفاع عن مخيم جنين
الشهيدان الصديقان محمود طوالبه وعبد الرحيم شرع
الشيخ رياض بدير
نايف قائم
نادي الويباني
مجبر وشاحي
فضل الوطبي
ياسر جرادات

والدة الشهيد محمود الطوالبة مع صورته وابنه الرضيع عبد الله

عبد الله ابن الشهيد محمود الطوالبة

دعاء وعبد الله ابنا الشهيد القائد محمود الطوالبة

دعاء ابنة الشهيد محمود الطوالبة

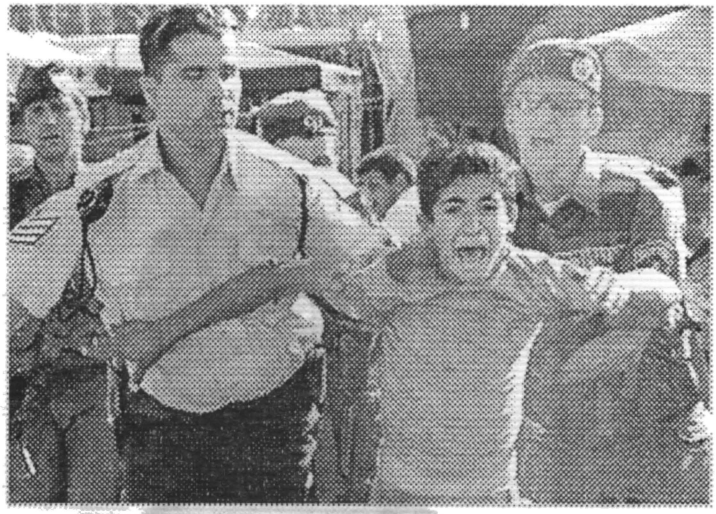

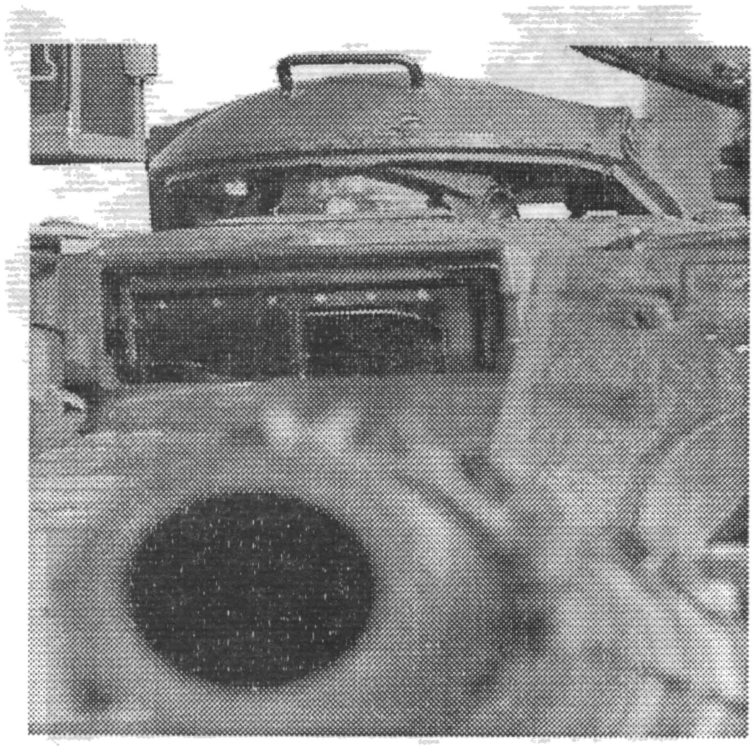

Forget DORRA

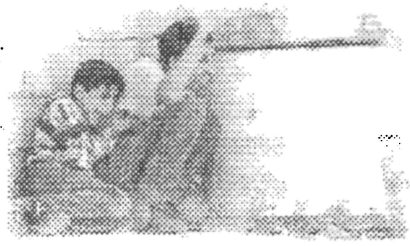

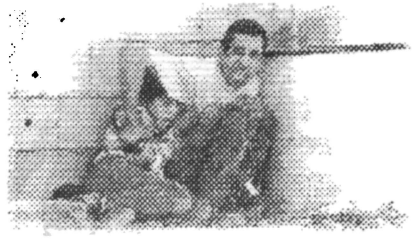

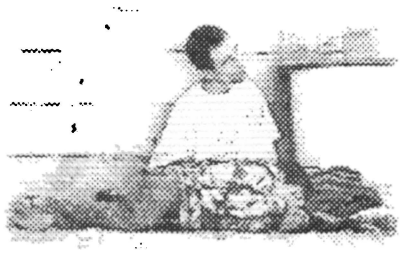

Shooting stages on alive target